

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة لونيبي علي _ البليلة 2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الاتساق النصي في التراث العربي

قراءة في ضوء منجزات بعض الأعلام

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبدلي محمد السعيد

إعداد الطالب:

مكي محمد

السنة الجامعية 2017 / 2018

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة لونيبي علي _ البلدية 2
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

الاتساق النصي في التراث العربي
قراءة في ضوء منجزات بعض الأعلام

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب عربي

إعداد الطالب:

مكي محمد

أمام اللجنة المشكلة من:

اللقب والاسم	الرتبة	الجامعة الأصلية	العضوية
مفتاح بن عروس	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر -2-	رئيسا
محمد السعيد عبدلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة البلدية -2-	مشرفا ومقررا
عبد الحليم ريوقي	أستاذ محاضر -أ-	جامعة البلدية -2-	عضوا مناقشا
سليمة مدلفاف	أستاذ محاضر -أ-	جامعة البلدية -2-	عضوا مناقشا
خليدة بن عياد	أستاذ محاضر -أ-	جامعة بومرداس	عضوا مناقشا
بن علي خلف الله	أستاذ محاضر -أ-	جامعة تيسمسيلت	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2017 / 2018



ملخص البحث

تتنزل مادة هذا البحث في حقل الممارسة النصية بمرجعيات تراثية ؛ تحاول عبر مقولة الاتساق _ بوصفه معيارا مهما للنصية _ أن تؤكد أن الدرس اللغوي التراثي؛ وتحديدًا ذلك الذي ينطلق من خلفيات أصول الفقه ؛علوم القرآن ؛وإعجازه ،قد استوعب هذه الممارسة الموسومة بالتماسك النصي؛ وإن لم يعبر عنها بتلك المصطلحات التي يقترحها الخطاب النقدي المعاصر؛ ولا مُشاحة في الاصطلاح ؛ طالما مفهوم المصطلح حاضرا كمنجز دقيق؛ يستوفي المطلب المعرفي، وتتأكد كفاءة المنجز التراثي من خلال كم هائل من المقولات الدقيقة ؛التي ترافق هذا المنجز من ذلك: التناسب، السياق، مستويات الربط الشكلية والمعنوية، التناص..وما يعمق هذا البحث هو أنه يربط في مسارها الوصفي بين ما أنجزه هؤلاء الأفاضل ؛ وبين المدونة القرآنية التي كانت تمدهم بجهاز إجرائي متين؛ يبدأ بالبرهنة والتسليم بأن النص القرآني الكريم عُدَّ أعظم نصٍّ، لغوي، عربي، متفرد، بطاقة عجيبة على إنتاج منظومة علمية دقيقة ؛ في البحث اللساني بكل حيثياته .

فهرس المحتويات

الواجهة

1	أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في اللغة والأدب العربي
2	أمام اللجنة المشكلة من:
3	كأنه الإهداء
4	ملخص البحث
5	فهرس المحتويات
7	المقدمة:
13	التمهيد:
13	أثر القرآن في الحفاظ على العربية وتطور درسها اللغوي
14	1/ في علاقة القرآن بالعربية
15	2/ التكريم الإلهي للغة العربية:
16	3/ الظاهرة القرآنية وتشكل الأنساق المعرفية الجديدة
18	4/ المطلق القرآني ونسبية الجهد البشري
19	5/ الترافق المنسجم بين العربية والقرآن
22	6/ عالمية الفعل القرآني وعربية الخطاب:
24	7/ في العلاقة بين الدرسين اللغوي والأصولي:
30	الفصل الأول
30	التناسب القرآني
31	الفصل الأول: التناسب القرآني

المبحث الأول: في تحديد المفاهيم.....	31
المبحث الثاني: في محددات التناسب القرآني.....	44
الفصل الثاني:	68
التناسب آلية لاتساق النص القرآني.....	68
المبحث الأول: التناسب منظومة إجرائية عند علماء الأصول	
وعلم القرآن.....	69
المبحث الثاني: التناسب ممارسة إجرائية بأدوات الإمام	
البقاعي.....	112
الفصل الثالث	148
السياق آلية للاتساق النصي.....	148
المبحث الأول: في تحديد الماهيات	149
المبحث الثالث: المحددات المعرفية للسياق عند الأصولي	214
الفصل الرابع:	238
التناص بين المنجز الغربي والممارسة التراثية العربية	238
المبحث الأول: التناص منجز غربي.....	239
المبحث الثاني: التناص في الممارسة التراثية العربية	262
خاتمة البحث	292
قائمة المصادر والمراجع	294
قائمة المصادر والمراجع	295
..... <i>Résumé</i>	314

المقدمة:

إن ما أنجزه الدرسُ اللساني النصي الغربي الحديث في بعض قضايا النص لا ينأى بعيداً عن ما أنجزه التراث العربي وبإمكان المعايين للمدونات التراثية أن يرصد مادة ثرية اشغلت على النص بكل مكوناته ورغم غياب التطابق الاصطلاحي بين المادتين التراثية والغربية الحديثة إلا أن حضور بعض من الظواهر النصية في المتون التراثية يكاد يشاكل في ملامحه العامة ما وُجد في الدرس النصي الحديث، هذا إذا لم يتجاوزه في بعض الجزئيات

ويتنزل هذا البحث في هذا السياق حيث يطمح تأكيد أن ما أنجزه القدامى _ باختلاف مرجعياتهم المعرفية _ في قضايا الممارسة النصية ولاسيما مقولتي الاتساق والتماسك النصي لا يختلف كثيراً عن ما قرره الدرس اللساني النصي الحديث، وإن اختلفت المصطلحات والمنطلقات والإجراءات وتتأكد هذه الممارسة _ بدقة ووضوح _ مع علماء أصول الفقه وعلوم القرآن الكريم وإعجازه في اشتغالهم على النص القرآني.

وفي اتجاه رصد الأنساق التي اشتغل عليها علماء الأصول وعلوم القرآن وإعجازه يمكن أن نقرر بأنهم حددوا منطلقاتهم الإجرائية في اشتغالهم على لغة القرآن من استراتيجية مهمة هي: وحدة النص القرآني، تأسيساً على بنيته المتسقة والتماسكة بالوصفين الشكلي والدلالي وفق مراد المتكلم وهو الله عزوجل، الذي شاءت حكمته وقدرته أن يكون كلامه المنزه على هذا النحو المتقن والعجيب تركيباً وترتيباً بين الآيات فيما بينها من جهة وبين السور من جهة ثانية، وبين الفواتح والخواتم والمقاطع والمطالع وبين الأجزاء فيما بينها، ذلك الترتيب الذي اقتضى التماسك المحكم بين كل مكونات النص الكريم بدءاً من أبسط هذه المكونات وصولاً إلى أكبرها في تعالق دقيق، متين

ومحكم وعلى هذا الأساس يمكن أن نقرر أن مقاربات علماء الأصول وعلوم القرآن وإن اختلفت منطلقاتهم ومبرراتها في الاشتغال على النص مع المنجز الغربي إلا أنهم تجاوزوا الجملة في درسهـم اللغوي لعدم قدرتها على الكشف عن كل إمكانات اللغة المتباينة، فحددوا لأنفسهم منطلقاً يبدأ من النص بوصفه وحدة دلالية كبرى ذات خصائص تختلف عن خصائص الجملة أهمها خاصيتي الاتساق والانسجام وقد كانوا في هذا المنحى على مسافة قريبة من منجزات الدرس اللساني الغربي الحديث مع التنبيه على اختلاف الدوافع و الأدوات والمصطلحات مرة ثانية.

وينبني هذا الجهد المقل على خطة تقوم على تمهيد وفصول أربعة:

أما التمهيد: فهو في معرفة العلاقة بين القرآن والدرس اللغوي في الاتجاه الذي يبرهن على فاعلية القرآن الكريم في حفظ العربية وتطوير درسها اللغوي

أما الفصل الأول: في التناسب القرآني، بمبحثيه الأول في ماهية التناسب بوصفه إطاراً عاماً يحكم الكلام ويحدد توازنه في حقول معرفية عدة أوردنا منها نقد الشعر والدرس البلاغي أما المبحث الثاني فهو في توصيف محددات التناسب القرآني حيث ناقش البحث إشكالية ترتيب القرآن الكريم لارتباط هذه المقولة بقضية التماسك النصي، كما عاين المبحث ظاهرة التناسب في بيئة الصحابة رضوان الله عليهم ثم في الخطاب النبوي لتنتقل المعالجة إلى توصيف التناسب عند الأصوليين فالمفسرين .

أما الفصل الثاني في التناسب آلية للاتساق رصدنا فيه من المقولات ما نعتقد أنه يؤسس للتماسك النصي انطلاقاً من مكونات الظاهرة التناسبية عبر مبحثين كان الأول قراءة في التناسب منظومة إجرائية عند علماء الأصول وعلوم القرآن من خلال مقرراتهم التي حفزها الاشتغال على القرآن الكريم وقد ساق المبحث عينتين للتدليل وهما (الزركشي) و(الشاطبي)، أما المبحث الثاني فهو

قراءة في الممارسة الإجرائية بأدوات واحد من الأعلام الذين وضعوا ظاهرة التناسب موضع التطبيق وهو (إبراهيم البقاعي) في تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور).

أما الفصل الثالث الموسوم بالسياق آلية للاتساق فقد بحثنا فيه مكونات السياق في حقول معرفية عدة: النقد الأدبي، البلاغة الإعجاز وعلوم القرآن، وبيننا الكيفيات التي تحدد اتساق النص انطلاقاً من السياق، وانتظم هذا الفصل في مباحث ثلاثة هي: الأول: بحث في الماهيات أما الثاني: فهو رصد لمفردات السياق في الممارسة التراثية أما الثالث: فهو مقارنة لمقولات السياق في مدونات علماء الأصول

أما الفصل الرابع الموسوم بالتناسل بين المنجز الغربي والممارسة تراثية، فقد أملاه الاعتبار الذي يجعل من التناسل معياراً نصياً ومظهراً مهماً للاشتغال على النص و قارب فيه الباحث مسار التناسل في السياق الغربي محدداً أهم مفرداته عند أهم أعلامه لينتقل في المبحث الثاني إلى رصد محددات التناسل في البيئة التراثية العربية والموصوف _ هاهنا _ بأنه ممارسة نصية للتدليل على الفارق بين مفهومى التناسل في الممارسة التراثية العربية والمنجز الغربي .

السياق المنهجي والمعرفي لهذا البحث

ويجب أن يكون واضحاً لدى القارئ لهذا البحث أن صاحبه ينأى به عن تنظير المنجز الغربي ليس لأنه لا يثق في مفردات هذا المنجز ولا لموقف فكري أو ثقافي رافض، بل لأن العمل أراد لنفسه أن يتنزل في حقل المنجز التراثي العربي وهو ما تجرد بالوصف الدقيق في عنوان هذه الأطروحة، (الاتساق النصي في التراث العربي _ قراءة في ضوء منجزات بعض الأعلام) وهو لأجل ذلك يطمح _ والطموح مشروع _ أن يستثمر ما يتيح هذا التراث الغني من مقولات

بصرف النظر عن مرجعياته، حجمها وقدرتها لتؤسس للممارسة النصية سواء تلك التي انطلقت من المدونات النقدية التي اشتغلت على الخطابين الشعري والنثري أم تلك التي انطلقت من المدونة القرآنية كمحفز للدرس اللغوي، مع الوعي بذلك الاختلاف البين بين المقاربتين بخلفياتهما المعرفية وبأدواتهما المنجزة.

والفضاء أرحب من أن يضيق بمن تصغر في عيونهم قيمة المنجز التراثي فيصادرون مشروعا من حقه أن يعبر عن نفسه، وإن خالف السواد الأعظم من المترددين و المشككين أو من لم يُقدّر لهم إماما كافيا بتفاصيل تلك المواد المعرفية المتنوعة التي أُدعت آلاف المدونات والمصنفات التراثية، ومن المفارقات العجيبة والمجفة _ في هذا السياق _ أن يمتنع الدرس اللغوي الحديث الخضوع للمقولات التراثية رغم ثراء هذه المقولات وامتدادها ويراد للتراث بحمولته تلك أن يخضع لمقررات الدرس اللغوي الحديث بمبررات واهية تحددها مطالب الحداثة

إذن تبدو الصورة واضحة المعالم، بينة القسمات بأن هذا الجهد المتواضع الذي سأسميه بكل مجرد مجرد محاولات تستقرئ تراثنا _ الذي لا نملك سوى أن نجله ونقدره وننتصر له _ وتبدو _ مع وضوح الصورة بهذا الشكل _ ثقتي الواعية بأن هذا التراث قادرٌ على الاستجابة، حمالٌ لنفائس نادرة، دل على ذلك الاستقراء في أكثر من سياق.

إننا ونحن نعاين ظاهرة الاتساق في المدونات التراثية ونبحث في آلياتها وتفاصيلها لسنا ملزمين بأي حال من الأحوال، تحت أي مسوغ منهجي، معرفي، أو فكري أن يكون المفهوم مطابقا _ بالضرورة _ كل التطابق لمفهوم (مايكل هاليداي) و(حسن رقية) مثلما أننا حين نحاول رصد مظاهر التماسك النصي كما يفهمه العقل العربي التراثي في تعامله مع النص لسنا مطالبين على وجه الإلزام أن تكون بالمعيار نفسه الذي يكيل به (فان ديك)، وبالكيفية ذاتها حين

نبحث في المعايير النصية في تراثنا فلن يكون محك المصادقية هو مدى مطابقتها لمعايير (دي بونجراند) ... على أنه يجب أن يُفهم بفكر موضوعي منصف أن هذه الاختيارات لا تعني مطلقاً قدحاً في المنجز الغربي أو تقليل من قيمته، لسببين وجهين أولهما أننا نؤمن بقيمة هذا الانجاز الغربي وجدواه وثانيهما أننا نؤمن بمبدأ التراكم المعرفي ومع هذا الإقرار الموضوعي فإن _ بحكم منطلقات البحث والسياق الذي يتنزل فيه _ مقارنة هذا البحث لبنية الاتساق تتم بالتوصيف التراثي وفق ما فهمه أعلامنا سواء أولئك الذين اشتغلوا على النص القرآني باختلاف مرجعياتهم وهي كثيرة أو الذين كانت لهم إشارات دالة في مقاربتهم البلاغية أو نقاد النص الشعري أو الذين تناولوا الدرس النحوي بالتأسيس والتعديد، ومهما كان فهمهم وكيفما كانت إشاراتهم عمقا أو بساطة فإنها لا تبرر عدم البحث في هذه التفاصيل والنأي بالنفس عن هذه المادة التي لا تعدم فيها الفائدة.

ولا يمنعنا هذا البحث ذي المنطلقات التراثية _ مطلقا _ أن نستأنس بالدرس الغربي الحديث في بعض الجزئيات متى اقتضتها مساقات النقاش سبيلا لذلك، اختيارا لا إلزاما .

وفي الأخير هذا جهد المقل، لا يدعى فيه صاحبه بلوغ المرام، ولا يستأثر الفضل وحده بل يقر أن هذا العمل _ على تواضعه _ ثمره من ثمار أستاذي الفاضل الدكتور الأستاذ عبدلي محمد السعيد الذي كان نعم العون، وخير المرشد بعمق رؤيته وسداد رأيه، وصبره الطويل على تقاعس همتي، التي دامت قرابة عقد من الزمن، ولعل اكتمال هذا العمل على سوقه بهذا الشكل يشفع لصاحبه بعض ذلك التقصير فلاستاذي الأشم جزيل الشكر وبالغ الامتنان، كما أتقدم بجزيل الشكر _ مسبقا _ إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنة العلمية على تحمل عبء قراءة هذا البحث قصد

تصويبه وتوجيه صاحبه إلى قواعد البحث العلمي الصحيح، فلهم مني كل الشكر والتقدير والامتنان.

التمهيد:

أثر القرآن في الحفاظ على العربية وتطور درسها اللغوي

أثر القرآن في الحفاظ العربية وتطور درسها اللغوي

1/ في علاقة القرآن بالعربية

لم يكن القرآن الكريم _ فيما وعاه أسلافنا القدامى _ هو الكلام الإلهي المتعبد به فحسب، بل كان فضلا عن ذلك هو الخطاب الذي أذهلهم وأمتعهم بيانا وإعجازا، فلقد تأملوه حرفا حرفا وكلمة كلمة وجملته جملة، فوجدوا فيه ما لم يجدوه في معهود كلامهم، وما لم يألوه في خطاباتهم، التي كانوا كثيرا ما تباهوا بها قبل نزوله، ولقد نشأت صلة قوية، محكمة بينهم وبين هذا الفعل اللغوي العجيب ولم يكن هذا الذهول ولا تلك الصلة مجرد عاطفة لا تترجم إلى وقائع، بل لقد حفزهم هذا الشعور المستحكم على البحث في تفاصيل هذا البيان الأخاذ وفهم أسراره، ودفعتهم صدمة الذهول إلى استقصاء هذه الظاهرة المتميزة بكل إمكاناتها وربما اختلفت مذاهبهم تفسيراً وتحليلاً، لكنهم اتفقوا جميعاً على الإقرار بتفرد الظاهرة، وقدرتها المطلقة على تجاوز مقدور البشر، وأنى لهم أن يبلغوا شأوها وهي وحي السماء، هي المعجزة الخالدة !

ولم تكن هذه الروح الجديدة التي سرت في جسد العربية _ والتي سيمتد تأثيرها في ملكات الكثير من الأعلام، فتُقرَّر مخرجات معرفية مذهلة _ وليدة اجتهاد عكف عليه أساطين العربية آنذاك، ولا نتاج تراكمات متلاحقة من العناية والتطوير، بل كان _ في البدء _ هدية السماء، التي اختارت هذا اللسان العربي المبين، مثلما اختارت هذا القلب العربي لتلقي نداء السماء، وتحمل أمانة التبليغ، التي أبت السماوات والأرض أن يحملنها قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١١٢ نَزَلَ بِهِ

الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ الشعراء 192/193

2/ التكريم الإلهي للغة العربية :

لقد اختارت حكمة الله تعالى هذا اللسان المبين، دون غيره من الألسن لأعظم مهمة، وأجل وظيفة هي الاستخدام الإلهي في مخاطبة أهل الأرض، ليس في زمن النزول فحسب، بل على امتداد الأزمنة حتى يأذن الله عز وجل بقيام الساعة، لقد كان اختيار الله تعالى لهذا الشتات من البشر الذي لم يعرف - قبل القرآن - حضارة ولا دولة ولا استقراراً بعثاً لأموات، بكل ما تحملها هذه الكلمة من دلالات، فبُعِثت أمة عظمى بوحى القرآن وتشكلت جغرافيا المعرفة بملامح قرآنية جديدة، وأسس التاريخ تفاصيله الحديثة بتوجيهات الوحي المنزه، واتخذت البشرية بوصلة القرآن موجها نحو أفق جديد " فخرجت أمة عظمى من قلب القرآن وتحرك التاريخ والحضارة بنزول القرآن، وتقرر مصير الصراع الإنساني في هذه الأرض وتحددت وجهته بتأثير القرآن"¹

في هذا السياق تأتي مادة هذا الفصل التي تؤسس لاستقراء تلك العلاقة القوية بين اللغة العربية والوحي القرآني بما يؤهل لتمثل أمرين غاية في الأهمية، أما الأول فهو أثر القرآن المباشر في حفظ العربية وصونها طوال هذه الحقب مما لم يتهدأ لغيرها من اللغات أما الأمر الثاني فهو الارتباط القوي بين القرآن الكريم والتطور السريع، والمذهل للدراسات اللغوية بكل تفاصيلها تلك التي انطلقت من القرآن ولأجل القرآن وأسست أنساقا علمية كثيرة وانخرطت في هذا الاتجاه أجيال متلاحقة من الأعلام باختلاف تلك الأنساق التي انتموا إليها (علماء الإعجاز، علماء علوم القرآن، علماء الأصول، علماء الحديث، علماء التفسير، علوم القراءات، علماء الكلام، فضلا على اللغويين والبلاغيين ونقاد الشعر)

¹ - عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، مكتبة الشباب القاهرة، ص32

وفي هذا الاتجاه يمكن التأكيد على فاعلية القرآن الكريم في كينونة تلك الأنساق المعرفية التي ما كان لها أن تكون قبل الوحي القرآني، تلك التي كانت وثيقة الصلة باللغة العربية. وقد مكن هذا الارتباط بين القرآن والعربية من حفظها، تطويرها وتخليدها.

3/ الظاهرة القرآنية وتشكل الأنساق المعرفية الجديدة

إن هذا الانقلاب المفاجئ في حياة العرب ما كان ليكون لولا ثورة القرآن التي قلبت راهنهم رأساً على عقب، ووجهت اهتماماتهم وجهة أفاضت على كل مناحي حياتهم معاني الإيجابية والعطاء والتمكين وبالتأكيد لم تكن لغتهم بمنأى عن هذه المعاني الجديدة، مثلما أنها لم تكن الملمح الوحيد في التشكل الجديد للواقع العربي، بل لقد أفاض الوحي على البيئة العربية روحاً أشرقت بمعاني إيجابية فعالة وألهمت الملكة العربية نزوعاً نحو الإبداع فكان ميلاد أنساق معرفية متنوعة تنطلق كلها من روافد القرآن العذب " وبوسعنا أن نقول إن نزول القرآن كان بمثابة الثورة اللغوية التي وضعت العربية على بداية الطريق إلى الحضارة الثقافية والتي بدأت عملية إبداعية هائلة، في مجال العقل المسلم، ونشأت علوم كثيرة ما كان لها أن تكون لولا نزول القرآن ¹

ولا أدل على ذلك من أن كثيراً من العلوم التي كانت وثيقة الصلة باللغة العربية بوصفها الأدبي، فضلاً عن صلتها بأنساق أخرى غير أدبية، _ هذه العلوم التي سيكون لها بالغ الأثر في تغيير منظومة تفكير الإنسان العربي جذرياً، وتشكل شخصيته وفق منطلقات مغايرة تماماً لما قد سلف _ ما كان لهذه العلوم أن تُوجد لولا وجود القرآن الكريم إذ " تتابعت الجهود في مختلف المجالات وتنوعت الاجتهادات وتعددت المقاربات حتى تراكمت لدى الأمة مجموعة هامة وكبيرة ومتنوعة من المعارف تحولت خلال القرنين الهجريين الأول والثاني إلى علوم وفنون ومعارف

¹ المرجع السابق ص32

وصناعة مدونة وبقيت مدارس علماء الأمة تضيف عليها وتحذف منها وتطور فيها وتتوسع في قضاياها حتى بلغت حد من تكامل في مشارف القرن الرابع الهجري وهنا استوت على سوقها وعرفت مبادئها واستقرت وسائلها وتميزت مقاصدها عن وسائلها واستقل كل منها بشيء من ذلك، فكانت أحد عشر علما، مابين علم وسائل علم مثل علوم اللغة والمنطق وعلوم مقاصدية مثل علوم التفسير والحديث والأصول والفقه والتوحيد وذلك بقطع النظر عن تفرعاتها وشعبها الداخلية وأنواع المعارف التي أخذ بعضها في حجر بعض حتى تجاوز عددها في القرن السادس وما تلاه مائة علم وفن ¹

وقد يبدو من الإجحاف خارج هذا السياق أن نتصور أن امتدادات القرآن وقدرته على توليد الطاقة المغايرة تقف عند هذا الحد، حينما نعتقد أن ما جاء به القرآن _ مع تأكيد التسليم بفاعليته وتميزه _ لا يتجاوز سقف اللغة المعجزة بوظيفتها الدينية التربوية، وإلى جنبها بعضا من العلوم التي لا يصل تأثيرها إلى مشروع أكبر يتمثل في إعادة تشكيل الإنسان المتلقي خلقا آخر، وهو تصور خاطئ يقع فيه الكثير ممن تقتصر معرفتهم بالقرآن على جانب واحد فحسب بل إن تأثير القرآن تجاوز _ قطعاً _ هذا السقف، إنه ذلك المعبر عنه بتبيان كل شيء: **قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ**

الْكِتَابَ نَبِيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ **سورة النحل 19** وتبيان كل شيء يعني أن الوحي الرباني المنزه لم يغفل صغيرة ولا كبيرة في حياة الناس إلا أحصاها ونظمها في أحسن تقويم، لقد كان القرآن بهذا الوصف " كتاب هداية وتشريع لا شك في هذا ولكنه كتاب استقراء لمجاهيل الكون وأشباج الطبيعة ومفاوز الفضاء ومسالك ما تحت الأرض وهو أيضاً

¹ - طه جابر العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة ، سلسلة كتاب دوري يصدرها مركز فلسفة الدين والكلام الجديد في بغداد، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 بيروت

المصدر الحقيقي الدقيق لتأريخ الديانات السماوية وحياة الرسل والأنبياء والشهداء والصدّيقين وهو كذلك النموذج الأرقى في استيعاب مشكلات الأزمنة المتناقضة بين السلب والإيجاب، يجد حلولها ويوفر علاجها ¹ ولعل هذا هو السر الخفي الذي جعل من هذه المدونة المقدسة تتسم بجملة من الميزات أهمها: الخلود، الإعجاز، البعد العالمي والقدرة العجيبة على إيجاد أجوبة للأسئلة التي يطرحها البشر في كل مناحي حياتهم ليس في عصر التنزيل فحسب بل في كل العصور والحقب المتوالية إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

4/ المطلق القرآني ونسبية الجهد البشري

والم تأمل في حركة التاريخ بدءاً من نزول الوحي يلحظ ذلك الترافق المنسجم بين طاقة التلقي لدى الإنسان الجديد الذي تشبع بقيم الوحي وبين فاعلية الاستجابة السريعة التي تُترجم تفاعلاً فطرياً عجيباً أثمر في زمن يسير _يدعو للتأمل والذهول_ منجزات خارقة ومخرجات قد لا تستوعبها عقولنا المجتهدة بتفاصيل الراهن المتردي، فلقد تغيرت وقائع حياتهم بفعل القرآن تغيراً جذرياً، جعل منهم رواداً في كل شيء بما أنجزوه بمقتضى الالتزام بتعاليم الدين الجديد.

ورغم عظمة هذا المنجز الذي أثمره الالتزام بمقتضى الرسالة المحمدية من جهة والاشتغال على القرآن الذي تصدرت له الأجيال المتلاحقة من الأعلام من ذوي الكفاءات النادرة من جهة ثانية إلا أن طاقة القرآن الخلاقة لم يستوعبها الجهد البشري الذي ظل يُجهد قدراته في الوصول إلى الحدود الممكنة وقطعا ليست القصوى، ذلك أن الوصول إلى إمكانات الفعل القرآني المطلقة غاية لا تدرك مع قدرة البشر المحدودة ! وليس تعبيراً أدق من القول بأن " كل الجهود قد حومت بالأمة حول شواطئ ذلك الكتاب المجيد المكنون وقدمت شيئاً من الفوائد ولكنها قد قصرت عن الإلمام بمطلق

¹ - محمد حسين علي الصغير نظرات معاصرة في القرآن الكريم ، دار المؤرخ لبنان بيروت ص 23

الكتاب، إذ هيمنت نسبية البشر على ذلك المطلق وقيدته إلى مدركاتها الظرفية ومحدداتها الزمانية والمكانية¹ وهو التوصيف نفسه في تأثير القرآن على حياة الناس واهتماماتهم ومشاريعهم وتفاصيل واقعهم الجديد الذي أصبح له أكثر من معنى، يمتد هذا التأثير العجيب ليلون كل مظاهر حياة المؤمنين بألوان مشرقة وتبدو العربية بثوبها القشيب بتأثير تلك الطاقة المطلقة للوحي في قلب التغيير "فالقرآن في صورته الطلقة الحرة، من كل قيد، هو الذي خرج بالأساليب العربية من حدودها وهو الذي أطلقها من قيودها فصارت أداه التعبير الفنية عن الحياة والحضارة في جوانبها وأجزائها المختلفة"²

5/ الترافق المنسجم بين العربية والقرآن

وعلاقة القرآن بالعربية لا تتحدد في كون هذه اللغة هي لسان الوحي الذي خوطبت به البشرية جمعاء رغم أن هذا التشريف لم ترق إليه لغات أخرى بل إن القرآن يمثل "كتاب العربية الأكبر وأثرها الأدبي الأعظم، فهو الكتاب الذي أخلد العربية وحمى كيائها وحلّد معها، فصار فخرها وزينة تراثها صرف"³ وما كان للعربية _قطعا_ أن يُكتب لها الخلود لولا مرافقة القرآن لها ومن المؤكد أنه كان سيكون مآلها الذوبان في لهجات متعددة شأن لغات كثيرة قبلها، تلاشت في لهجات عبر حقب من الزمن، نعم "لولا القرآن وما صاحبه من حرص على حفظه في الصدور

¹ - طه جابر العلواني نحو منهجية معرفية قرآنية ص 9

² - عبد الستار الجواري ، نحو القرآن ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ط 1 بغداد 1394 هـ

1974م ص 7

³ - أمين الخولي ، دراسات إسلامية . دار الكتب المصرية، القاهرة 1996، ص 38

واستمرار مراجعته وتناقله_ ثم ما كان من حرص الرسول ﷺ على كتابته بأيدي كتاب الوحي -
لولا ذلك ما بقي من العربية إلا القليل ولتشرذمت إلى عدة لغات بعدد لهجاتها¹.

إن هذا الحفظ وتلك الرعاية وقد اكتنفا العربية من لدن حكيم خبير صنعا لها خلودا واستقرارا لم تحظى به لغات آخر هيمنت زما ثم بادت وانقرضت، " إن بلوغ العربية هذه الدرجة من الكمال الذي أعدها لنزول القرآن بها حدثا جليلا تميزت به عربية القرآن في السنة قريش على أخواتها من
الفصيلة السامية وهي العبرية التي كتبت بها التوراة والآرامية

التي كتبت بها الأناجيل فبقي القرآن بكمال لسانه وأية بيانه على حين أصاب التحريف ما نزل من
كلام الله تعالى في التوراة والإنجيل² ومن الحكمة في هذا الاتجاه أن نطرح سؤالا تبدو إجابته
واضحة وهو ما السر في أن لغة مثل اللاتينية القديمة تقطعت أوصالها فأصبحت لغات متعددة
فرنسية وإسبانية وإيطالية وهو ما لم يحدث للعربية ؟ بل إن المعايينة التاريخية الموضوعية في سياق
استقراء تطور اللغة الانجليزية _ مثلا _ تقول أن " الانجليزية منذ قرنين فقط توصف بالقدم ! لأن
أغلب كلماتها آنذاك قد انسحبت من الاستعمال ولأن هناك مؤثرات تكاد تقفز بهذه اللغة قفزا سريعا
ولاسيما في المجتمع الأمريكي حتى أنها كادت تستغرب على السنة أهلها إذا مر عليها عدة أجيال
"³ وفي المقابل نجد العربية تحافظ على كل مكوناتها التركيبية ،الإفرادية، المعجمية، الصوتية بل إنه
كلما تقدم بها الزمن ازدادت العربية تألقا وجمالا بنموذجها القرآني الذي يغري طلاب البيان ومريدي
الفصاحة بأن ينهلوا من ينابيعه الصافية وما ذلك إلا " لأن هناك فرقا هائلا بين العربية وغيرها
من اللغات وهذا الفرق يتمثل في أن المعجم الإفرادي والتركيبية للعربية يتميز بكثير من الثبات

¹ - عبد الصبور شاهين عربية القرآن ص 8

² - المرجع نفسه ص 67

³ - المرجع نفسه ص 20

والاستقرار نظرا لوجود القرآن الكريم وبيانه في الحديث النبوي الشريف وهما حدا ما بين العربية القديمة على لسان أهل الجاهلية والعربية المعاصرة على السنة الأمة الإسلامية فهذه العربية مقروءة ومكتوبة ومحفوظة في صدور الرجال منذ كان الإسلام ومازالت الأمة تتعبد بحروف القرآن ترتيلا وتجويدا وموسقة، بل مازالت لغة القرآن هي النموذج الأمثل الذي يحتذى على أقلام الكتاب المعاصرين مهما اختلفت اتجاهاتهم وموضوعاتهم وأهواؤهم¹

إن كل القرائن التي سقناها تدلل أن القرآن الكريم المعجز هو الطاقة التي هيأت للعربية الحفظ والخلود والانتشار في تلك العلاقة المتلازمة بين الاثنين مثلما هيأت لها تلك المخرجات المعرفية المؤسسة على الإتقان والإحكام التي تناولت هذا اللسان بالدرس والاستقراء " وهكذا ظهر لنا التأريخ الحضاري المشترك بين اللغة العربية والقرآن الكريم مما شكل مظهراً اجتماعياً متلازماً، فالحفاظ على اللغة يعني الحفاظ على القرآن وصيانة لغة القرآن يقتضي صيانة لغة العرب، لارتباط وجودها التاريخي بوجوده التشريعي واستمرار رقيها بلمح من استمراره ولما كان القرآن الكريم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وهو مرقوم بهذه اللغة الشريفة، فالخلود متصل بينهما رغم عادية الزمن وهذا أمر يدعو إلى الاطمئنان على سلامة اللغة وأصالة منبتها² ويمكن أن نسجل أيضاً في السياق نفسه أن " هذه اللغة مصونة بالقرآن ومحفوظة به، نتيجة تضافر جهود علماء العروبة والإسلام في نفي الشوائب ودرئ الأخطار حتى سلّمت هذه اللغة من التدهور والانحطاط اللذين عرضا لجملة من لغات العالم وعلى العكس من ذلك فقد ارتفعت لغة القرآن عن مستوى الانصهار في غيرها من اللغات واعتصمت بمخزونها عن الدخيل من الألفاظ وهي بين هذه وذاك تصارع حركات العامية

¹ - المرجع السابق ص 20

² - محمد الصغير علي الحسين نظرات معاصرة في القرآن الكريم ص 69

وتدحض شُبه الانقضااض على التراث وتسمو عن مسيرة الإذابة بالبطانات الأعجمية واللهجات الإقليمية، حتى كتب لها الخلود ببركة القرآن العظيم وظلت رمز الشموخ الوضاء ¹

6/ عالمية الفعل القرآني وعربية الخطاب:

ورغم اختيار الحكمة الإلهية اللسان العربي خطابا للبشر إلا أن هذه الحكمة نفسها اقتضت أن تجعل من الفعل القرآني بعدا عالميا يتجاوز بيئة العرب ويتخطى مواطن التنزيل الرباني (مكة والمدينة) إلى مشارق الأرض ومغاربها في رحلة أزلية تبحث عن ملكات بشرية خصبة تستوعب هذه الطاقة القرآنية المعجزة فتستثمرها في التمكين لهذا الدين الجديد بكل مفرداته ومقولاته الأدبية والاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية ... إننا نفهم من تلك الواقعة الرائعة التي ضرب فيه النبي ﷺ القول الفصل في أحقية البشر كلهم في أن يغترفوا من هذا النبع العذب، حين قال قولته الشهيرة (إن العربية ليست لأحدكم): ف " عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء ؟

فقام معاذ بن جبل، فأخذ بتلابيبه ثم أتى به إلى النبي ﷺ فأخبره بمقالته، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه، حتى دخل المسجد ثم نودي: إن الصلاة جامعة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد (أيها الناس إن الرب رب واحد، والأب أب واحد والدين دين واحد وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي، فقام معاذ بن جبل فقال: بم تأمرنا في هذا المنافق ؟ فقال: دعه إلى النار، فكان قيس ممن ارتدَّ فُقُتِل في الردة ²

¹ - المرجع السابق ص 67

² - الحافظ ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق دار الفكر دمشق المجلد 21 ص 407

إنه درسٌ بليغٌ، المعلم فيه النبي ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم القائل عن نفسه " أنا أفصح العرب بيد أني من قریش" ¹ درسٌ أهم دلالاته أنه ينبذ العصبية الجاهلية ويتبرأ من كل من يصادر لسان القرآن ويجعل من العربية ملكا له ،بل هي لغة عالمية، هي ملك لمن ينطق بها ويخدمها ولذلك تسابقت الملكات من جزيرة العرب ومن قارات المعمورة إلى خدمة هذه العربية والذود عنها وما أكثر الأسماء التي قدمت للغة القرآن العطاء الجزل من الهند والسند وأقاصي آسيا وأوروبا وأفريقيا مثلما قدمت للحضارة الإسلامية العالمية قيما كثيرة وحين نستنطق التاريخ فإنه يمدنا بأسماء كثيرة ناصعة عظيمة لا يسع هذا العرض أن نورد لها كلها، فهذا إمام اللغة (سيبويه) المنحدر من بلاد فارس صاحب (الكتاب) أنفس كتب النحو وذاك (ابن جني) من فقهاء اللغة يوناني الأصل و (الجرجاني) إمام البلاغة وصاحب نظرية النظم أقوى نظريات الدرس السياقي من جرجان و (الفيروزبادي) صاحب أعظم معجم لغوي (القاموس المحيط) هندي المسقط، ومن أهم رواد البحث في إعجاز القرآن (الباقلائي) و (الخطابي) من بلاد الأفغان... وإذا تحدثنا عن أئمة الحديث ألفينا (البخاري) من بخارى و (مسلم) من نيسابور وأبي داود من أفغانستان و (النسائي) من تركمان و (الترمذي) من ترمذ في أوزبكستان، وشيخ الإسلام (ابن تيمية) من أصول كردية... إلخ، دون أن نتحدث عن أسماء كثيرة في علوم أخرى كالطب والرياضيات والهندسة والفلك والفلسفة... وما لا تحصيلهم صفحات هذه المقاربة، كل هؤلاء الأعلام الجهابذة عرَّ بهم الإسلام فأقاموا _جنباً إلى جنب مع إخوانهم من العرب ومن قوميات أخرى كلها ذابت في بوتقة الإسلام_ أعظم حضارة عرفت البشرية وما زالت أثارها قائمة إلى الآن، حضارة روحها تعاليم الإسلام ولسانها العربية وروادها عظماء تشبعوا بقيم الإسلام فكان كل واحد منهم أمة وحده يحرس هذه القيم في الموقع

¹ العسقلاني أحمد بن علي محمد الكناني ، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، الجزء 4 مؤسسة

الذي اختاره الله عز وجل له، إنها الحاضنة الإيمانية القرآنية التي أنجبت هذه الأجيال النادرة إن " هذا المنظور الرائع للقرآن يوحى بعالمية القرآن وهذا الفهم الرصين لمناخ القرآن يقضي بإنسانية رسالته بعيداً عن النظرة الإقليمية الضيقة وهذا الواقع المعاصر في تقييم القرآن هو الذي يؤكد حقيقة الصيغ العالمية في مفاهيم القرآن ¹ وفي الاتجاه نفسه نفهم معنى أن يقول _بإنصاف_ شيخ المستشرقين الألمان (ثيودور نولدكه) "لم تصر العربية حقاً لغة عالمية إلا بسبب القرآن والإسلام؛ إذ تحت قيادة القرشيين فتح البدو، وسكان الواحات، نصف العالم لهم وللإيمان، وهكذا صارت العربية لغة مقدسة أيضاً ²

7/ في العلاقة بين الدرسين اللغوي والأصولي :

وفي سياق المقولات السابقة تأتي العلاقة بين الدرسين اللغوي والأصولي متلازمة لا تبررها علاقة العربية بالقرآن فحسب بل تمتد هذه العلاقة إلى الدين إجمالاً الذي جعل من هذا اللسان المبين معادلاً لفهم أصول الشريعة و أحكامها ومن ثمة ندرك ذلك الربط الدائم الذي يعمد إليه علماء الأصول بين ضرورة تعلم العربية من جهة وبين الاشتغال بعلوم القرآن وإعجازه وأحكامه وتفسيره من جهة ثانية ولقد عُدَّ هذا التوجه في صلب شعائر الدين يقول (ابن تيمية) رحمه الله: "إنَّ الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السَّابِقين إلى هذا الدين متكلمين به، ولم يكن سبيل إلى ضبط الدِّين ومعرفة إلا بضبط هذا اللسان، صارت معرفته (أي اللسان العربي) من الدِّين، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين " ³

¹ محمد الصغير، نظرات معاصرة في القرآن الكريم 23 و 24.

² - ثيودور نولدكه: اللغات السامية تخطيط عام. تر: رمضان عبد التواب. دار النهضة العربية. القاهرة، 1963

م، ص 9

³ - تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، مجلد 1 تحق ناصر عبد الكريم العقل مكتبة الرشد الرياض ص 402.

ولا يتأكد هذا الارتباط على النحو الذي تكون فيه العربية لغة هذا الدين ومن ثمة وجب تعلمها بل إن هذا الارتباط _ في تقدير (ابن تيمية) وكل علماء الأصول _ هو جزء من العقيدة يقول (ابن تيمية): "فإنَّ نفسَ اللغة العربية من الدِّين، ومعرفتها فرضٌ واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ثم منها ما هو واجبٌ على الأعيان، ومنها ما هو واجبٌ على الكفاية"¹ ولعله حين تحدث عن واجب الأعيان قصد من التعلم ما يُمكن من ممارسة شعائر الدين وهو ما تضبطه قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهو واجب على كل مسلم بالضرورة أما ما يتعلق بواجب الكفاية فهو يتجاوز حدود الوظيفة التعبدية لهذه اللغة إلى أقصى معرفة تُمكن من تمثيل دقائقها وجزئياتها ضمن كل المستويات الممكنة بما يؤهل هذا المتعلم من فهم القرآن الكريم في دلالاته ومقاصده وعلومه وشرائعه وهي معرفة اضطلع بها علماء الأصول وعلوم القرآن والتفسير والحديث النبوي، وقد تتجاوز معرفتهم بالعربية _ أحيانا _ معرفة النحويين واللغويين والبلاغيين

إن واجب الكفاية الذي أشار إليه (ابن تيمية) كان هو الدافع المحفز لعلماء الأصول _ خاصة _ في الإقبال على العربية تعلمًا وتبحرًا في أسرارها وتفاصيلها خدمة للقرآن الكريم بالدرجة الأولى ثم للحديث النبوي الشريف بالدرجة الثانية وهو بالجملة خدمة ما شرعه هذا الدين، يضيف (السيوطي): "ولا شك أنَّ علم اللغة من الدين؛ لأنه من الفروض الكفائيات، وبه تُعرفُ معاني ألفاظ القرآن والسنة"² وينقل صاحب المزهري عن (الفاربي) أنه قال: "القرآن كلام الله وتنزيله فصل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم مما يأتون ويذرون ولا سبيل إلى علمه وإدراك معانيه إلا

¹ - المرجع السابق ج 1 ص 469

² - جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ج2، تحق فؤاد علي منصور دار الكتب العلمية ط 1 بيروت، 1998، ص260.

بالتبحر في علم هذه اللغة"¹ ويؤكد (الرازي) ما ذهب إليه (ابن تيمية) و(السيوطي) وغيرهما من أن التبحر في اللغة العربية واجب بلا بد، وهي على المشتغل بالقرآن الكريم والحديث النبوي على وجه الإلزام حين يقول: "لما كان المرجع في معرفة شرعنا إلى القرآن والأخبار، وهما واردان بلغة العرب ونحوهم وتصريفهم، كان العلم بشرعنا موقوفاً على العلم بهذه الأمور، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به - وكان مقدوراً للمكلف - فهو واجب"² ومن ثمة ارتبطت العربية بعلم الأصول ارتباط الجسد بالروح ولم يكن مستساغاً أن يستحق عالم الأصول كفاءة دون أن يكون عارفاً بقوانين العربية وأسرارها بل إنه قد يصل الأمر إلى تحريم الكلام في كتاب الله إذا انتفى شرط التمكن من العربية لدى هذا المتكلم بالقرآن يقول (مجاهد) "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"³ ولذلك كانت أية مغامرة في قراءة النص الكريم لا تقوم على فهم عميق للعربية وبالا على صاحبها يقول (مالك بن أنس): "لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا"⁴

وتبدو الإشارة الرائعة التي يسوقها (الشافعي) في توثيق العلاقة بين علم اللغة (النحو) والفقه مؤشراً دالاً على ذلك التلازم حين قال "لا أسأل عن مسألة من مسائل الفقه، إلا أجبت عنها من

¹ - المرجع السابق ج2 ص 260

² الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، المحصول في علم أصول الفقه ج/ 1، تحقق طه جابر فياض العلواني مؤسسة الرسالة ص 203

³ - الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ج 1، تحقق يوسف عبد الرحمان المرعشلي دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ط 3، 1400 هـ 1980 ص 396

⁴ المرجع نفسه ج1 ص 396

قواعد النحو¹ وإذا كان هذا الشاهد يدل على العلاقة بين اللغة وأصول الفقه فإنه يؤكد في السياق نفسه على قدرة (الشافعي) في علوم اللغة وأسرارها ودقائقها فضلاً على أنه هو واضع علم الأصول، وتبدو إشارة مهمة تقترب من إشارة (الشافعي) حين ينقل (القرطبي) عن إمام العربية (أبي عمر الجرمي) قوله " أنا منذ ثلاثين سنة أفتي النَّاسَ في الفقه من كتاب سيبويه² ويحذر (الشافعي) في أكثر من موضع من الجهل بلسان العربية خاصة لأولئك الذين يتصدرون للفقه والتفسير الذين يقعون بجهلهم هذا في الخطأ يقول " فمن جهل هذا من لسانها - ولسانها نزل الكتاب، وجاءت السنة - فتكلفت القول في علمها، تكلف ما يجهل بعضه، ومن تكلف ما جهل وما لم تثبت معرفته، كانت موافقته للصواب - إن وافقه - غير محمود، والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور؛ إذ نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب فيها " ³ بل إن (ابن الجني) يذهب إلى أبعد حد في التدليل على فداحة الجهل بالعربية خاصة لأهل الشريعة حين قال: "إن أكثر من ضلَّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه واستخفَّ حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي حُوطب الكافَّة بها"⁴ وهي الفكرة نفسها تتواتر عند (ابن تيمية) الذي يذكر في جل مصنفاته أن الانحراف العقائدي لكثير من الطوائف إنما كان مرده بالأساس إلى قصور بَيِّن في فهم النصوص بعلّة عدم المعرفة الكافية بلسان العربية يقول (ابن تيمية) " لا بُدَّ

¹ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ؛ دار الفكر بيروت ط 2 ص 231

² أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وأي الفرقان، ج1، تحقق عبد الله بن عبد المحسن التركي ص 39

³ - الشاطبي الاعتصام، ج 3 تحقق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان مكتبة التوحيد ط 1 البحرين 2000 م ص 362

⁴ أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي ، الخصائص، ج3 الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 4 القاهرة ص248

في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرَف ما يدلُّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهم كلامه؟ فمعرفة العربية التي حُوطبنا بها ممَّا يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإنَّ عامَّة ضلالِ أهل البدع كان بهذا السبب، فإنَّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدَّعون أنَّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك¹ وهي فكرة بالغة الأهمية تُؤسس لخلفية الانحراف الفكري والعقائدي الذي استنزف مقدرات الأمة عبر مراحل مهمة في حياتها والذي كان مرده انحراف التصورات اللغوية في قراءة النص القرآني بما يؤكد أهمية اللغة في الحفاظ على هوية الأفراد والمجتمعات والأمم.

ويؤكد (الزمخشري) ذلك الترابط بين فقه العربية وجل العلوم الإسلامية، وأنه بمقدار الضعف في علوم العربية يكون الضعف في العلوم الأخرى " وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها، وعلمي تفسيرها وأخبارها، إلا وافتقارها إلى العربية بيّن لا يُدفع، ومكشوف لا يتقنع، ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب " ² وهو تأكيد على امتداد العلاقة بين اللغة العربية وأنساق معرفية أخرى في سياق الحضور القرآني الذي أوجد هذا الامتداد وحفزه .

وما نريد التأكيد عليه بهذه الإشارات هو أن تلك القدرة العجيبة التي امتلكها علماء الأصول وعلوم القرآن في فقه العربية وأسرارها مع التنظير والتقعيد لقضايا الدرس اللغوي بكل امتداداته إنما مردها _ أساسا _ لوعيهم بأهمية معرفة العربية والدفاع عنها في سياق الدفاع على القرآن وحماية

¹ - الشاطبي الاعتصام، ج 1 ص 503 .

² - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله المفصل في صناعة الإعراب تحق علي أبو ملحم مكتبة الهلال ط 1 بيروت 1993 ص 18

حدوده وهو المبرر نفسه الذي وطد هذه العلاقة العضوية بين الدرسين اللغوي والأصولي وبمقتضى هذه العلاقة أنجز علماء الأصول في مرحلة زمنية وجيزة مخرجات فائقة الجودة في حقل الدراسات اللغوية بكل مستوياتها بما في ذلك الدراسات النصية التي جعلت من النص القرآني مادة للقراءة والاستقراء وهو المبرر الثالث في _سياق بحثنا هذا_ الذي حفزنا للإشارة إلى بعض هذه المخرجات المعرفية لهؤلاء الأعلام الأفاضل في القادم من مباحث هذا المشروع المتواضع.

الفصل الأول

التناسب القرآني

الفصل الأول: التناسب القرآني

المبحث الأول: في تحديد المفاهيم

مدخل

لن تكون وجهة هذا المدخل تتبعاً تقليدياً لظاهرة التناسب من خلال رصد التفاصيل المتشعبة والمتداخلة، التي تخوض في التيارات والمذاهب التي تؤيد أو ترفض القول بالتناسب، أو تلك التي تخوض في التفريعات، ذلك أن هذه المفردات ليست من محددات هذا البحث من جهة، ومن جهة ثانية ربما أخرجنا هذا التتبع من سياق معانينا التي تهدف بالأساس فهم فاعلية ظاهرة التناسب في تحقيق بنية الاتساق، دون التوغل في تلك التعريفات والتفريعات التي قتلها المتقدمون والمتأخرون بحثاً واستقراء في سياقات معرفية مختلفة، على أن هذا لا يمنع التطرق إلى بعض المفاهيم المرتبطة بالظاهرة التي نرى أنه من الضروري الإشارة إليها كمدخل، بعد الإشارة إلى الضبط اللغوي والاصطلاحي لمفهوم التناسب

2 التعريف اللغوي للتناسب:

تمدنا المعالجة اللغوية لمصطلح تناسب بهذا المفهوم: "نسب النسب واحد الأنساب والنسبة بكسر النون وضمها مثله ..و وفلانٌ يُنَاسِبُ فلاناً، فهو نسبه أي قريبه، وبينهما مناسبة أي

مشاكله...." ¹

أما في القاموس المحيط فيضعنا (الفيروزيادي) عند مدلولات أخرى نوجزها في هذا النص :

(1) ينظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي مختار الصحاح، : مكتبة لبنان 1986 (ص/ 273)
 مجد الدين ،محمد بن يعقوب الفيروز آبادي القاموس المحيط، تحق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة ط 8،
 بيروت 1426 هـ 2005 م ص 137 / 140 ؛
 المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، (ص / 916) لسان العرب مادة (نسب)

" النسب محرّكة والنسبة (بكسر وضم الباء) القراءة ... وانتسب ذكر نسبه والنسب المناسب وذو النسب .. والنسابة العالم بالنسب .. وهذا شعر أنسب أي أرق نسيبا .. وانتسبت الريح أشتدت ... والنسب كحيدر الطريق المستقيم الواضح أو ما وجد من أثر الطريق ... وتنسب ادعى أنه نسيبك ومنه (القريب من تقرب لا من تنسب) والمناسبة المشاكلة ... ونسب بينهما نيسبة أي أقبل وأدير بالنميمة ... " ¹ أما مؤلفو المعجم الوسيط فيستفيضون في تعداد مدلولات لفظة تناسب نعاينها في هذا الشاهد: "نسب الشاعرُ بفلانة نسيباً، ومنسباً: عرض بهواها وحيتها و الشيء نَسَباً، ونسبةً وصفه وذكر نسبه و فلاناً سألَه أن ينتسب والشيء إلى فلان عزاه إليه (أنسبت) الرِّيحُ: اشتدت ... (نَاسَبَ) فلاناً شريكه في نسبه، و شاكله، يُقال بينهما مناسبة، ويُقال ناسب الأمرُ أو الشيء فلاناً لاءمه ووافق مزاجه (انتسب) ذكر نسبه يُقال: نسبني فانتسبت له و إلى فلان: اعتزى (تناسب) الشيطانُ تشاكلاً والقومُ إلى أحسابهم: انتسبوا إليها (تنسب) إلى كذا، ادعى نسبةً إليه (استنسب) فلاناً: سألَه أن يذكر نسبته. (التناسب) ... ويُقال: شعرُ منسوب: فيه نسيب. وخطُّ منسوب: ذو قاعدة. و- عند علماء الصّرف: اسم يزداد في آخره ياءٌ مشدّدة مكسورة ما قبلها تدلُّ على نسبته إلى الاسم المجرد منها، و(منسوبُ الماء في النهر) : المستوى الذي يصل إليه في ارتفاعه. (ج) (مناسيب)، (النَّسَابُ) العالم بالأنساب، (النَّسَابَةُ) النَّسَابُ، والتاء للمبالغة)، (النَّسَبُ) القَرَابَةُ، ويُقال: نسبُه في بني فلان: هو منهم، (ج) أنساب، و) عند علماء الصّرف) : إلحاق ياء مشدّدة في آخر الاسم المراد نسبته، (النَّسَبَةُ) الصَّلَة أو القراءة. " ²

(1) ينظر: المرجع السابق، ص 137

المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية مكتبة الشروق الدولية: 2004 ط: 4، (ص / 916) ولسان العرب مادة (نسب)

(2) المعجم الوسيط: ص 916

وفي لسان العرب نجل هذه المضامين في دلالات مادة (نسب)

" النَّسَبُ: نَسَبُ الْقَرَابَاتِ، وهو واحدُ الْأَنْسَابِ.. النَّسْبَةُ وَالنُّسْبَةُ وَالنَّسَبُ: الْقَرَابَةُ؛ وقيل: هو في الآباء خاصة؛ وقيل: النَّسْبَةُ مصدرُ الْإِنْتِسَابِ؛.....وَانْتَسَبَ وَاسْتَنْسَبَ: ذَكَرَ نَسَبَهُ. أَبُو زَيْدٍ: يقال للرجل إِذَا سُئِلَ عَنْ نَسَبِهِ: اسْتَنْسَبَ لَنَا أَيِ انْتَسَبَ لَنَا حَتَّى نَعْرِفَكَ..."¹

ويضيف في ما يقارب المعنى السابق ". وناسبه: شريكه في نسيه. والنسيب: المناسيب، والجمع نُسبَاءُ وأنسباء؛ وفلانٌ يناسبُ فلاناً، فهو نسيبه أي قريبه...وتنسب أي ادعى أنه نسيبك. وفي المثل: الْقَرِيبُ مَنْ تَقَرَّبَ، لَا مَنْ تَنَسَّبَ.....ورجل نسيب منسوب: ذو حسب ونسب. ويقال: فلانٌ نسيبي، وهم أنسبائي....والنَّسَابُ: العالم بالنَّسَبِ، وجمعه نَسَابُونَ؛ وهو النَّسَابَةُ؛ أَدَخَلُوا الْهَاءَ لِلْمَبَالِغَةِ وَالْمَدْحِ، وَلَمْ تُلْحَقْ لِتَأْنِيثِ الْمَوْصُوفِ بِمَا هِيَ فِيهِ، وَإِنَّمَا لَحِقَتْ لِإِعْلَامِ السَّامِعِ أَنَّ هَذَا الْمَوْصُوفَ بِمَا هِيَ فِيهِ قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ وَالنَّهْائَةَ، فَجَعَلَ تَأْنِيثَ الصِّفَةِ أَمَارَةً لِمَا أُريدُ مِنْ تَأْنِيثِ الْغَايَةِ وَالْمَبَالِغَةِ.... ونقول: ليس بينهما مناسبة أي مُشَاكَلَةٌ. ونسب بالنساء، ينسب، وينسب نسباً ونسيباً، ومنسبة: شَبَبَ قوله (ومنسبة شبيب إلخ) عبارة التكملة المنسب والمنسبة (بكسر السين فيهما بضبطه) النسيب في الشعر. وشعر منسوب فيه نسيب والجمع المناسيب. بهنّ في الشعر وتغزل. وهذا الشعر أنسب من هذا أي أرق نسيباً، وكأنهم قد قالوا: نسيب ناسب، على المبالغة، فبني هذا منه، وقال شمر: النَّسِيبُ رَقِيقُ الشَّعْرِ فِي النِّسَاءِ؛

وَأَنشُدْ

هَلْ فِي التَّعْلِيلِ مِنْ أَسْمَاءَ مِنْ حُوبٍ، أَمْ فِي الْقَرِيضِ وَإِهْدَاءِ الْمَنَاسِيبِ؟

(1) محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل لسان العرب دار صادر - بيروت مادة

وَأَنْسَبَتِ الرِّيحُ: اشْتَدَّتْ، وَاسْتَأْفَتِ التُّرَابَ وَالْحَصَى. ..وَالنَّيْسَبُ وَالنَّيْسَبَانُ: الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ الْوَاضِحُ؛
 وَقِيلَ: هُوَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ، كَطَّرِيقَ النَّمْلِ وَالْحَيَّةِ، وَطَّرِيقَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى مَوَارِدِهَا؛
 وَأَنْشَدَ:

عَيْنًا، تَرَى النَّاسَ إِلَيْهِ نَيْسَبًا، مِنْ صَادِرٍ أَوْ وَارِدٍ، أَيْدِي سَبَا

قال، وبعضهم يقول: نَيْسَمٌ، بِالْمِيمِ، وَهِيَ لُغَةٌ. الْجَوْهَرِيُّ: النَّيْسَبُ الَّذِي تَرَاهُ كَالطَّرِيقِ مِنَ النَّمْلِ
 نفسها" ¹

هذه أهم الدلالات لملفوظ (نسب) ومشتقاته من أهم المعاجم والقواميس آثرنا أن ننقلها كما وردت في
 متونها مع التأكيد على تقاطع مدلولات التشاكل والتوافق والملاءمة والقاربة والتغزل بين هذه
 المعاجم.

أما المعنى الاصطلاحي فإن رصده يتعين من خلال متابعة هذا المفهوم في حقول البلاغة والنقد
 الأدبي وعلمي الأصول والتفسير

3 التناسب في بيئة نقاد الشعر وعلماء البلاغة

ويبدو الإجماع إذا انتقلنا إلى الشعراء ونقاد الشعر والبلاغيين ،على أن الكلام إنما تتضح
 دلالاته ،وتتمكن بلاغته، ويتذوق السامع جماليته بقدر ما يتسق وينسجم في هيئاته وتراكيبه وألفاظه
 ولا يتأت ذلك إلا بحضور علاقات التناسب وحسن التجاور بين الألفاظ والتراكيب من جهة وبين

المعاني المتقاربة والمتلازمة من جهة ثانية مع اشتراطات أخرى يحسن أن نرصدها في هذه الأمثلة الدالة والموجزة :

أ: نقاد الشعر

من المهم الإشارة إلى أن الشواهد النقدية، التي تتبعت نصوصا شعرية، بالنقد على مستوى ظاهرة التناسب هي كثيرة ومتنوعة، تتبني أساسا على مقصد، يُقَوِّمُ اتجاه المعنى بوضعه في موقع يحتكم إلى آليات التناسب والملاءمة، ويرصد تلك الاختلالات التي قد يقع فيها بعض الشعراء، حين يغيب شرط اقتران الملاءمة بين بيت وبيت آخر، أو بحضور المعنى الذي يتنافر مع معنى يليه، مع وجودهما في نص واحد، مما يقتضي تغيير أوضاع ما كي تتسق المعاني فيما بينها، ورغم أن هذه الإشارات كثيرة فإن الذي يحكمها _ في عمومها _ الذوق اللغوي الذاتي وإن كان رفيعا في كثير من الأحيان ، ويمكن جدلا أن نسمي هؤلاء المتذوقة، أو بعض من يحضرون مجالس الأمراء والسمر بالنقاد، وقد لا تكون لهم علاقة بالضرورة بصناعة الشعر ونقده، مما يؤكد أن احترام النقد _ ببساطته وعفويته هذه _ لم يكن حكرا على النقاد فحسب بل هو ممارسة تشترك فيها شرائح كثيرة قد يدخل في دائرتها حتى العامة من الناس في الأسواق والمجالس العامة، ومع ذلك تعد هذه الإشارات إضافة نوعية، تعكس الذوق العام الذي كان بمثابة الحارس الأمين الذي أسهم في صيانة اللغة بشكل ما، مع التأكيد مرة ثانية على الفارق بين الأدائيين، أداء نقد الشعر ببساطته وذوقياته _ مع ما في ذلك من توصيف جمالي أحيانا _ ، وأداء علماء الأصول والتفسير ومن اشتغل على النص القرآني وما اتسمت به مقارباتهم من الدقة والعلمية فضلا، عن معطى الذوق الجمالي الرفيع، وسيأتي لاحقا توصيف هذه الممارسة الدقيقة عند هؤلاء العلماء.

عينات للتدليل

وفي سياق التدليل على بعض عينات بيئة الشعراء نورد هذا المثال :

" ما روي أن (أبا الطيب المتنبي) أنشد (سيف الدولة)

قصيدته التي مطلعها على قدر أهل العزم تأتي العزائم

فلما انتهى إلى قوله:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسمٌ

قال له (سيف الدولة) قد نقدنا عليك يا أبا الطيب ما نقدنا على (امرئ القيس) في قوله

كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخليلي كري كرة بعد إجفال¹

ومراد سيف الدولة من نقده لامرئ القيس أن الأنسب أن تقترن لذة المركب بلذة الكر، ولذة الشراب

بلذة الوصال بالكاعب، فيكون البيتان على هذا التقدير بهذه الكيفية :

كأنني لم أركب جواداً ولم أقل لخليلي كري كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروي للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

" فالنقد الذي أشار إليه سيف الدولة في بيتي المتنبي وبيتي امرئ القيس، هو أن صدر البيت

الأول من قول امرئ القيس يقتضي ظاهر الكلام أن يوصل بعجز البيت الثاني، ويوصل صدر

البيت الثاني بعجز البيت الأول وكذلك يظهر في بادئ الرأي صدر البيت الأول من قول المتنبي

يصلح أن يتم بعجز البيت الثاني ويتم صدر الثاني بعجز الأول فيقال في قول امرئ القيس

كأنني لم أركب جواداً ولم أقل لخليلي كري كرة بعد إجفال

¹ - أبو الحسن حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء تحق محمد الحبيب بن خوجة الدار العربية للكتاب

ولم أسبِ الزق الروي للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ويقال في بيت المتنبي :

وقفت وما في الموت شكّ لواقف ووجهك وضاح وثرعك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم¹

فيكون الترتيب المقترح أنسب دلالياً بحكم العلاقة القائمة بين دلالتى شطري البيتين بعد التعديل.

ويورد صاحب المنزع البديع تفاصيل تلك الواقعة التي أنشد فيها بيتا المتنبي في موقف عظم

على المتنبي " فقد غص المجلس بالعلماء والشعراء والأدباء وجهابذة النقد فلما أتى على آخرها

استحسنها الحاضرون جميعاً فقال أحدهم إنها لحسنة لولا أن فيها شيئاً قال سيف الدولة وما ذلك

الشيء ؟

قال : إنه لما قال فيها :

وقفت وما في الموت شكّ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثرعك باسم

ولو ركب عجز البيت الأول على صدر الثاني وعجز الثاني على صدر الأول لكان أحسن في

صناعة الشعر وأليق بالمعنى وباللفظ فكان يقول

وقفت وما في الموت شكّ لواقف ووجهك وضاح وثرعك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

¹ - المرجع السابق ص 142، 143

والتبس الأمر على سيف الدولة، وسلموا له، وخجل المتنبي ووجم وأدخل رأسه تحت ثوبه وأخذ يفكر في الجواب، حتى عثر عليه، فأخرج رأسه من تحت الثوب، وقال للمنتقد، الله أصدق منك حين يقول

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ طه 118

_119 فأتى بالجوع مع العري، وأتى بالظمأ مع الضحو، فقال سيف الدولة: الله أكبر!، هذه والله الحجة البالغة صدق الله، وهو أصدق القائلين قال فانقطع المنتقد ووجم وفلج عليه أبو الطيب " ¹ وتبدو هذه الحادثة الطريفة التي تحكمها العفوية، أقرب إلى المحاكمة الشعرية، التي يكون فيها المتنبي مدانا بعدم وعيه بضرورة الالتزام بعلاقات التلاؤم والتناسب التي تحكم الكلام، مع التأكيد على أن الخلل _إن صح هذا التوصيف_ لم يكن لغويا معياريا، بحيث تُعدله قاعدة نحوية أو صرفية، بل كان الإخلال معنويا، اقتضاه ذلك التنافر بين المعنيين في البيتين معا _ في تقدير المنتقد _، حيث جمعا شطراهما، على غير صلة محكمة ومتسقة _ظاهرا _، ومع التأمل في هذا الحكم الذي أصدره الأعرابي، ووافقه عليه سيف الدولة تبدو القاعدة الذوقية هي الدليل والحكم في الآن نفسه، وبالتأمل في ذلك البديل الذي طرحه الأعرابي الفطن، يبدو هذا البديل أكثر اتساقا وتلاؤما وإحكاما. مما أفحم المتنبي فلم يجد له مخرجا عاجلا، ليحيله التفكير إلى تجاوز فطنة الأعرابي، حين انتبه إلى مخرج سلس، يكون فيه الاحتكام إلى النص القرآني، هو طوق النجاة للمتنبي حيث عرض آية سورة طه ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ ١١٨ ڍ التي جمع فيه الخطاب الكريم، بين الجوع مع العري، والظمأ مع الضحو، وتدلل

¹ - أبو محمد القاسم السجلماسي المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع تحق علال الغازي، مكتبة المعارف ط 1، الرباط المغرب 1401 هـ 1980 م ص 521 522..523

هذه الحادثة على قيمة مهمة جدا هي الاحتكام للقرآن الكريم بوصفه المرجع في الخلاف اللغوي، ثم إن أساليبه متميزة متفردة عن أداء البشر مع خاصية مهمة هي أن النص القرآني في مجمله لا يخرج عن معهود كلام العرب وبذلك كان قريبا إلى فهمهم شديد التأثير فيهم، فيكفي أن يستشهد المتنبي بنص قرآني يوافق هيئة تعبيره الشعري لترجح كفته وينتصر على الإعرابي ويكبر سيف الدولة معجبا بهذا التخريج .

وفي رواية (ابن الأثير) إشارة أخرى تبدو فيها عبقرية المتنبي مدعاة للتأمل حين يفلسف بدقة لا متناهية الموقف النقدي وفق رؤية أكثر عمقا ونضجا مبررا اختياره الذي يتطابق مع اختيار (امرئ القيس) على أساس علاقة تحقق الاتساق بآلية التضاد، لتأمل نص المتنبي كما يورده (ابن الأثير) : " فقال المتنبي إن صح أن الذي استدرك على (امرئ القيس) هذا هو أعلم بالشعر منه فقد أخطأ (امرؤ القيس) وأخطأت أنا ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف تفاصيله وإنما قرن (امرؤ القيس) النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السباحة بسبب الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء وكذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤما ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوسا وعينه باكية قلت " ووجهك وضاح وثرغك باسم لأجمع بين الأضداد ".¹

وللمتنبي موقف آخر مع (ابن جني) الذي عقب على تجاوز المعيار اللغوي الذي عمد إليه (المتنبي) بأن مد الألف في قرحى، حيث " حكى أبو الفتح ابن جني أنه قرأ على المتنبي قوله وقد صارت الأجفان قرحا من البكا وصار بهارا في الخدود الشقائق

(1) ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 3 تحق أحمد الحوفي وبدوي طبانة دار نهضة مصر للطباعة والنشر ط 3 القاهرة ص 165 ، 166

فقلت :قرحى. فقال: إنما قلت قرحا ،لأن قلت بهارا "¹ ذلك أن قريح تجمع على قرحى شأن جريح جرحى وصريع صرعى ...وقد تجاوز المتنبى صيغة الجمع القياسية بعلّة الحفاظ على التناسب الصوتي .

وحين يكون طلب التناسب بين أجزاء الكلام، يبيح العدول عن معيار اللغة، فإن ذلك يعني أن ضرورة اتساق الكلام، وتلاحمه إجراءً مقدّم على معيار اللغة، ما لم ينشأ عن هذا التجاوز المعياري إخلالا بالمعنى أو إبهاما مستغلظا .

ب / علماء البلاغة

يورد الجاحظ في (البيان والتبيين) إشارة لبشر بن المعتمر في صحيفته عن ضرورة التناسب بين الألفاظ والمعاني حيث يقول " ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف "² ثم يضيف الجاحظ مفصلا أشكال هذا التناسب فيقول: " ومتى شاكل . أبقاك الله . ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحالة وفقا ولذلك القدر لفظا وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ويحمي عرضه من اعتراض العائنين، وألا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة"³

ثم ينتقل بالظاهرة من التوصيف على مستوى العلاقة بين اللفظ والمعنى في عمومه إلى توصيف داخل النص الشعري فيقول محددا جودة الشعر بمقدار ما فيه من تناسب وتلاحم: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما

¹ - أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي سر الفصاحة دار الكتب العلمية ، ط 1 بيروت 1402 هـ 1982 م ص 170

² عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ البيان والتبيين ، ج 1 دار مكتبة الهلال، ط 7 بيروت ، 1423 هـ ص 129

(3) المرجع السابق ج2 ص 7

يجري الدهان" 1 وعن النحويين وحذاق الشعراء ورواة الشعر والأخبار يتحدث (الجاحظ) مادحا ذوقهم ووعيتهم بذلك التناسب الذي يربط أجزاء الكلام

فيقول: " - فقد طالت مشاهدتي لهم - لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرت وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رُواة الكتاب أعم، وعلى السنة حذاق الشعراء أظهر.² وعلى هذا المنوال تتواتر شواهد كثيرة تؤكد على مبدأ التناسب بين أجزاء الكلام بما يفضي إلى تلاحم بنية الخطاب وتماسكها³

أما (ابن أبي الإصبع المصري) فيحدد للتناسب مستويين هما شكلي ودلالي يقول: "المناسبة على ضربين مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ: فالمعنوية: هي أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ. والفرق بين هذا الضرب وبين الملاءمة أن الملاءمة تكون في مفردات الألفاظ ومعانيها، وهذا الضرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها " ⁴ وعرف المناسبة اللفظية: "هي عبارة عن الإتيان بلفظات متزنات مقفاة وغير مقفاة. فالمقفاة مع الاتزان

(1) المرجع السابق ج 2 ص 6

² المرجع نفسه ج، 3/ ص 259

³ يتعرض البحث لبعض هذه الشواهد في مبحث التناسب آلية لاتساق النص

⁴ ابن أبي الإصبع المصري ، بديع القرآن، ج2 تحق حفني محمد شرف دار نهضة مصر للطباعة والنشر ط

1. القاهرة ص 145 146

مناسبة تامة والممتزنة من غير التقفية مناسبة ناقصة " ¹ ثم يطيل المؤلف في إيراد أمثلة كثيرة لكل هذه الأنواع من المناسبة في القرآن الكريم و في الكلام المنثور والمنظوم ².

أما (التنوخي) فيربط بين البيان والتناسب وينتصر للفظ على المعنى حيث يقرر أن التناسب يكون على مستوى الألفاظ لا على مستوى المعاني: " ومن البيان التناسب، وهو في الألفاظ وفي المعاني، وأكثر ما يحتاج إليه في الألفاظ لأن المعاني التي تطلب لا يلزم فيها ترتيب ولا مناسبة، فإن المتكلم قد يفنقر إلى ذكر الأشياء المتناقضة والمتضادة والمتغايرة والمتنافرة وحيث لا يفنقر إلى شيء من ذلك فهو التناسب فكأنه مضطر إلى ما يأتي به إذا كان مرادا " ³

ثم يضيف مفصلا أشكال المناسبة " فلنذكر تناسب الألفاظ الذي هو معين على بيان المعاني فمنه المقابلة وهو أن يذكر الشيء وضده والمقابلة بالضد هي التي يسميها جمهور أئمة البديع بالمطابقة فأما المقابلة بالمناسبة فكقوله تعالى:

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَحِجَّةَ بَيْنًا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥﴾

قابل في هذه الآية بين ربنا وربكم _ وبين _ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم _ وبين بيننا وبينكم. " ⁴ ثم تمتد معانية (التنوخي) لتفاصيل هذين الضربين من التناسب من خلال هذه الآية وغيرها من الآيات ⁵.

(¹) المرجع السابق ج 2/ 146

(²) ينظر المرجع نفسه ج 2/ 146 145 146 147

3 زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمرو التنوخي الأقصى القريب في علم البيان، مطبعة السعادة مصر ط 1 1327 هـ ص 92.

(4) المرجع نفسه ص 92

(5) ينظر المرجع نفسه ص 92

أما (القزويني) فيحدد التناسب بالنظر إلى الموقع الذي يأخذه الكلام بين الابتداء والختام ويسهب في تنويعاته الكثيرة يقول: " ومنه مراعاة النظر ويسمى التناسب والتوفيق وهو جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد نحو الشمس والقمر بحسبان وقوله

كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار

ومنها ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه في المعنى نحو (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ويلحق بها (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان) ويسمى إيهام التناسب ومنه الإحصاء ¹ ثم يضيف عارضا مصطلحات أخرى للتناسب "ويسميه بعضهم التسهيم، وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل عليه إذا عرف الروي نحو وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وقوله :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ومنه المشاكلة، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا نحو قوله :

قالوا اقترح شيئا لك طبخة قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

ونحو تعلم (ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) ومنه المزوجة وهي أن يزواج بين معنيين في الشرط والجزاء..² ويمضي (القزويني) _كسابقيه_ في سرد طويل لتعريفات وتشكيلات مختلفة للتناسب مع التمثيل³

(1)، جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب التلخيص في علوم البلاغة تحقق عبد الرحمان البرقوقي دار الفكر العربي ، ط2 1350 هـ 1932 م ص 354 و 355

(2)، المرجع نفسه ص: 355، 356 و 357

(3) المرجع نفسه ينظر الصفحات 358 ، 359 و 360

أوردنا هذه المفاهيم المحددة للتناسب عند البلاغيين وقد حرصنا على أن نجمل هذه الدلالات في العينات التي تتباين فيما بينها نسبيا مع تحاشي المفاهيم المكررة .

المبحث الثاني: في محددات التناسب القرآني

مدخل

1 إشكالية الاجتهاد والتوقيف في ترتيب القرآن الكريم

ثمة إشكالية تطرح في سياق الحديث عن ظاهرة التناسب القرآني ونظمه تتمثل في ذلك السؤال الذي يفصل في كون ترتيب القرآن توقيفا من الله تعالى أم اجتهادا من الصحابة ﷺ وسؤال بهذا الحجم تنعكس إجابته _ في تقديري الشخصي _ على فكرة الاتساق والنظم ذلك أن القول بأن ضبط القرآن الكريم بالكيفية التي بين أيدينا هو اجتهاد الرعيل الأول من الصحابة المقربين الذين عايشوا فعل النزول هو محض تخمين، إن هذا القول _ رغم أنه مذهب بعض الفقهاء والعلماء _ إلا أن حجيته أقل ترجيحاً من القول بالتوقيف من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا المذهب يُخل بخاصية اتساق النص القرآني وانسجامه لسبب وجيه هو أن فعلاً بشرياً مهما كانت قدرته ومرجعيته _ ولو كان بفعل خيرة الصحابة _ يتحمل مسؤولية ترتيب الآيات والسور يعجز مهما أوتي من قدرة على ضبط النص الكريم بالمنحى الذي يحقق هذا النظم المتسق الذي يتجلى فيه القرآن الكريم بهذا الشكل المبهر، مما يؤكد _ قطعاً وبدون أدنى شك _ أن ترتيب المصحف بهذه الكيفية هو فعل رباني محكم لا يقل إعجازاً عن إعجاز لغة القرآن نفسه، فذاك إعجاز لغوي وهذا إعجاز في النظم والترتيب، وثمة تساؤل جريء ينسف دعوى أن يكون ترتيب المصحف على ما هو عليه الآن من فعل الصحابة ﷺ هو ما الحكمة أن يترك الله عز وجل أمر ترتيب كلامه للبشر _ حتى وإن كان

هؤلاء البشر هم صحابة النبي ﷺ وهم أحسن جيل عرفته البشرية_ ؟ ! بل الحكمة تقتضي أن يُرتب كلام الله ﷻ المعجز بوحى منه تعالى كي يكتمل فعل الإعجاز البياني مع إعجاز الترتيب المتسق والمتقن ،وقد لا يحتاج فكرٌ حصيفٌ ونظرٌ دقيقٌ إلى ضرورة الاستناد إلى شواهد تؤكد ما نعتقده من قطعية الترتيب التوقيفي الرباني إذ تُدرك هذه الحقيقة بفعل الفطرة اللغوية، والذوق السليم الذي نتلقى به القرآن الكريم، وبصرف النظر عن هذا الإدراك الذي يمتلكه المرافق للقرآن فإننا في سياق (ولكن ليطمئن قلبي) نورد هذه النصوص المتواترة بأن القرآن الكريم هو فعل توقيفي من الله تعالى إلى نبيه ﷺ

يورد (الزركشي) في سياق الحديث عن ترتيب الآيات والسور كلاما دقيقا ومحكما عن (أبي بكر الأنباري) " قال (أبو بكر الأنباري) :أنزل الله القرآن كله إلى السماء الدنيا، ثم فرقه في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كلها عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن"¹

ومن المهم أن نتوقف عند الإشارة الدقيقة والرائعة لأبي بكر الأنباري حين يقرر (فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كلها عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن) هذه إشارة فارقة تؤكد عمق التصور باتساق النص الكريم في فكر هذا العالم الفذ، وأن هذا الاتساق مرجعيته الترتيب الرباني العجيب المعجز، من جهة ومن جهة أخرى أن هذا الاتساق هو مقتضى النظم القرآني الكريم. وفي مستوى ثالث أن هذا النظم هو محصلة علاقات الترتيب

¹ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج1 دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ط 3 1400 هـ 1980 م ص 358،

القائم على تقديم ماحقه التقديم وتأخير ماحقه التأخير في بنية منسجمة ومتقنة، وهذا منتهى الدقة والبيان، في فهم بنية الاتساق القرآني الكريم في سياق تاريخي متقدم جدا يعبر عنه (الأنباري) بعبارة موجزة ووضوح لا لبس فيه، وربما تجاوز المنجز الغربي الحديث في بعض الجزئيات ويضيف (الزركشي): "وقال (الكرماني) في البرهان: ترتيب السور هكذا هو من عند الله في الكتاب المحفوظ على هذا الترتيب وعليه كان النبي ﷺ يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه في السنة التي توفي فيها مرتين، وكان آخر الآيات نزولا ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﷻ 1- البقرة الآية 281 فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدين"¹.

ولعل مراجعة جبريل عليه السلام النبي ﷺ في عام وفاته القرآن مرتين وقد اعتاد أن يراجعه قبل ذلك مرة كل عام بقدر ما كانت تتعي النبي ﷺ بقدر ما كانت تتبه على ضرورة ضبط النص الكريم وفق ترتيبه الرباني كي يرثه المسلمون كما أنزل في اللوح المحفوظ محكما متقنا منتظما منزها عن كل نقيصة مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ١ الحجر: 9

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ ١٧ القيامة: 17

وقال (البغوي) في شرح السنة: " الصحابة ﷺ جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئا، خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ من غير أن قدموا شيئا وأخروا، أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذه من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يلقي أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية: أن هذه الآية تكتب

¹ - المرجع السابق الصفحة نفسها.

عقب آية كذا في سورة كذا، فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا، ثم كان ينزله مفردا عند الحاجة. وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة " ¹.

بل يذهب القاضي (أبو بكر الباقلاني) في كتابه (الانتصار للقرآن) إلى أن " ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، وإنما حصل بالنص والتوقيف لا بالاجتهاد فقد كان جبريل يقول: " ضعوا آية كذا في موضع كذا " ²

ويضيف (القاضي الباقلاني) جازما بالترتيب التوقيفي لآيات السور، وأن هذا النظم الذي يتجلى به القرآن الكريم إنما هو نظم رباني: " والذي نذهب إليه في ذلك القول بأن جميع القرآن - الذي أنزله الله، وأمر بإثبات رسمه، ولم ينسخه، ويرفع تلاوته بعد نزوله - هو هذا الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان رضي الله عنه وأنه لم يُنقص منه شيء، ولا زيد فيه ... وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله عز وجل ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخرا ولا أخر مقدما، وإن الأمة ضبطت، عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب أي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة.. " ³. وبديهي أن هذا الحرص الظاهر في شاهدي (الباقلاني) بقدر ما يقرر حقيقة النظم الرباني للنص القرآني على الوجه الذي نتلوه في المصحف الكريم بقدر ما يعكس فهم الرجل بضرورة الجزم بأن هذا النظم على هذا الشكل الذي قدره الله تعالى هو أمر واجب وحكم لازم لا اجتهاد فيه، وأنه مقتضى الإعجاز وقرينة التماسك والاتساق والإحكام ويوجز)

¹ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الإتقان في علوم القرآن، ج 1 تحق مصطفى ديب البغا دار ابن كثير، ط 5 دمشق بيروت 1422 هـ 2002 م، ص 194

² القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني، الانتصار للقرآن تحق محمد عصام القضاة دار الفتح للنشر والتوزيع، ط 1 عمان و دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت 1422 هـ 2001 م، ص 293

³ - المرجع نفسه ص 60

الطبيي) الكيفيات التي نزل بها القرآن في مساقات ثلاثة تُحدد الحكمة البالغة في هذا الحال من التنزيل حيث يقول: "أنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفزاً على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ"¹.

نكتفي بهذه الشواهد على حجية ترتيب القرآن بالتوقيف لا بالاجتهاد ورغم أن القائلين بالاجتهاد من خيرة العلماء الثقات العدول إلا أن مذهبهم هذا لا يلزماً بالضرورة في مساحة يمكن أن ننزع فيها للرأي الذي نطمئن إليه ونرى أنه ادعى للتأكيد على سمة الاتساق والتماسك وهو المقصد الذي حفزنا لمناقشة هذه الفكرة .

2 ظاهرة التناسب عند الصحابة

كان التمثل لظاهرة التناسب المحكم، بين كلمات القرآن، وآياته وسوره، حاضراً في ملكات الصحابة رضي الله عنهم، الذين كانوا حول النبي ﷺ لحظة تنزل الوحي، آية آية فعايشوا خطاب السماء إلى الأرض، بكل حيثياته وتفاصيله ومع ما كانوا عليه من دراية بأسرار العربية ودقائقها وتفتح قرائحهم في تلقي النص الكريم، باتساقه وانسجامه، كانت تساؤلاتهم تعين بعض أسرار العلاقات بين الآيات والسور، وربما اجتهد بعضهم في وضع إجابات لهذه التساؤلات، بوحي من سليقتهم اللغوية التي فُطروا عليها وحسهم الدقيق، ولعلنا نسرّد في هذا السياق بعضاً من العينات، التي تترجم ذلك التفاعل الإيجابي، بين الوحي الإلهي المعجز، وطاقته التلقي المثالي، الذي اتسم به الصحابة رضي الله عنهم وسنقتصر هنا على شواهد سريعة، تؤكد أن تفسير النص الكريم باعتماد

¹ - الإتيان في علوم القرآن ج 1 ص 196

إجراءات التناسب، كانت بذرتة مع الرعيل الأولى، قبل أن تنضج وتتطور، مع الأجيال اللاحقة، من التابعين، وتابعي التابعين، ومن جاء بعدهم في عصور لاحقة .

ف " عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أَمَلَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ سورة المؤمنون 12_ 14 ، قال معاذ بن جبل فتبارك الله أحسن الخالقين فضحك الرسول ﷺ فقال معاذ بن جبل مم ضحكت يا رسول الله قال ﷺ بها خُتِمَتْ ¹ .

ويبدو تعجبنا من معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يختلف عن تعجب النبي ﷺ حين ضحك من قدرة هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه على إدراك العبارة التي بها خُتِمَتْ هذه الآيات ، والتي جاءت مطابقة لما جاء في الوحي، فتبارك الله أحسن الخالقين، ولم يكن ذلك الإدراك الذي تفتقت به ملكة هذا الصحابي رضي الله عنه إلا نتيجة الحس اللغوي الرفيع الذي فسر به نهاية الآيات على أساس ما بينها من تناسب .

ويبدو شاهد آخر مؤكدا النبض نفسه بإيقاع ذلك الإعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ "﴿ فَإِنْ زَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ [غفور رحيم]، ولم يكن يقرأ القرآن، فقال إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه، فلما قيل له إن القراءة ﴿ فَإِنْ زَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة البقرة

209 قال :بخ بخ، عز فحكم " ²

¹ - محمد بن علي بن محمد الشوكاني فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تحق يوسف الغوش دار المعرفة، ط 4 بيروت لبنان 1428 هـ 2007 م ص 486

² - لإتقان في علوم القرآن السيوطي ج 2 ص 101

وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ إشارة رائعة تعكس فهم هذا الصحابي الجليل لتلك العلاقة بين أجزاء النص الكريم حين يعقب على رجل لم يحسن فهم منطق الربط والتعلق على أساس مقولة الخاص والعام وما تقدم من الخطاب، فقد ثَبَّتَ في الحديث النبوي "سَمِعْتُ الْهَيْثَمَ بْنَ خَلْفٍ الدُّورِيِّ بِبَغْدَادَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ مُوسَى الْأَنْصَارِيِّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ دِينَارٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول بأذنيَّ هاتين - وأشار بيده إلى أذنيه -: (يُخْرِجُ اللَّهُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ)، فقال له رجل: إن الله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ **المائدة 37**. فقال جابر بن عبد الله: إنكم تجعلون الخاص عامًا، هذه للكفار، اقرؤوا ما قبلها، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوهُ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **الآية (36) من سورة المائدة**، هذه للكفار ¹ .

ولم يكن هذا شأن الصحابة فحسب، بل إن التابعين كان ديدنهم تتبع هذه المناسبات بالحس نفسه، والقدرة ذاتها، لنتأمل تلك الحادثة التي يرويها (الأصمعي) حيث يقول كنت أقرأ سورة المائدة ومعني أعرابي، فقرأت هذه الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **سورة المائدة 38** فقلت: (والله غفورٌ رحيمٌ) سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت كلام الله. قال أَعِدْ، فَأَعَدْتُ: (والله غفورٌ رحيمٌ)، ثم تنبّهت فقلت **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** فقال: الآن أصبت، فقلت كيف عرفت؟ قال: يا هذا عزيزٌ حكيم فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما

1 الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت ط 1 1412 هـ 1991 م مجلد ص 526 و 527)، رقم الحديث: 7483، قال المحقق شعيب الأرنؤوط في هامش الكتاب: إسناده صحيح على شرط مسلم .

أمر بالقطع" ¹ وإذا كانت الملكة اللغوية وفطرة الأعرابي السليمة هي الحكم فيما بدا أنه إخلال باتساق النص على في هذا الشاهد فإن المعيار الذي اعتمده هذا الأعرابي إنما هو التناسب الدلالي بين أمر الله عز وجل بالقطع جزاء فعل السرقة ومقتضى العزة والحكمة في هذا الجزاء .

سردنا هذه العينات للتدليل على أن الرعيل الأول من الصحابة والتابعين _ الذين كان عهدهم باللسان العربي قريب _ لم يكن غائباً في حسهم إدراك تلك العلاقات التي تحكم أجزاء الخطاب القرآني، والتي تحقق التماسك النصي بين أجزائه، وما كانت هذه القدرة إلا نتيجة ما أوتوا من سليقة لغوية سليمة .

3 ظاهرة التناسب في الخطاب النبوي الشريف .

وهنا كلمة مهمة عن بلاغة النبي ﷺ، يجب أن نلج منها كي لا نقع في تناقضات، قد تقضي بنا إلى متاهات يصعب الخروج منها وهي أن ما اتسم به الخطاب النبوي من فصاحة وبيان وجمال ليس محصلة تلك المواهب البشرية التي خص بها ذلك النبي العظيم، رغم انه ﷺ اتصف بصفات الكمال والعظمة والحكمة وفصاحة اللسان، بتقدير الله عز وجل، وهي _ في مجملها _ صفات قد يتصف بها بعض الموهوبين، من البشر، دون أن ترقى _ بالتأكيد _ إلى مصاف ما اتصف به النبي ﷺ، ورغم أن النبي ﷺ نشأ في أفضل البيئات، التي أمدته بالفصاحة " وقد كان للنشأة اللغوية الصافية التي نشأها ﷺ تأثير في فصاحته، فهو من هاشم من قريش، وأخواله من بني زهرة واسترضع في بني سعد بن بكر، وخالط في حياته بطون قريش والأنصار، فكانت هذه النشأة مرناً حياً بأحسن الأساليب، وأفصح اللهجات في العرب قاطبة، هذه النشأة اللغوية النقية الخالصة صقلت موهبة الرسول الفذة التي لا نظير لها في المواهب البشرية... وتتمثل هذه الموهبة في

¹ - محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 11 دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1 لبنان 1401 هـ 1917 م، بيروت ص 236

فطرة صافية، وذهن جوال، وبصر نفاذ، ونفس مجتمعة فاضلة، وإحساس دقيق مرهف، وبديهة حاضرة

"¹ ورغم أن هذا الشاهد يثبت للنبي ﷺ تلك المواهب، التي خصه الله عز وجل بها، إلا أنه من المهم أن نشير أن هذه البيئة مثلما تهيأت للنبي ﷺ، ربما تهيأت لغيره مع بعض التفاوت، مما يؤكد في هذا السياق أن هذه الظروف، وهذه الملامح المهمة في حياته ﷺ لم تكن هي السر الخفي لاكتسابه تلك القدرة البيانية العجيبة، بل إن هذا السر هو النبوة، واختيار الله ﷻ له كي يكون مبلغا عنه بلسان عربي مبين، ومنطق متفرد متميز، لا يدانيه منطق بشر مطلقا، وكيفما كان، وكيفما كانت مواهبه وتنشئته، وهذه الإشارة بالغة الأهمية، لأنها بالإضافة لما تقرر من فصاحة النبي ﷺ وقدرته البيانية، فهي في المقام الثاني تؤكد أن هذا البيان النبوي ليس في متناول البشر، لأنه بعض من وحي الله ﷻ أجراه على لسان النبي العظيم ﷺ، ولأنه لم يثبت فيما نرى أنه ﷺ أنجز قولاً بليغا قبل الرسالة مطلقا، بل إن كل ما ورد من أقواله ﷺ إنما كان بعيد البعثة، مما يدل على أن الأمر يتجاوز القدرات البشرية، ويتخطى المواهب الذاتية، بل هو الوحي من الله ﷻ ولذلك نفهم أيضا لماذا لم يُقدر له ﷺ أن يتعلم الشعر، فيكون أشعر العرب فيؤتى القرآن والشعر معا، لكن حكمة الله عز وجل اقتضت أن تنفي عنه صفة الشعر ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (١١) يس: 69، وتخصه بالقرآن من لدن الله ﷻ، وبجوامع الكلم بلسانه ﷺ، ويمكن أن نستحضر قول (عبد القاهر الجرجاني) في نفي الشعر عن النبي ﷺ أن ليس ذلك لعيب في الشعر، أو لحرمة نظمه، بل إنما كان ذلك إرادة إلهية بأن يتميز النبي ﷺ بنسق من الكلام مباين للشعر، مختلف عن نظمه، هذا النسق هو الحديث النبوي الشريف أو هو السنة القولية المطهرة وكلاهما وحي من الله تعالى بلسان النبي ﷺ يقول الجرجاني "فينبغي أن يُعلم أن ليس المنع في ذلك (ويقصد قول الشعر) منع تنزيه وكرهه بل

¹ - محمد الصباغ: التصوير الفني في الحديث النبوي، المكتب الإسلامي، ط 1 بيروت 1988 م ص 21.

سبيل الوزن في منعه عليه السلام إياه سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب . يشير إلى

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُلُونَ ﴾ (٤٨)

(العنكبوت: 48) . في أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت في الخط بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر

والدلالة أقوى وأظهر ولتكون أكرم للجاحد وأقنع للمعاند وأرد لطالب الشبهة وأمنع في ارتفاع الريبة¹ "

مما يعني أن كلام النبي ﷺ يعد نسقا خاصا، متقدرا، يتسم بميزات تتجاوز من حيث القيمة اللغوية،

الإبلاغية والجمالية الأداء البشري، وأنها فوق أبلغ السمات التي نلاحظها في كلام البشر، ذلك أن

الفارق الذي يصنعه الكلام النبوي، هو أنه من جوامع الكلم، وهي قدرة تجمع بين إيجاز دقيق بارع،

وقدرة على الإلمام بالمعنى وإن امتد وتشعب . وليس ذلك إلا للنبي ﷺ ليس لأنه شخص موهوب

متميز بل لأنه نبي مرسل يوحى إليه من ربه تعالى .

ولعلنا نحتاج في سياق البرهنة على أن هذا الكلام النبوي لم يكن محض موهبة بشرية ،إلى بعض

الشواهد، وإن كان صريح حديث النبي ﷺ يؤكد ذلك حيث يقول ﷺ: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ) كما في

رواية البخاري² ، أو: (أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ) كما في رواية مسلم³ "

ويورد (الزمخشري): نصا شيقا في وصف بيان النبي ﷺ حيث يقول " ثم إن هذا البيان العربي كأن

الله عزَّتْ قدرته مَحْضُهُ وألقى زُبْدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة وأوفر سلام، فما من خطيب

¹ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط 5 القاهرة 1989م، ص27

² - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني فتح الباري بشرح صحيح البخاري .تحق محمد فؤاد عبد الباقي و محب الدين الخطيب دار الريان للتراث، 140هـ 1986 م رقم الحديث 6845 ص 261 وينظر: محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي صحيح البخاري ج3 كتاب الجهاد والسير ، دار بن كثير رقم الحديث 2815، ص 1087

³ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صحيح مسلم، ج1 باب كتاب المساجد ومواضع الصلاة، دار إحياء الكتب العربية ص 372.

يقاومه إلا نكص متفكك الرجل وما من مصقع يُناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل وما قُرِنَ بمنطقه منطقٌ إلا كان كالبرْدُون مع الحصان المُطَهَّم ولا وقع من كلامه شيءٌ في كلام الناس إلا أشبه الوُضح في نُقْبة الأُدْهم. قال عليه السلام أُوتِيت جوامعَ الكلم. قال أنا أفصحُ العرب بيْدَ أني من قريش واسترُضعت في بني سَعْدِ بن بكر¹، ويركز (الخطابي) على ذلك الإيجاز الذي اتسم به كلام النبي ﷺ، مع قدرته على أن يحمل المضامين الكثيرة، فيقول "ثم أمدّه الله بجوامع الكلم التي جعلها رداءً لنبوته وعلماً لرسالته، لينتظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه، ولا يؤودهم حمله"² والمعنى نفسه يورده (السيوطي) حيث يقول واصفاً كلام النبي ﷺ "الذي بلغ من إكمال الدين مأموله، وآتاه جوامع الكلم، فنطق بجواهر الحكم، وفاح من حدائق أحاديثه في الخافقين شذا أزهارها المطولة"³

إن التناسب البياني في الخطاب النبوي هو بحث ممتد لا تستوعبه إشاراتنا السريعة التي يراد منها فقط تأكيد حضور هذه الظاهرة النصية في عينات من جوامع الكلم ومع هذا التأكيد نشير أيضاً أن كل الذين قاربوا كلام النبي ﷺ بذائقة رفيعة _ من القدامى والمحدثين _ بالتحليل والاستقراء نبهوا إلى هذه السمة البيانية، وفسروا على أساسها جانباً من مزايا النسيج الرائع في البلاغة النبوية وسنعرض شاهداً يسوقه (الجاحظ) يبدو فيه مترعاً إعجاباً وانبهاراً بكلم النبي ﷺ. يقول صاحب (البيان والتبيين) _ واصفاً كلام النبي ﷺ في نص طويل آثرنا أن نوردّه كله لعذوبته

¹ - جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، الزمخشري الخوارزمي النحوي: الفائق في غريب الحديث، ج 1، تحقق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط 2 لبنان 1971م، ص 11.

² - الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي: غريب الحديث، ج 1 تحقق عبد الكريم العزباوي، جامعة أم القرى ط2، مكة المكرمة 1402 هـ 1982م، ص 64.

³ - الحافظ جلال الدين السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج 1، طبعة جديدة ومنقحة شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ط 1، بيروت 1426 هـ 2005 م ص 13

ودقة توصيفه: يقول "وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل: يا محمد (وما أنا من المتكلفين) فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل بيّد الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلافة ولا يستعمل المواربة ولا يهزم ولا يلمز ولا يبطن ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعم نفعًا ولا أصدق لفظًا ولا أعدل وزنًا ولا أجمل مذهبًا ولا أكرم مطلبًا ولا أحسن موقعًا ولا أسهل مخرجًا ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه؛ من كلامه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم كثيرًا"¹

ثم يسوق (الجاحظ) أمثلة دالة عن بيان النبي ﷺ الأخاذ بإيجاز لفظه وسهولة مأخذه إلا أنه غاية في الروعة، بما اتسم به من تناسب وتلاحم بين الأجزاء من ذلك: " قوله ﷺ حين ذكر الأنصار، فقال (أما والله ما علمتكم إلا تفلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع...) و قول أيضا ﷺ (خير المال سكة مأبورة، وفرس مأمورة) ، (وخير المال عين ساهرة لعين نائمة) وقوله ﷺ (

¹ - البيان والتبيين ج 2/ ص 17 ، 18

ليس منا من حلق أو صلق أو شق ..) وقوله ﷺ (ما قل وكفى خير مما كثر وألهى..) وقوله ﷺ

(قال الله تعالى لولا رجال خشع وصبيان رضع وبهائم رتع لصببت عليكم العذاب صبا) ..."¹

نقف عند هذه العينات التي يوردها (الجاحظ) في سياق البرهنة على بيان النبي ﷺ وعند

الملاحظة يتبين لنا أنها كلها محكومة بأشكال مختلفة من التناسب اللفظي والمعنوي والصوتي مع

بلاغة في إيجاز اللفظ ودقة المعنى ووضوح الدلالة.

وفي السياق نفسه نقف على هذه النصوص النبوية التي تعكس ظاهرة التناسب في لغة هذا

الخطاب المتميز . بمستوياته الممكنة: المعنوية، اللفظية والصوتية

الحديث الأول :

أن النبي ﷺ قال: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه)².

ينبني هذا الحديث على مقطعين اثنين يجمعهما تناسب لفظي معنوي وصوتي عبر آلية

التضاد: (يكون مقابل ينزع)، (زانه مقابل شانه)، (في مقابل من)، (ولا النافية مقابل إلا

التي تفيد الاستثناء والحصار) طبعا مع التأكيد على التشاكل الصوتي بين (زانه وشانه)

وفي الحديث الثاني :

يتجلى التناسب آخذا مظاهر أسلوبية وشكلية أخرى لتتأمل:

قال رسول الله ﷺ: « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ

فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا

سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.)¹

¹ - ينظر المرجع السابق ص 19 20 21

² رواه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق ج 4/ص 2004 رقم الحديث (2594).

بالكيفية نفسها يتجلى التناسب في هذا الحديث من خلال تواتر ثنائيات متوالية تتنوع بين أسلوب الإخبار الذي يرد مرة واحدة في الجملة الأولى (المسلم أخو المسلم) ثم النفي الذي يتكرر مرتين (لا يظلمه ولا يسلمه) ثم الشرط الذي يتكرر ثلاث مرات رابطا بين واقعين دنيوي وأخروي (في الدنيا في مقابل يوم القيامة) مع استمرار الفعل نفسه 1- من كان في حاجة أخيه ... 2- من فرج عن مسلم كربة ... 3- من ستر مسلما في مقابل 1- كان الله في حاجته ... 2- فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ... 3- ستره الله يوم القيامة ...

وفي الحديث الثالث:

عن عُمَرَ بن أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه قال: كنت غُلَامًا في حَجَرِ رسول الله ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ.² يبدو التناسب اللفظي والصوتي واضحا بين (كل بيمينك وكل مما يليك) مع روعة التناسب على مستوى التدرج المعنوي بين مضمونين يتوال الثاني بعد الأول: كل بيمينك أولا ثم كل مما يليك ثانيا مع إشارة بالغة التأثير على مستوى فكرة الحديث النبوي المتمثلة في ذلك الدرس التربوي الموجز في أدب الأكل بكل التفاصيل التي قد تأخذ في خطاب بشري مساحة نصية من المؤكد أنها تطول ولا تؤدي الدلالة نفسها بالكيفية التي أداها نص النبي ﷺ، ولا أدل على ذلك من أننا باستقراء الحديث تعلمنا منه أدب الجلوس للأكل وكيفية تناول الطعام باستعمال اليمنى التي

¹ المرجع السابق، رواه مسلم في كِتَابِ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْأَدَابِ، بَابِ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ ج 4 / ص 1996 رقم الحديث (2580).

² رواه البخاري في كتاب الأطعمة، بَابِ التَّشْمِيَةِ عَلَى الطَّعَامِ وَالْأَكْلِ بِالْيَمِينِ ج 5 / ص 2056 رقم الحديث (5061)، ومسلم في كتاب الأشرية، بَابِ آدَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَأَحْكَامِهِمَا ج 3 / ص 1599 رقم الحديث (2022).

هي من شعائر الإسلام ذلك أننا أمة اليمين ثم في الأكل مما يلينا تأدبا مع من يشاركنا الطعام كي لا يتأذى من هذا السلوك المشين فينفر من تناول الطعام، وفي الحديث أيضا درس في الأدب مع الله المنعم بهذا الرزق ومقتضى الأدب ذكر اسم الله تعالى قبل الشروع في الأكل اعترافا بفضله وشكرا لنعمه التي قد تزول بالجود والنكران ... كل هذه المعاني الرائعة أوجزها الخطاب النبوي في كلمات معدودة موجزة دقيقة ومتناسبة.

وبالإتقان نفسه وبالدقة نفسها تتواتر كل خطابات النبي ﷺ دونما استثناء في نسيج محكم تتجلى فيه روعة الإيجاز وبلاغة العبارة ودقة الترابط والتناسب عبر مستويات متنوعة تصنع المفارقة النبوية التي أخضعت رقاب أساطين البلاغة والبيان.

4 / التناسب عند الأصوليين

إن بحث المناسبة عند علماء الأصول يتجاوز ما وجدناه عند علماء البلاغة ونقاد الشعر ذلك أن المناسبة عند الأصوليين ترتبط بمساقات معرفية غاية في الدقة و المتانة ولا يمكن إدراك تلك المدلولات إلا بوصلها بذلك البناء المفاهيمي الدقيق الذي يقيمه علماء الأصول بقواعده المنهجية ومقاصده الشرعية ضمن منظومة أصول الفقه، ويبدأ التحديد بفهم العلاقة بين المناسبة والعلة وهما من أهم أبواب علم أصول الفقه ويرتبطان ارتباطا عضويا بمفهوم القياس الذي يعد رابع مصادر التشريع، والذي يحدد الإمام (الشافعي) مفهومه بالقول: "كل ما نزل بمسلمٍ ففيه حكمٌ نازلٌ، أعلى سبيل الحق فيه دلالةٌ موجودةٌ، وعليه إذا كان فيه بعينه حُكْمٌ وجب اتباعه، وإذا لم يكن فيه بعينه طُلب الدلالةُ على سبيل الحق فيه بالاجتهاد. والاجتهاد القياس " ¹

¹ محمد بن إدريس الشافعي الرسالة تحق محمد أحمد شاكر مطبعة مصطفى باجي الحلبي، ط 1 1357 هـ /

والعلة هي أهم أركان القياس وترتبط ارتباطاً عضوياً بالمناسبة مع التأكيد مرة ثانية على أنه لا بد للقياس من علة تبرر ارتباط الفرع بالأصل وقد اشترط الأصوليون في العلة أن تشتمل على المناسبة ولذلك عدت المناسبة من أهم مقولات التأسيس لمباحث القياس؛ بالوصف الذي عد فيه القياس موضع الاستنباط في استخراج الأحكام لدى الأصولي.

وتعريف المناسبة عند الأصوليين " أن يكون بين الوصف و الحكم ملائمة بحيث يترتب على تشريع الحكم عنده تحقيق مصلحة مقصودة للشارع من جلب منفعة للناس أو دفع مفسدة عنهم، مثل الإسكار فإنه وصف ملائم لتحريم الخمر ولا ملائمة كونه بلون كذا أو بطعم كذا، وإنما الإسكار هو الوصف المناسب للتحريم " ¹

والمناسب هو الطريق الرابع من طرق إثبات العلة وقد سماه جمع من الأصوليين (كالآمدي) و(ابن الحاجب) و(ابن السبكي): المناسبة والإخالة، وسميت بالإخالة؛ لأنه بالنظر إليه يُخال -أي: يظن- أنه علة. كما سمي بالمصلحة والاستدلال ورعاية المقاصد وتخريج المناط .

وتحقيقاً للمصطلح نورد بعض تعريفات المناسب

ذكر (الآمدي) تعريف (الدبوسي) " المناسب عبارة عما لو عرض على العقول لتلقته بالقبول " ² وهو تعريف متداول على ألسنة الكثير من الأعلام ⁽³⁾ وهو تعريف أقرب إلى المفهوم اللغوي منه إلى المفهوم الاصطلاحي مثلما نجد ذلك عند (الرازي) مثلاً حيث يقول: في مفهوم التناسب بأنها

¹ وهبة الزحيلي أصول الفقه الإسلامي، ج 1 دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1 دمشق 140 6 هـ 1986 م ص 676

² علي بن محمد الأمدي الإحكام في أصول الأحكام، ج 3 تحق عبد الرزاق عفيفي دار الصميعي للنشر ط 1 الرياض، 1424 هـ / 2003 م ص 338

³ ينظر مثلاً البرهان في علوم القرآن للزركشي (1/ 61).

" الملائم لأفعال العقلاء في العادات فإنه يقال: هذه اللؤلؤة تناسب هذه اللؤلؤة. أي: الجمع بينهما

متلائم، وهذه الجبة تناسب هذه العمامة. أي: الجمع بينهما متلائم ".⁽¹⁾

وعليه فتعريف (الدبوسي) ينزع إلى العموم دون تفصيل في المحددات ولعل هذه الملاحظة هي التي دفعت (الأمدي) ليرد هذا التعريف ويرى أنه في الوصف اللغوي أصلح منه في الوضع الاصطلاحي ذلك أن تقديرات العقول تختلف فما هو مقبول عندك قد لا يكون مقبولا عند مخاطبك يوضح (الأمدي) ذلك بقوله " غير أن تفسير المناسب بهذا المعنى وإن تمكن أن يتحققه الناظر مع نفسه فلا طريق للمناظر إلى إثباته على خصمه في مقام النظر لإمكان أن يقول الخصم هذا مما لم يتلقه عقلي بالقبول فلا يكون مناسباً بالنسبة إلي وإن تلقاه غيري بالقبول فإنه ليس الاحتجاج علي بتلقي غيري له بالقبول أولى بالاحتجاج على غيري بعدم تلقي عقلي له بالقبول " ² ولذلك يورد (الأمدي) تعريفاً أكثر دقة ووضوحاً حيث يقول: هو " عبارة عن وصف ظاهر منضبط يلزم من ترتيب الحكم على وفقه حصول ما يصلح أن يكون مقصوداً من شرع ذلك الحكم، وسواء كان ذلك الحكم نفيّاً أو إثباتاً، وسواء كان ذلك المقصود جلب مصلحة أو دفع مفسدة " ³ ولا يختلف (القرافي) كثيراً عن (الأمدي) بربط المناسب بتحصيل مصلحة ودرء مفسدة يقول (القرافي) "المناسبة ما تضمن تحصيل مصلحة أو درء مفسدة فالأول كالغنى لوجوب الزكاة والثاني كالإسكار لتحريم الخمر" ⁴ أما (الطوفي) فيضيف الرابط العقلي حين يتحدث عن طرق الاستنباط التي تعد

¹ فخر الدين محمد بن عمر الرازي المحصول في علم أصول الفقه، (ج 5 / ص 158)

² الأمدي الإحكام في أصول الأحكام ج 3 ص 338

³ المرجع نفسه ج 3 ص 339

⁴ شهاب الدين أحمد بن محمد بن إدريس القرافي، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، اعتناء

مكتب البحوث والدراسات لدار الفكر، طبع ونشر دار الفكر بيروت لبنان 1424 هـ 2004 م ص 303

المناسبة من ضمنها يقول " إِبْتِائُهَا بِالْمُنَاسَبَةِ، وَهِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِالْحُكْمِ وَصْفٌ مُنَاسِبٌ، وَهُوَ مَا تُتَوَقَّعُ الْمَصْلَحَةُ عَقِبَهُ لِرَابِطٍ مَا عَقْلِي " ¹

أما (ابن الحاجب) فيرى: أن المناسب " وصف ظاهر منضبط، يحصل عقلاً من ترتيب الحكم عليه، ما يصلح أن يكون مقصوداً من جلب منفعة أو دفع مضرة " ² ويكاد هذا التعريف يتطابق مع تعريف (الأمدي) مع إضافة شرط القبول العقلي .

وبالتأمل في هذه التعريفات نرصد ذلك الاتفاق بينها في علة الحكم بتحقيق المصلحة التي تحدد بجلب المنفعة ودفع المضرة وتحقيق هذه المصلحة في مستوى أعمق هو حفظ ما عُرف عند الأصوليين بالأصول الخمسة، " وكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة " ³ والأصول الخمسة هي: " حفظ الدين ، حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ النسل، حفظ المال. " ⁴

يقول (أبو حامد الغزالي): " ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم " ⁵ والحفاظ على هذه المقاصد هي المصلحة بعينها يوضح الغزالي " ونعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع " ⁶ والمصلحة بتعبير أدق " المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة ولسنا نعني به ذلك فإن جلب المنفعة ودفع المضرة

¹ سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين شرح مختصر الروضة، 3 ج تحق عبد الله بن عبد المحسن التركي مؤسسة الرسالة ط 1 السعودية 1407 هـ / 1987 م ص 381

² الأمدي الإحكام ج 3 ص 339

³ - المرجع نفسه ص 343

⁴ - المرجع نفسه ص 343

⁵ - محمد بن محمد الغزالي أبو حامد المستصفي في علم الأصول، ج 1: تحق محمد عبد السلام عبد الشافي دار

الكتب العلمية ط 1 - بيروت 1413 هـ ص 174

⁶ - المرجع نفسه الصفحة نفسها

مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم " ¹ وبهذا الاعتبار العام فإننا نكرر مع (الغزالي) "كل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة " ²

ثم يربط (أبو حامد الغزالي) في الشاهد نفسه بين الحفاظ على هذه المقاصد الخمسة وبين المناسب والعلة في باب القياس فيقول " وإذا أطلقنا المعنى المخيل والمناسب في كتاب القياس أردنا به هذا الجنس وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات فهي أقوى المراتب في المصالح " ³ ليعرض أمثلة دالة على تعلية الحكم بالمناسب في هذا المسلك مع الربط بالمقاصد الخمسة التي هي مدار التشريع ، فيقول: " ومثاله قضاء الشرع بقتل الكافر المضل وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته فإن هذا يفوت على الخلق دينهم وقضاؤه بإيجاب القصاص أدبه حفظ النفوس وإيجاب حد الشرب إذ به حفظ العقول التي هي ملاك التكليف وإيجاب حد الزنا إذ به حفظ النسل والأنساب وإيجاب زجر الغصاب والسراق إذ به يحصل حفظ الأموال التي هي معاش الخلق وهم مضطرون إليها وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل أن لا تشمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق ولذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتال والزنا والسرقه وشرب المسكر " ⁴ وعلى هذا الأساس نلاحظ العلاقة بين المناسب والحكم في دائرة المقاصد الخمسة التي هي بتوصيف الأصوليين الضروريات والعلاقة نفسها هي

¹ - المرجع السابق الصفحة نفسها

² - المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ - المرجع نفسه

⁴ - المرجع نفسه ص 175

تعلل في باب القياس الأصل بالفرع والحكم بالوصف ففي المقصد الأول حفظ الدين نفهم حكمة تشريع الأحكام والأوامر والنواهي لحفظ معتقدات الناس كي تنتظم حياتهم فلا يحكمهم الجور والظلم ولا تسودهم الفوضى

أما مقصد الثاني حفظ النفس فهو مقصد حفظ النوع الذي هو أصل الوجود والتكليف والمعاش وبه يستمر العباد وتستمر حياتهم ومقتضى حفظ هذا المقصد يتم بالزواج والتناسل والحفاظ على حياة الأفراد بتشريع الحدود بفرض القصاص والدية كما أوجب الشرع تحقيق ضروريات المعاش من طعام وشراب وملبس ومسكن وحرمة كل ما يلحق الضرر والهلاك بالنفس .

أما: ثالث المقاصد حفظ العقل: فلا تستقيم حياة الناس بالحفاظ على الجسم فحسب بل يتوجب أيضا صون العقل عن الضرر، ولذلك حرم الشرع كل مسكر يذهب العقل كي لا تضطرب حياة الناس فيسودها الانحراف وفي سبيل درأ هذه المفسدة عوقب كل من يقترب جريمة شرب الخمر وقياسا عليه كل ما يخل بالعقول من مسكر ومخدر .

أما المقصد الرابع حفظ النسل فقد أوجبت الشريعة عقوبة الحدود في حق كل من يخل بسلامة الأنساب والأعراض بفعل الزنى .

أما المقصد الخامس حفظ المال فقد أحل الله البيع وحرمة الربا ونهى عن الكسب غير المشروع بالسرقه والاختلاس والاحتكار وأكل مال اليتيم والسحت وأكل أموال الناس بالباطل ورغب في طلب الرزق من حله وأباح المعاملات والتجارة بكل أنواعها دونما حدود طالما كانت من حلال ودون تعدي على مصالح الناس وأرزاقهم.

ولأهمية هذه المقاصد نجدها تتواتر في كل مصنفات علماء الأصول مع التأكيد على أن هذه الأصول الخمسة _ كما يقرر جل علماء الأصول _ هي واحدة من أهم القواعد التي توجه الخطاب

القرآني وجهة نسقية بحيث يرتبط الفعل القرآني بكل مكوناته من النواهي والأوامر والترغيبات والترهيبات والأحكام والتشريعات وتنوع سياقات النص واختلاف مساقاته كلها محكومة بهذه الكليات كما يقرر _مثلا الشاطبي _ "إذا رأيت في المدنيات أصلا فتأمله تجده جزئياً بالنسبة إلى ما هو أعم منه أو تكميلاً لأصل كلي وبيان ذلك أن الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة: وهي الدين والنفس والعقل والنسل و المال".¹ فعلاقة المدني بالمكي والجزء بالكل والسابق باللاحق والمتقدم بالمتأخر التي تستدعي بالضرورة مبدأ التعالق بين الخطابات محكومة بهذه الأصول الكلية، مع الإشارة أنها ليست العلاقة الوحيدة التي تربط أجزاء الخطاب في اتساق وإحكام بل هناك علاقات أخرى يأتي ذكرها لاحقاً² ومبدأ التناسب الذي تحكمه العلة والحكمة _بالوصف الذي سبق _ بمنظور علماء الأصول هو واحد من الإجراءات التي لها حضور واضح في الخطاب القرآني يحدد بدقة مبدأ التماسك والارتباط المحكم بين مكونات النص الكريم وفق علاقات كثيرة أشار إليها المنجز الأصولي في كذا موضع، وبهذا الوصف تكون البنية النسقية الموحدة للقرآن محكومة في بعض مستوياتها بمسلك المناسبة

إن مسلك المناسبة عند علماء الأصول بحث ممتع ورصين يتداخل فيها اللغوي بالعقلي وبالشرعي وحين نكتفي بالتحديدات السابقة فإننا نحيل على سبيل المعاينة والتطبيق إلى القادم من الفصول للتفصيل³

5 / التناسب عند المفسرين

¹ - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الموافقات، ج3 دار ابن القيم- دار بن عفان: 1424هـ / 2003م ص 236

² - ينظر مادة الفصل الثاني التناسب آلية للاتساق

³ - ينظر مادة الفصل الثاني التناسب آلية للاتساق وكذا المبحث الثاني من الفصل الرابع التناسـص ممارسة تراثية

ومع التأكيد على أن فهم المفسر للمناسبة _ في غالب الأحيان _ مستوحى من حقلي إعجاز القرآن وبلاغته وعلم الأصول إلا أن ميزة المفسر هو أنه يضع هذا الفهم موضع التطبيق في مدونته التفسيرية¹

يسوق (الزركشي) تعريفا مبسطا للمناسبة يجمع فيه بين التوصيفين اللغوي والاصطلاحي فيقول "واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويُعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يُناسب فلاناً؛ أي: يَقْرُب منه، ويُشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل؛ كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة"².

غير (ابن العربي) يورد تعريفاً أكثر قدرة في التوصيف الاصطلاحي من حيث أنه يضعنا أمام محددات التناسب في إيجاد بيئة الاتساق على المستويين الشكلي (التركيبى) والمعنوي (الدلالي) يقول: "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض - حتى تكون الكلمة الواحدة، متسقة المعاني، مُنظمة المباني - علمٌ عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلة، ورأينا الخلق بأوصاف البَطَلَة؛ ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"³ فالتعريف هاهنا يستحضر البنيتين الشكلية والدلالية (المباني والمعاني) وينظر إلى الظاهرة التناسبية بمنظور نسقي متكامل (حتى تكون الكلمة الواحدة) ثم إنه يؤكد أن هذا الدرس سابق لعصره (فلما لم نجد له حَمَلة.. ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه).

ويبدو (البقاعي) قريباً إلى فهم علماء الأصول حين يربط بين المناسبة والعلة وبارعا في فهم استراتيجية التناسب حين يعي أن التناسب علم يبحث في علاقات أجزاء الخطاب فيما بينها وهو

¹ ينظر بعض هذه الإشارات في مبحث الممارسة الإجرائية عند الإمام البقاعي

² الزركشي البرهان في علوم القرآن؛ ج 1، ص 35.

³ السيوطي الإتيان في علوم القرآن ج 2 ص/976

بهذا الوصف سر البلاغة القرآنية لأنه يفضي إلى تحقيق السياق الذي يوجه دلالة النص الكريم، مثلما تتجلى قيمة التناسب في أنه يحدد مقصدية هذا الخطاب عبر سوره وآياته، رابطاً ذلك كله بالقرينة المقامية (مقتضى الحال) بما يحقق انسجام النص فضلاً على اتساقه لنتأمل قول (البقاعي) موضحاً في مقدمة تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) نسق التناسب وقيّمته في نظم القرآن وجمالية هذا الحضور المحكم، يقول: " هو علمٌ تُعرفُ منه عللُ ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها " (1).

وقد نختم هذه الإشارات بتعريف العالم الهندي المسلم وهو من المحدثين إنه (عبد الحميد الفراهي) الذي خصص مصنفاً موسوماً بـ (دلائل النظام) عارضاً فيه أشكال الترابط في النص القرآني، ومعنى النظام عنده هو أن تحتكم أي القرآن وسوره لوحدة متكاملة يقول: "ومرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة... وعلى هذا الأصل، ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر" (2). ولا حاجة للتدليل على فهم الرجل العميق لخصائص التماسك النصي بين أجزاء الخطاب القرآني الكريم وقدرته على توصيف ملامح الوحدة المتكاملة للنص القرآني مثلما هو جلي في هذا الشاهد الذي سقناه. وهو فهم بالضرورة لهو ارتباط عضوي بالمتون الأصولية ومدونات علوم القرآن والتفسير التراثيين .

1 برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 1، دار الكتاب الإسلامي مصر ص 5).

2 عبد الحميد الفراهي، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، مطبعة الدائرة الحميدية، ط 1 _ الهند 2008 م، ص 75.

الفصل الثاني:

التناسب آية لاتساق النص القرآني

الفصل الثاني: التناسب آلية لاتساق النص القرآني

المبحث الأول: التناسب منظومة إجرائية عند علماء الأصول وعلوم القرآن

مدخل:

القرآنُ كلامُ الله الذي أُحكمت آياته... وأبسطُ دلالة الإحكام _ فيما اتفق فيه المتقدمون والمتأخرون _ أن جملة، وآياته، وسوره، وأجزائه مرتبطٌ بعضها ببعض، عبر علائق متباينة، كالسبب بالنتيجة، والمتقدم بالمتأخر، والجزء بالكل، والعام بالخاص وغير ذلك من العلائق الكثيرة إذن تمثل ما في الكلمة القرآنية من إحكام، ينبني بالأساس على إدراك تلك العلائق التي تشد الخطاب القرآني بعضه ببعض في انسجام متقن وتماسك متين... وتأتي هذه مادة هذا المبحث قراءة لبعض المفردات التي تُمكن من فهم نسق القرآن الكريم في اتساقه المحكم، وانسجامه العجيب، لتُؤصِّلَ للظاهرة في مدخل ناظم يستحضر مقولات دقيقة أنجزها علماء التراث، وقد كانوا على وعي بهذا النسق المحكم، وإن تباعدت بيئاتهم التي أنجبته، وتباينت مفرداتهم في الاستقصاء والاستقراء، وتباينهم هذا يدل على اتساع نشاطهم الفكري، وتجذر ممارستهم ونضجها حيال تفاصيل الظاهرة القرآنية المتفردة، وهو ما يغري بتتبع مقولاتهم - على اختلاف محفزاتها، مرجعياتها وبيئاتها - قصد رصدتها، ووصفها، وفهم بعض امتداداتها، وستكون معاينتنا _ ها هنا _ عبر هذه الصفحات، باعتماد ظاهرة التناسب، التي تعد منظومة إجرائية اتخذها الكثير من الأعلام أساساً منهجياً لمقارباتهم التحليلية، مع التأكيد على أن ظاهرة التناسب لا تعني عندهم مجرد تجاور بين ملفوظات أو آيات، أملاها منطق التلاؤم، وحسن الكلام، _ كما قد يُفهم _ بل إن التناسب كما تجلّى في الخطاب الكريم، وكما فهمها المشتغلون بالقرآن قديماً أعمق بكثير، فهو بتعبير (الفراهي)

نظام محكم و " مرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، وعلى هذا الأصل، ترى القرآن كله كلاماً واحداً، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر " ¹ بل ليس أدق من توصيفه بالعلم _ كما قال (البقاعي) _ للدلالة على أهميته وضرورته فهو " علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لمقتضى الحال " ² وفي هذا الاتجاه نفهم لماذا وجدنا في أغلب مصنفات علوم القرآن والإعجاز والأصول أبواباً مفصلة لعلم المناسبة مع التأكيد على ضرورة إدراك دقائق هذا العلم " ولعل الباحثين في علوم القرآن قد لمسوا أخطر جوانب النص حين درسوا وجوه المناسبة بين الآيات، وخصصوا لها علماً قائماً برأسه هو علم المناسبة " ³ وتتأكد هذه الأهمية لأن " التناسب في البيان القرآني موضوع دقيق وجليل، في آن واحد، لأنه يبحث ويتناول وجهاً لطيفاً من أوجه بلاغة القرآن وجليل لأنه متشعب، يستلزم معرفة واسعة باللغة العربية، وخصائصها المعجمية، والصرفية، والصوتية والتركيبية، وهذه معرفة تقتضي، جمع علوم اللغة كلها وفقهاها، كما يستلزم معرفة، واسعة بالقرآن، وعلومه، وبلاغته، وخصائص أسلوبه، ويستلزم بالإضافة إلى ذلك، قدرة كبيرة على التدبر، والتذوق والتحليل " ⁴ مما يعني أن هذه الظاهرة _ التي جعلها ثلة من الدارسين والمفسرين _ معياراً للإعجاز _ هي ظاهرة ذات ارتباط بأنساق لغوية، وغير لغوية، من معارف، وعلوم وفنون مما يستوجب على المعايين لمسارات التناسب في القرآن، أن يمتلك حظاً كبيراً من

¹ - الفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام، ص 75

² - البقاعي نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 1/ ص 5

³ - منير، وليد. النص القرآني من الجملة إلى العالم، (أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2003 م)، ص

⁴ - أحمد أبو زيد التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي منشورات كلية الآداب بالرباط

الإطلاع بل الإلمام بعلوم شتى، فضلا على ما تتسم به ملكته، من مواهب فطرية، تحفزه للخوض في هذا المسلك، وفي هذا الاتجاه يتأكد أن ظاهرة التناسب بالتوصيفات السابقة هي جهاز إجرائي محكم تنتظم فيه آليات متباينة منها ما هو لغوي ومنها ما يتجاوز التوصيف اللغوي _ كما سبق الإشارة _ إلى أنساق أخرى، تتمثل في الحاجة المنهجية الملحة لمعرفة بعض القرائن السياقية المقامية كأسباب النزول وملابسات التنزيل وظروف البيئة التي تنزل فيها الوحي ومقتضيات الحوادث والوقائع المرافقة للوحي، كل هذه الأنساق والقرائن تمثل الدافع لفهم وظيفة التناسب في رصد مظاهر التماسك في النص القرآني الكريم.

1 التناسب منظومة إجرائية عند علماء الأصول وعلوم القرآن

إن بحث هؤلاء الأعلام في منطق الاتساق، والتماسك في القرآن الكريم بوصفه مفردة مهمة في إجراءات الممارسة النصية - قصد المعاينة والإثبات - يتحدد في فهم هذه الظاهرة المهيمنة والفعالة في الخطاب الكريم، ألا وهي إدراك العلاقات المحكمة التي تشد الخطاب بعضه إلى بعض، وتعتبر هذه الظاهرة عن نفسها بمقولات إجرائية محددة قد يكون إطارها العام هو التناسب، لكن تحت هذا الإطار تنضوي مجموعة من المقولات ذات كفاءة و قدرة على التحديد، سنحاول أن نرصدها نظريا مع بعض الإشارات التطبيقية، كما فهمها أعلام التراث الذين اشتغلوا على النص القرآني، وكما أصّلوا لها في متونهم، مع التأكيد على أنه مع وعيهم الدقيق بهذه الظاهرة، وبإمكاناتها في إحداث نسق الاتساق، فقد امتلكوا قدرة عجيبة في الوصول إلى المفردات التي تتحكم في هذه الظاهرة، وتُسهم في إنتاج هذا التماسك المحكم، ويرافق هذا الوعي، وهذه القدرة حرص باعتماد هذه الظاهرة الفعالة بمقولاتها الإجرائية منها في استقرار القرآن وتفسيره*¹ لما تحققه من

¹ - نلاحظ هذا المنزع في مدونات تفسيرية كثيرة اعتمدت التناسب منها في مقارنة النص القرآني

مكاشفات تؤكد تميز الفعل القرآني، وروعته بعد ما تؤكد إحكام نسقه وإتقان بناءه، وفق منطق متسق، منسجم ومتماسك، يحكم الخطاب الكريم كله، من أوله إلى آخره، كالكلمة الواحدة .

1_1 الاتساق في الوعي التراثي بأدوات فارقة:

ونقصد بالأدوات الفارقة تلك التي أنتجها البحث الأصولي أو استنبطها من المتن القرآني، وهي بالوصفين السابقين تعد منجزاً أصيلاً يحمل براءة الإنتاج، وينسجم مع السياقين الثقافي والمعرفي اللذين أنتجا هذه المنظومة، وقيمة هذه الأدوات لا تتحدد بالضرورة بمدى مطابقتها للأدوات الغربية الحديثة، وإن مطلباً بهذه الكيفية (أي المطالبة أن تكون أدوات التراثيين مطابقة للمنجز الغربي الحديث) لهو مطلب يقفز على سنن المعرفة، من حيث أنه يشترط فعلاً لا ينسجم مع حركة الزمن، واشتراطات المكان، وبذلك فهو تحميل للفعل التراثي بطاقة تتعارض مع مطلب المساقات الموضوعية، وإنما قيمة هذا المنجز ومدى مصداقية أدواته، تتحدد بطبيعة الأداء، وإجراءات الوصف، ومنهج المقاربة، وطبيعة المخرجات، وكل تلك المفردات _ها هنا_ تُترجم بمدى إدراكهم لظاهرتي الاتساق، والتماسك النصي، والاشتغال على النص بكل مكوناته مع القدرة على وضع قواعد ناظمة، أبدعها فكرهم الفذ، وبها تم تحديد الكيفيات التي تبرر هذا الاتساق، وتحدد آلياته، وبقدر نجاعة منجزهم في هذا الإطار المفاهيمي الذي حدده لأنفسهم وفق سياقهم الثقافي، بقدر ما يمكن أن نحكم على هذا المنجز بالكفاءة والاقتدار، لا على أساس مدى مطابقة منجزهم بالمنجز الغربي، وعلى هذا الأساس لا نرى مبرراً أصلاً بضرورة أن تتطابق أدواتهم الإجرائية ومخرجاتهم مع أدوات ومخرجات المنجز الغربي المعاصر .

1 _ 2 استقراء بآلية التناسب من خلال عينات دالة:

أولاً: في البدء كان النيسابوري:

إننا نفهم من تلك المساءلات الحثيثة التي كان يطرحها العلامة (النيسابوري) وعياً بضرورة فهم أسباب التماسك بين أجزاء الخطاب الكريم، لقد كان يُلح بالسؤال حين تُقرأ عليه الآية من القرآن الكريم: "لم جُعِلت هذه الآية من القرآن إلى جنب تلك؟ وما الحكمة في جعل السورة إلى جنب هذه السورة...؟" ¹ والسؤال الذي يثيره (النيسابوري) هنا ليس طلباً ينتظر جواباً تركز إليه عقولٌ مفرغةٌ تؤثر السلامة وتكتفي بظاهر الأشياء، بل هو تحفيزٌ لعقل مجهد، أضناه البحث الجاد عن الحكمة في الارتباط بين الآية والآية والسورة و السورة، هذا الارتباط الذي لا يخلو من دلائل على العظمة والتميز ويضيف (النيسابوري) قاطعاً بأن سر الإعجاز الذي أذهل أساطين العربية إنما مرده إلى ذلك الارتباط الخفي القوي الذي يجعل القرآن الكريم كله _ بهذا الوصف _ كالكلمة الواحدة تماسكا وتلاحماً حيث يقول، "إن إعجاز القرآن البلاغي لم يرجع إلا إلى هذه المناسبات الخفية والقوية بين آياته وسوره، حتى كأن القرآن كله كالكلمة الواحدة، ترتيباً وتماسكاً" ² إن هذه الصرامة التي يصف بها (النيسابوري) القرآن الكريم بأنه كلمة واحدة، ترتيباً وتماسكاً، يعكس وعياً ناضجاً باتساق النص الكريم في ملكات هؤلاء الأفاضل، هذا الوعي الذي يتواتر مع أعلام آخرين، ولعل وصف (أبو بكر بن العربي) القرآن الكريم _ في سياق آخر _ بالكلمة الواحدة يكرس الوعي نفسه، حين يجيب عن تساؤلات (النيسابوري) حيث يقول: "إن ارتباط آيات القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منظمة المباني، علم عظيم" ³، ويبدو توصيف (ابن العربي) هذا الارتباط

¹ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن ص 132

² - نقلاً عن: رضوان بسيوني عرفة: الفصل والوصل، مكتبة الرسالة، القاهرة. ص 39

³ - البرهان في علوم، جزء 1 ص 132

النصي الموسوم عنده ب (متسقة المعاني، منظمة المباني) بأنه علم عظيم نفياً أن تكون هذه الظاهرة في القرآن الكريم عرضاً معزولاً، أو فعلاً عابراً لا يتكرر، أو أن الوصول إلى اكتشاف خفايا التناسب وشفراته، هو جهد بسيط يتأت بمجرد المعاينة السطحية، ويؤكد تعقيبته بأن هذا العلم " لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله تعالى لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه " ¹ يؤكد أن هذا الفهم المحكم للقرآن الكريم في بنيته المتسقة، ولحمته المترابطة لم يكن في متناول عامة العلماء، بل قد كان سابقاً لعصره، و هو من المكاشفات التي اختص الله عزوجل بها قلة من الدارسين، ويؤكد في الآن نفسه أن هذه الممارسة الناضجة كشفت عن دقائق النص الكريم، من حيث أنها ترصد بنيته المتلاحمة، التي تنطلق من اعتباره كلمة واحدة

إن من المهم إذن في قراءة الخطاب الكريم وصل الآية بالآية بمقتضى ملائمة ما، وربط السورة بالسورة امتثالاً لتناسب ما، وصولاً بهذا التدرج إلى السياق العام، الذي يحكم الكتاب الكريم كله، وكأننا - بهذا الوصف - حين نقرأ الآية في مستوى أول، قرأنا السورة كلها في مستوى ثان، و قرأنا الكتاب العظيم كله في مستوى ثالث، إن هذا التماسك - الذي أثار (النيسابوري) حوله المساءلات التي تحفز الفكر للخوض في تفاصيله، ووسمه (ابن العربي) بالعلم العظيم، لأنه يجعل القرآن الكريم كلمة واحدة متسقة المعاني، ومنظمة المباني - يحدد (الزركشي) مرجعيته إلى جملة من العلاقات الدقيقة التي تربط أجزاء الخطاب حيث يقول: " و كذلك المناسبة في فواتح الآيات و خواتمها ومرجعها - و الله أعلم - إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي و غير ذلك من العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعللة المعلول والنظيرين و

¹ - المرجع السابق، ص 132

الضدين ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود في باب الخبر. ¹ وتكرس هذه العلاقات المحددة التي أشار إليها (الزركشي) والتي تحكم فواتح الآيات وخواتمها نسقا محكما تغيب فيه الاعتباطية، ويتواتر فيه الإحكام المتقن مع تنوع واضح لتلك العلاقات (الخاص والعام / الحسي والعقلي / السبب والمسبب / العلة والمعلول / النظير والضدين ... وهي علاقات على كثرتها وتنوعها، حاضرة واقعا نصيا في الخطاب الكريم تفسر اتساقه وتماسكه، و يدلل عليها (الزركشي) وغيره من الأعلام في أكثر من عينة.

وباستقصاء الظاهرة في فكر بعض الأعلام نجد منزعا بتتبع هذا التماسك بين الآية و الآية، و السورة و السورة، مرفقا بحرص شديد أن هذه الظاهرة هي عصب الخطاب الكريم الذي يجب مراعاته لأنه يعصم من الخطأ، و يصون الفهم، و يبدو (فخر الدين الرازي) مدرگا بحسه الفني الرفيع بأن تلمس أسرار القرآن إنما هو محصلة فك الترابط، والعلاقات القائمة بين أجزاء الخطاب، إذ يقول: "أكثر لطائف القرآن مودعة، في الترتيبات والروابط " ² وهنا نفهم سبب نعي (السيوطي) على البعض اكتفاءهم بالوقوف عند ألفاظ وجمل الخطاب القرآني، و تفسيرها تفسيراً مجرداً، دون مراعاة ما بينها من تناسب، وترابط، وعلاقات، إذ يقول: "وعلم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته " ³.

¹ - المرجع السابق ، ص 132

² - المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ - السيوطي، الإتيان في علوم القرآن ج 3 ص 322

ثانيا: المنجز بتفاصيل الزركشي :

أ _ مقدمات الزركشي في تفاصيل آلية التناسب

من المهم الإشارة إلى فكرة دقيقة يدركها من عكف على مصنف (الزركشي) قراءة واستقراء، فكرة تحدد بقدر كبير نضج الممارسة النصية ووضوح التفكير السياق التداولي لدى هذا العلم ويمكن أن نوجز ملامحها في ذلك المنحى الذي يتخذه (الزركشي) منهجا لقراءة النص القرآني عبر هذه التأكيدات :

1 تتطلق معانيته من إطار إجرائي يمهّد به مقارنته هو أن القرآن بالضرورة مرتبّ ترتيبا توقيفيا ربانيا.

2 يؤكد في مواضع كثيرة على ضرورة الانطلاق من الغرض العام أو مقصود السورة و(الزركشي) لا ينفرد بهذا التوجه بل هو حاضر عند الكثير من الأعلام وليس هذا المصطلح سوى المفهوم الحديث للبنية الكبرى التي يحرص المنجز الغربي أيضا أن ينطلق منها المحلل بتعبير رواد الدرس اللساني النصي الحديث

3 تبدأ معانية (الزركشي) للنص القرآني برصد عمودي للعلاقات المتينة بين الفواتح والخواتم التي تربط السور .

4 تتدرج المعانية عبر المنحى الأفقي نحو الربط بين الآيات داخل السورة الواحدة شكلا ودلالة، مع ما في هذا الربط من تفصيل دقيق لمضامين الآيات ببعديها الدلالي والجمالي، استقراء وتفسيراً،
5 التأكيد على أن هذه المقاربة تتنوع في ضبط العلاقات الشكلية، التركيبية، المعنوية وقد تعتمد إشارات سياقية كثيرة من خلال تلك القرائن المقامية التي ترتبط بظروف التنزيل وملابساته مما

يخرج بالمعانية من إطارها التفسيري المجرد إلى المعانية النصية ببعديها التركيبي الشكلي / (اتساق)، ثم مقامي سياقي: أسباب النزول، مراعاة المخاطب / (انسجام) .

ب _ البحث في التفاصيل

يبدأ (الزركشي) بحثه في المناسبة أولاً بتأكيد أهمية هذا العلم من علوم القرآن فيقول: " اعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول " ¹ ثم يورد تعريفاً وجيزاً للمناسبة "والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلاناً أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة" ² ثم يفصل في التوصيف الاصطلاحي العلمي الدقيق فيقول "ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصف المقارب للحكم، لأنه إذا حصلت مقاربتة له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول" ³ ليتدرج بعد ذلك في تحديد المفهوم رابطاً إياه بحقل الدراسة وهو النص القرآني فيقول "و كذلك المناسبة في فواتح الآيات وخواتمها و مرجعها - و الله أعلم - إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي وغير ذلك من العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب و المسبب والعلة المعلول والنظيرين و الضدين ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود في باب الخبر." ⁴ وحين نتأمل تلك العلاقات التي يرصدها (الزركشي) ندرك ثلاثة تحديدات غاية في الأهمية والدقة أما الأول فهو في ضبط المصطلح بدقة متناهية

¹ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج 1 ص 131

² - المرجع نفسه الجزء الأول ص 131

³ - المرجع نفسه ص 131

⁴ - المرجع نفسه، ص 131

1عام خاص .

2عقلي حسي خيالي التلازم الذهني.

3السبب والمسبب .

4العلة والمعلول .

5والنظرين والضدين.

6أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر .

أما الثاني ففي تنزيل هذه المفاهيم في نسق الدرس القرآني

أما الثالث فهو التنوع الظاهر للعلاقات التي يوردها (الزركشي) بما يُمكنُ من رصد كل أوجه التماسك على اختلاف مرجعياتها .إنها الإحاطة بأهم العلاقات التي تربط أجزاء القرآن، وإذا كانت المعاينة هنا بتقدير (الزركشي) تختص بفواتح الآيات وخواتمها، فإنه يعممها على مستويات أخرى في القرآن الكريم، ثم ينتقل (الزركشي) إلى بيان الأهمية الملحة من رصد هذه العلاقات التي يحددها بدقة في تحقيق التماسك النصي فيقول: " وفائدته: جعل أجزاء الكلام، بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء " ¹ ولعل صعوبة هذا المسلك في توخي العلاقات التي تربط أجزاء الخطاب وإدراك الروابط الخفية التي تترجم التماسك النصي هي التي حدث (بالزركشي) أن يقرر " وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته" ² ثم ينتقل إلى بيان ذلك الجدل العلمي بين القائلين بالتناسب القرآني المدركين فوائده وأسراره وبين المشككين فيه (ولن نخوض في هذه التفاصيل) ونكتفي بالقول أن (الزركشي) ينتصر في الأخير للمذهب الأول وفي هذا السياق يورد المقولة المحكمة التي أوردها على لسان بعض

¹ - المرجع السابق 131

² - المرجع نفسه ص 132

مشايخه في الانتصار لعلم التناسب حيث يقول " قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف وحافظ القرآن العظيم لو استقتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقا، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر فإنه ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ أَيْنَهُ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝١﴾ هود: 1 " ¹ ويترجم هذا النص الفهم الذي يشترك فيه علماء القرآن والأصوليون والمفسرون كون القرآن نزل منجما لا يعني بالضرورة أن هذا هو ترتيبه ذلك أن القرآن الكريم سبق في علم الله تعالى في وجوده في اللوح المحفوظ ثم نزل مفرقا بحسب الوقائع والأحداث ثم قضى الله عزوجل بحكمته بأن يُجمع ويُرتب كما نزل في اللوح المحفوظ أول مرة فكان من جملة الحكم في هذا الترتيب أن حافظ على نظمه المتقن واتساقه المحكم .

ج _ البحث في العلاقات :

يرصد (الزركشي) في باب مفصل تلك العلاقات التي يقيمها التناسب بين أجزاء النص القرآني بين الآيات فيما بينها ثم بين السور فيما بينها، وهو إذ يعمد إلى هذا البيان الدقيق يقترح إجراءات تفسر ذلك التجاور بين الوحدات القرآنية صغرى كانت أم كبرى، آيات كانت أم سور، فواتح كانت أم خواتم، وينطلق في سبيل البرهنة من مفردة إجرائية مهمة، يعي (الزركشي) جيدا أنها ضرورية لتأصيل ذلك الفهم الذي ينظر إلى القرآن كله على أنه كلمة واحدة يقول " قلت: وهو

¹ - المرجع السابق 133

مبني على أن ترتيب السور توقيفي، وهو الراجح كما سيأتي " ¹ وتأكيد (الزركشي) على أن القرآن مبني على ترتيب توقيفي له من الدلالات في فهم الرجل الكثير، ولعل بعضاً من هذه الدلالات يرتبط أساساً بالقول أن القرآن كلمة واحدة اتساقاً وإحكاماً وتلاحماً، ذلك أن القول بأن الترتيب القرآني اجتهاد بشري قام به الصحابة رضوان الله عليهم، يعني أن منشئ القرآن وهو الله عزوجل ، ليس هو مرتبه وهم الصحابة، واختلاف الإنشاء والترتيب يُخل بالضرورة بنظم القرآن واتساقه وانسجامه الذي يعد أبرز وجوه الإعجاز، والسؤال الإشكالي هاهنا هو كيف يمكن للصحابة مهما أوتوا من براعة وقدرة وفهم للنص الكريم أن يرتبوا القرآن الكريم بحيث لا يحدث إخلالاً ببنائه المتسقة المعبر عنها بإعجاز نظمته؟! ثم ما هي دواعي الحكمة أن يترك الله تعالى كتابه للبشر كي يرتبوه حسب اختلاف في الفهم وقدرات بشرية متباينة، وهو الذي تكفل بصريح النص ﴿ إِنَّا

نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ الحجر: 9 ²

فلا بد أن (الزركشي) يعي أن مجرد القول بأن القرآن الكريم مرتب بالاجتهاد يطعن في نظمته واتساقه، فلا يكون بعد ذلك مبرر للخوض في تفاصيل إعجازه النظمي والصوتي، وهو باب من أهم أبواب نظرية الإعجاز، إن لم نقل هو روح ذلك الإعجاز.

ج 1: البنية المحكمة بين فواتح السور وخواتمها :

تبدأ معاناة (الزركشي) في رصد العلاقة بين فواتح السور وخواتمها بوصفها عتبات نصية تحيل إلى مضامين السور كلها في علاقة الكل بالكل، حيث يقول (وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة

¹ - المرجع السابق ص 134

² - سبق مناقشة هذه الفكرة في الفصل الأول المبحث الثاني

وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى " ¹ ويعرض بعد

ذلك عينات: "... وكافتتاح سورة فاطر (بالحمد) أيضا، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله

تَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ۖ﴾ ^(٥٤) سبأ 54 وكما قَالَ تَعَالَى:

﴿أَدْرِ الْقَوْمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِوَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ ۖ﴾ ^(٤٥) الأنعام: 45 وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، فإنه

مناسب لختام سورة الواقعة للأمر به. وكافتتاح سورة البقرة بقوله تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ

هُدًى لِّلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ يَتَّقُونَ ۚ﴾ ^(٢) البقرة 2 ، فإنه إشارة إلى الصراط في قوله تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۖ﴾ ^(١)

الفاتحة: 6 كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم (قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتهم

الهداية إليه هو) (الكتاب) وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة... ²

وتبدو المعاينة دقيقة ومحكمة، وبالرجوع إلى هذه المواضع التي أشار إليها شاهد (الزركشي)

ندرك التماثل العجيب بين فواتح وخواتم هذه السور، وغيرها مما لم نذكره في هذا الموضع من

البحث، وقد ذكره (الزركشي) في مصنفه بالتفصيل.

ويختتم هذا المبحث بإشارة إلى سورة الكوثر والسورة التي قبلها حيث يختزل العلاقة بينهما في

علاقة التقابل التي تحقق التماسك بين أجزاء الخطاب فيقول: "ومن لطائف سورة الكوثر أنها

كالمقابلة للتي قبلها ؛ لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمر أربعة: البخل، وترك الصلاة،

والرياء فيها، ومنع الزكاة، فذكر هنا في مقابلة البخل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ^(١) الكوثر: 1

أي الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة فصل (أي دم عليها)، وفي مقابلة (الرياء) لريك (أي

لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون: (وانحر) وأراد به التصديق بلحم الأضاحي، فاعتبر

¹ - الزركشي البرهان في علوم القرآن ص 134

² - المرجع نفسه 134

هذه المناسبة العجيبة"¹ وبالتأمل في الروابط المعنوية بين سورة الكوثر وسورة الماعون يتجلى ذلك الإحكام المتين بين مضامين هاتين السورتين على وجه التضاد الذي يعده (الزركشي) في أكثر من موضع آلية من آليات الاتساق مثلما سيأتي لاحقاً

ويعقب (الزركشي) بعد سرد عينات كثيرة بتساؤل إنكاري، يضع المتردد أمام حقيقة يقينية بأن النص الكريم كله كلمة واحدة مع حرص واضح على مبدأ التعالق بين الآيات من جهة وبين السور من جهة ثانية يقول " وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور، فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض ! بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة"² وبهذه الإشارة ينقلنا (الزركشي) من مستوى معاينة التماسك النصي بين السور إلى مستوى المعاينة بين الآيات داخل السورة الواحدة

ج 2: بنية الاتساق داخل السورة الواحدة

والظاهر في المستوى المتعارف عليه أن الآيات مرتبط بعضها ببعض على أساس مبدأ التعالق، وضرورة وصل المتقدم بالمتأخر، بمقتضى علاقات معينة يحددها (الزركشي) بهذا الوصف: "ذكر الآية بعد الأخرى ؛ إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد، وهذا القسم لا كلام فيه"³ لينتقل بعد هذا التحديد الدقيق لتلك العلاقات المحددة المشار إليها ب: (تمام المعنى، التأكيد، التفسير، الاعتراض والتشديد)، إلى وضع يبدو فيه عدم الارتباط على أساس التعالق _الظاهر_ دافعا لإيجاد علائق أخرى تفسر وضع هذه الآية إلى جنب تلك كي

¹ - المرجع السابق 135

² - المرجع نفسه ص 136

³ - المرجع نفسه ص 137

يتحقق شرط الاتساق يقول الزركش "وإما ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به، فلما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أو لا " ¹

ولهذا المقصد يرصد هذه المستويات التي تنتظم فيها أجزاء الخطاب كي تحقق نسق الاتساق:

المستوى الأول: فاعلية العطف في تحقيق الاتساق باعتماد آلية التناسب :

العطف بنية أساسية في تحقيق التماسك النصي ،ذلك أنه يبنى صلة محكمة بين متواليات من الجمل داخل النص، بعلاقات متباينة ومتنوعة ويمكن هذا الربط الذي يقيمه العطف من إنتاج الاتساق بتنوع في الوظائف ،ويبدو هذا الفهم حاضرا في ذهن (الزركشي) إذ يعدد تلك العلاقات الجامعة بين الآيات ويحدد فوائدها " أن تكون معطوفة ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه كقوله ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ^٤ الحديد 4 وقوله ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِصْطٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^{٤٤} البقرة 245

وفائدة العطف جعلهما كالنظيرين والشريكين ²

وتتنوع العلاقات التي يقيمها العطف والتي تقضي في كل هذه المواضع إلى تحقيق التماسك

النصي من ذلك .

1 علاقة التضاد:

"وقد تكون العلاقة بينهما المضادة، وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة. وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون ذلك باعثا على العمل بما

¹ - المرجع السابق ص 137

² - المرجع نفسه ص 137

سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظم الأمر والناهي، وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك" ¹

وتبدو هذه القواعد المحددة التي يستتبطها (الزركشي) من خلال استقصاء لسور كثيرة جهازا إجرائيا يحدد الأشكال التي يتجلى فيها العطف، الذي يأخذ _فضلا عن ذلك _ مظاهر أخرى من ذلك : حالات لا تتضح بظاهر النظر بل تحتاج إلى تأمل وشرح وتدقيق يقول " وقد تأتي الجملة معطوفة على ما قبلها، وتشكل وجه الارتباط فتحتاج إلى شرح، فمنها قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿ البقرة: 189 فقد يقال: أي رابط بين أحكام الأهله وبين أحكام إتيان البيوت ؟ " ²

والتساؤل عن الرابط الذي يحقق تماسك النص الذي يطرحه (الزركشي) هاهنا بقدر ما يعكس تساؤلات كل الذين يمرون على هذه الآية، بقدر ما يضعنا أمام حالة الإدراك التي يتجاوز به (الزركشي) سياقه الثقافي حين يقرر توصيفا يتقاطع فيه مع أحدث منجزات الدرس اللساني النصي المعاصر في اعتماد القرائن المقامية، والعلاقات السياقية، ودور المتلقي حيال النص، ومبدأ الوصف التداولي، لتأمل بدقة إجابة (الزركشي) وما تحيل إليه من هذه المدركات في الأوجه التالية:

¹ - المرجع السابق ص 136

² - المرجع نفسه ص 137

2 الوجه الأول: (علاقة التفسير المقامي):

يجيب (الزركشي) عن التساؤل الذي يبحث في علاقة الربط في النص القرآني السابق فيقول:
 " والجواب - عنده - من وجوه عدة: أحدها كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة
 ونقصانها: معلوم أن كلما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه، وانظروا
 في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا ¹ "

إنه بتعبير بسيط حري بكم أن تسألوا عما ينفعكم في دينكم ويأخذ بكم إلى أبواب البر، وكأنه
 إنكار عن طبيعة هذا السؤال، وتحليل (الزركشي) ينطلق من مقتضى معرفة السائل بما يؤكد
 حضور المتلقي في فهم النص وفي ذهن (الزركشي، وتلك قرينة مقامية سياقية

3 الوجه الثاني: علاقة التفسير الاستطرادي باعتماد حادثة تفسر النص

يقول (الزركشي) " أنه من باب الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، وكان هذا من
 أفعالهم في الحج، ففي الحديث أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا
 دارا ولا فسطاطا من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته، منه يدخل ويخرج، أو
 يتخذ سلما يصعد به، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فليل لهم: ليس البر بتحرجكم
 من دخول الباب لكن البر من اتقى ما حرم الله، وكان من حقهم السؤال عن هذا وتركهم ² "

ويبدو تخريج (الزركشي) هاهنا يستند إلى معرفة أسباب النزول من خلال ربط هذا النص بذلك
 الفعل الذي كان يفعله بعض الأنصار ويعتقدون أن ذلك من البر فنبههم الخطاب الكريم وأكد أن
 البر من أتقى وآتوا البيوت من أبوابها، مثلما تتأكد بنية التماسك من خلال فعل الاستطراد فالانتقال
 من الحديث عن الأهلة إلى الحديث عن إتيان البيوت من أبوابها جاء استطرادا حيث أحالت قصة

¹ - المرجع السابق ص 137

² - المرجع نفسه ص 137

هؤلاء الأنصار إلى ذكره فعلهم جنبا إلى جنب مع الحديث عن الأهله وتبدو العلاقة هنا بين الجملتين علاقة اتساق معجمي من خلال التضام بمنظور لسانيات النص الحديثة .

4 الوجه الثالث: علاقة التفسير التمثيلي بمقتضى معرفة المخاطب

يقول (الزركشي) " أنه من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم كمثل من يترك بابا ويدخل من ظهر البيت، فقليل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة، ولكن البر من اتقى ذلك، ثم قال الله سبحانه وتعالى: وَأَتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا^١ لبقرة: 189 أي باشروا الأمور من وجوها التي يجب أن يباشر عليها، ولا تعكسوا، والمراد أن يصمم القلب على أن جميع أفعال الله حكمة منه وأنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٢٣) الأنبياء 23: فإن في السؤال اتهاما " ¹ .

وفي هذا المستوى يكون وجه الاتصال بين الخطابين هو شكل من أشكال التمثيل فسؤالكم هو كمن يترك الباب ويأتي من ظهر البيت - على سبيل تعكيس الأسئلة - ثم كان الحسم من القرآن ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ أُنْتَقَى وَأَتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا^٢ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ثم يورد (الزركشي) أمثلة كثيرة في هذا السياق توضح هذه العلاقة ² .

¹ - المرجع السابق 138

² - ينظر المرجع نفسه من ص 138 إلى 141

5 علاقة حسن التخلص

وفي السياق نفسه ينتقل (الزركشي) لعرض آلية تحقق الربط بين الآيات تتمثل في ما يسميه حسن التخلص " وبهذا يظهر لك اشتمال القرآن العظيم على النوع المسمى بالتخلص ...ومن أحسن أمثلته قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ النور: 35

فإن فيها خمس تخلصات: وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجية وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء " ¹

وبالتأمل في هذا الشاهد نجد أن حسن التخلص في هذه الآيات يحقق تماسك قويا داخل النص من خلال الانتقال الخفي عبر الوحدات اللغوية الصغرى التي تُكون النص بحيث يكون التكرار في رأس كل وحدة ماسكا بالوحدة التي تليها من خلال حلقة يبدو الرابط فيها خفيا لكنه محكما وبعد أن يستوفي (الزركشي) المعاينة التي تتأسس على استراتيجية العطف بما يحقق الربط المحكم بين أجزاء النص ينتقل في المستوى الثاني حيث يغيب العطف مؤذنا بدعامة أخرى تحقق تعالق النص وارتباط أجزائه وهي القرائن المعنوية :

¹ - المرجع السابق ص 139 و 140

المستوى الثاني القرائن المعنوية

ألا تكون معطوفة حيث يغيب العطف، يقول (الزركشي) " ألا تكون معطوفة، فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية مؤذنة بالربط، والأول مزج لفظي، وهذا مزج معنوي، تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني"¹

والظاهر أن عدم وجود العطف بين الجملتين يعني عدم وجود تناسب بينهما لانتفاء التعالق الشكلي وهو ما عبر عنه (الزركشي) بالمزج اللفظي الذي يحقق التماسك، لكن ثمة قرائن معنوية تحقق الغرض الذي انتفى بالرباط الشكلي وهو الربط المعنوي، وهي بتعبيره دائما مزج معنوي ثم يستعرض هذه المستويات التي تحقق الربط المعنوي كالآتي :

1 مستوى علاقة النظير:

يقول (الزركشي) " فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء، ومن أمثلته قوله ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ٥ ﴾ الأنفال 5 عقب قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ ﴾ الأنفال 4 فإن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون، وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي ﷺ وجادلوه، فكره كثير منهم ما كان من فعل رسول الله ﷺ في النفل، فأنزل الله هذه الآية وأنفذ أمره بها، وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء ما بعد أن كانوا مؤمنين . ووصف المؤمنين

¹ - المرجع السابق ص 143 و 144

ثم قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۖ﴾ الأنفال: 5 يريد أن كراهيتهم لما فعلته من الغنائم ككراهتهم للخروج معك¹.

فالعلاقة التي تؤذن بالاتساق بين الجملتين هي علاقة النظير فكراهية بعضهم لما أقدم عليه النبي ﷺ في تقسيم الغنائم نظير كراهيتهم للخروج معه طبعاً والحديث هنا عن البعض الذين جادلوا النبي ﷺ في أمر الخروج ثم في الغنائم، ولقد أراد القرآن أن يريهم بهذه الحادثة.

ثم يمضي (الزركشي) في معاناة أمثلة كثيرة من القرآن في هذا الاتجاه مع تنوع في العلاقات منها ماله علاقة بالقرائن المقامية وظروف نزول النص وملابسات الأحداث ومنها ما له علاقة بطبيعة السامع بيد أن هذه العلاقات كلها تتضوي تحت مستوى علاقة النظير²

2 مستوى التضاد

وبعد أن يشير (الزركشي) إلى أن التضاد قاعدة معروفة إذ به تتحدد الماهيات حيث يقول كما قيل: " وبضدها تتبين الأشياء " ³ ينتقل إلى " ومن أمثله قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ الآية: 6 فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن الكريم، وأن من شأنه كيت وكيت، وأنه لا يهدي القوم الذين من صفاتهم كيت وكيت، فرجع إلى الحديث عن المؤمنين، فلما أكمله عقب بما هو حديث عن الكفار، فبينهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثبوت على الأول⁴ " وشأن المستويات الأخرى

¹ - المرجع السابق ص 143

² - ينظر المرجع نفسه ص. 144 و 145

³ - المرجع نفسه 145

⁴ - المرجع نفسه 145

فإن التضاد يعقد علاقة محكمة بين وحدتين دلالتين فيبدو النص بهذه العلاقة المتقابلة متسقاً بمقتضى ما سماه (الزركشي) بالجامع الوهمي بالتضاد.

3 مستوى الاستطراد:

وهو المستوى الذي أشار إليه في سياق بحث العلاقة بين فواتح الآيات وخواتمها وأهمية الاستطراد تكمن في أنه يعقد علاقة تماسك بين سابق ولاحقه من الكلام ويكون عنصر المفاجأة فيه واضحاً كما أن مثل هذه العلاقات تحتاج إلى إعمال النظر وهي كثيرة التواتر في النص القرآني يسوق (الزركشي) عينات عدة اخترنا منها هذا المثال " وجعل القاضي أبو بكر في كتاب " إعجاز القرآن " من الاستطراد قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيوْا ظِلُّهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ^(٤٨) النحل: 48 - 49 وقال: " كأن المراد أن يجري بالقول الأول على الإخبار عن أن كل شيء يسجد لله - عز وجل - وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص " ¹

4 مستوى تنشيط السامع

وفي باب ما ليس معطوفاً يورد إشارة مهمة تتمثل في تلك العلاقة التي تربط بين كلامين يكون الانتقال مبرراً بحركة تفعيل ذهن المتلقي كي يسهم في توقع طبيعة الرابط وفي هذه الإشارة تفعيل لدور المتلقي وإشراكه في تصور طبيعة الروابط التي تحكم أجزاء الخطاب من ذلك هذا المثال الرائع " ومنه الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع كقوله تعالى في سورة (ص) بعد ذكر الأنبياء: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴾ ^(٤٩) ص 49، فإن هذا القرآن نوع من الذكر لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل، أراد أن يذكر نوعاً آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها فقال:

¹ - المرجع السابق 146

هذا ذكر فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة، تقول أشير عليك بكذا، ثم تقول بعده: هذا الذي عندي والأمر إليك. وقال ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾^{٤٩}، كما يقول المصنف: هذا باب، ثم يشرع في باب آخر. ولذلك لما فرغ من ذكر أهل الجنة قال ﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ سورة ص: 55 " 1

الاتساق الصوتي من خلال الفاصلة :

بعد نقاش طويل خاضه (الزركشي) في التفريق بين السجع والفاصلة امتد عبر عدة صفحات² يقرر أن الفاصلة القرآنية نسق صوتي مباين للسجع غايته تحقيق التناسب الصوتي³ ثم يبدأ (الزركشي) معانيته بالتأكيد على أن إيقاع الفواصل مطرد في الخطاب الكريم غايته اعتدال نسق الكلام يقول "واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدا، ومعتبر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيرا عظيما"⁴ وبعد أن يورد _ كمدخل للموضوع _ أمثلة من القرآن الكريم يناقش فيها بعض العينات ينتقل إلى ضبط مظاهر الفاصلة القرآنية في مستويات محددة تكون فيها الفاصلة محكومة بظواهر تركيبية مختلفة بما يؤكد تنوع تجلياتها وتتحدد هذه المستويات التي نعرضها كما وردت في مصنف الزركشي

¹ - المرجع السابق 146

² - المرجع نفسه من ص 146 الى ص 156

³ - المرجع نفسه من ص 146 الى ص 156

⁴ - المرجع نفسه ص 156 157

المستوى الأولي

ارتباط الفاصلة بالتكرار من ذلك " قوله تعالى (لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) يوسف 46
 كرر " لعل " مراعاة لفواصل الآي، إذ لو جاء على الأصل لقال: لعلي أرجع إلى الناس فيعلموا
 بحذف النون على الجواب ¹

المستوى الثاني

أما المستوى الثاني فيحدد في اقتران الفاصلة بالحذف من أمثلة ذلك " حذف همزة أو حرف اطرادا
 كقوله تعالى (والليل إذا يسر) الفجر: 4 ²

المستوى الثالث

فيكون من خلال " الجمع بين المجرورات وبذلك يجاب عن سؤال في قوله تعالى (ثم لا تجدوا لكم
 علينا به تبيعا) الإسراء: 69 ، فإنه قد توالى المجرورات بالأحرف الثلاثة ؛ وهي اللام في (لكم)
 والباء في (به) و(على) في (علينا) وكان الأحسن الفصل، وجوابه أن تأخر (تبيعا) وترك
 الفصل أرجح من أن يفصل به بين بعض الروابط، وكذلك الآيات التي تتصل بقوله (ثم لا تجدوا
 لكم علينا به تبيعا) الإسراء 69 ، فإن فواصلها كلها منصوبة منونة، فلم يكن بد من تأخير قوله:
 (تبيعا) لتكون نهاية هذه الآية مناسبة لنهايات ما قبلها حتى تتناسق على صورة واحدة ³

¹ - المرجع السابق ص 157

² - المرجع نفسه الص 158

³ - المرجع نفسه ص 158 و 159

المستوى الرابع

ترتبط الفاصلة فيه بظاهرة التقديم والتأخير، ويسوق الزركشي أمثلة كثيرة مشفوعة بنقاش يستحضر فيه شواهد غيره، ونكتفي بمثالين حيث يقول الزركشي " تأخير ما أصله أن يقدم كقوله تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) طه 67 لأن أصله أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن آخر الفاعل وهو (موسى) لأجل رعاية الفاصلة ¹ ثم يضيف قراءة دلالية للظاهرة فيقول: " قلت: للتأخير حكمة أخرى، وهي أن النفس تتشوق لفاعل (أوجس) فإذا جاء بعد أن آخر وقع بموقع ² ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى " وقوله (ومما رزقناهم ينفقون) البقرة 3 آخر الفعل عن المفعول فيها وقدمه فيما قبلها في قوله (يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) البقرة 3 ليوافق الآي، قاله أبو البقاء وهو أجود من قول (الزمخشري) : قدم المفعول للاختصاص ³

المستوى الخامس:

وهو ما عبر عنه الزركشي بـ "إفراد ما أصله أن يجمع كقوله تعالى إن المتقين في جنات ونهر) القمر 54 قال الفراء " الأصل الأنهار، وإنما وحد لأنه رأس آية، فقابل بالتوحيد رعوس الآي ⁴

المستوى السادس

فهو جمع ما أصله أن يفرد ونسوق مثالا واحد لتدليل: "كقوله تعالى (لا بيع فيه ولا خلال) ص 160 إبراهيم 31 فإن المراد " ولا خلة " بدليل الآية الأخرى، لكن جمعه لأجل مناسبة رعوس الآي ¹

¹ - المرجع السابق ص 158 و 159

² - المرجع نفسه ص 158 و 159

³ - المرجع نفسه ص 159

⁴ - المرجع نفسه ص 159

المستوى السابع

" فهو تنثية ما أصله أن يفرد كقوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ² الرحمن: 46

بيد أن (الزركشي) يسوق نقاشا يبدو فيه الاختلاف بين (ابن قتيبة) و(الفراء) في قراءة هذه الآية حيث " أنكر ذلك (ابن قتيبة) عليه وأغلظ وقال: إنما يجوز في رءوس الآي زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همزة أو حرف، فأما أن يكون الله وعد جنتين فيجعلهما جنة واحدة من أجل رءوس الآي فمعاذ الله، وكيف هذا وهو يصفها بصفات الاثنين، قال (ذواتا أفنان) الرحمن: 48 ثم قال فيها: (فيهما) ، ولو أن قائلًا قال في خزنة ص 161: النار إنهم عشرون وإنما جعلهم الله تسعة عشر لرأس الآية، ما كان هذا القول إلا كقول الفراء ³ ثم يفصل (الزركشي) في هذا النقاش بالانتصار للفراء فيقول " قلت: وكأن الملجئ للفراء إلى ذلك قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) النازعات 40 / 41 وعكس ذلك قوله تعالى(فلا يخرجنكم من الجنة فتشقى) طه 117 على أن هذا قابل للتأويل، فإن الألف واللام للعموم، خصوصاً أنه يرد على الفراء قوله(ذواتا أفنان) الرحمن: 48⁴

المستوى الثامن

فهو " تأنيث ما أصله أن يذكر كقوله تعالى(كلا إنه تذكرة) المدثر: 54 أي تذكير، وإنما عدل إليها للفاصلة ⁵

¹ - المرجع السابق ص 160

² - المرجع نفسه 160

³ - المرجع نفسه 161

⁴ - المرجع نفسه 161

⁵ - المرجع نفسه 161

المستوى التاسع

ما عبر عنه الزركشي بالزيادة مراعاة للتناسب الصوتي " كقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق) الأعلى: 1 - 2 قال في العلق (اقرأ باسم ربك الذي خلق) العلق الآية 1 فزاد في السورة الأولى: (الأعلى) وزاد في الثانية: (خلق) مراعاة للفواصل في السورتين وهي في سبح (الذي خلق فسوى) وفي العلق (خلق الإنسان من علق) ¹

المستوى العاشر

فهو " صرف ما أصله ألا ينصرف كقوله تعالى: قوارير قوارير الإنسان: 15 - 16 صرف الأول لأنه آخر الآية، وآخر الثاني بالألف فحسن جعله منونا ليقرب تنوينه ألفاً، فيتناسب مع بقية الآي كقوله تعالى: (سلاسلا وأغلا لا) الإنسان: 4 فإن (سلاسلا) لما نظم إلى (وأغلا لا وسعيرا) صرف ونون للتناسب وبقي (قوارير) الثاني ؛ فإنه وإن لم يكن آخر الآية جاز صرفه لأنه لما نون (قواريرا) الأول ناسب أن ينون (قواريرا) الثاني ليتناسبا، ولأجل هذا لم ينون (قواريرا) الثاني إلا من ينون (قواريرا) الأول ²

المستوى الحادي عشر

" إمالة ما أصله ألا يمال كإمالة ألف (والضحى والليل إذا سجى) الضحى 1 - 2 ليشارك التلفظ بهما التلفظ بما بعدهم ³

¹ - المرجع السابق ص 161 و 162

² - المرجع نفسه 161 و 162

³ - المرجع نفسه ص 162

المستوى الثاني عشر

عشر وهو العدول عن صيغة الماضي إلى الاستقبال مراعاة للتناسب الصوتي يقول الزركشي

" العدول عن صيغة الماضي إلى الاستقبال كقوله تعالى (فريقا كذبتهم وفريقا تقتلون) البقرة 87

حيث لم يقل وفريقا قتلتم، كما سوى بينهما في سورة الأحزاب فقال: (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)

الأحزاب 26 وذلك لأجل أنها هنا رأس آية "

هذه بعض المستويات التي يوردها (الزركشي) التي تحدد التناسب الصوتي بين أجزاء

الخطاب القرآني الكريم محكمة برعاية الفاصلة القرآنية التي تمثل المظهر الصوتي الذي يضبط

بدوره النص بحيث يتجلى متسقا ومحكما في بنيته الإيقاعية.

هذه إشارات مهمة أوردها (الزركشي) في مصنفه القيم (البرهان في علوم القرآن) أردنا من

خلالها استقراء بنية الاتساق والانسجام بأدوات هذا العلم الفذ مع التأكيد أننا استبعدنا إشارات كثيرة

تعمق الوعي بالظاهرة في المصنف نفسه من ذلك حديثه عن العلاقات بين السور فيما بينها

ضمن المستويات الأفقية والعمودية بمعنى علاقة فاتحة السورة بخاتمة التي تليها وغرض هذه

السورة بغرض تلك وعلاقة السورة باسمها وعلاقة الآية بالحروف التي بنيت عليها، مثلما نشير إلى

الأساليب المختلفة الحذف والتوكيد والأمر .. ودور هذه الأساليب في إنتاج الاتساق

اكتفينا بما أوردها لأن مساحة البحث لا تكفي بالحديث عن كل هذه المنجزات .ولأن البحث لا

يتعلق بالزركشي وحده بل هو مقارنة لعينات من أعلام التراث (والزركشي) واحد من هؤلاء.

ثالثاً: الظاهرة بأدوات الشاطبي

1 محددات اعتبار القرآن كلمة واحدة

وإذا تجاوزنا هذه العلاقات التي أشار إليها (الزركشي) في محاولة للوقوف على مقولات أخرى تقترب خطوات في تحديد مسوغات اعتبار الخطاب الكريم (كلمة واحدة) أي بنية متسقة، وقفنا مع عبقرية (الشاطبي) وهو يدل على أن اعتبار الخطاب الكريم (كلمة واحدة) مرده بالأساس إلى مرجعية تتمثل في أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وليس ذلك إلا للقرآن "فكثير منه لا يفهم معناه حق الفهم، إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى ولأن كل منصوح عليه من أنواع الضروريات مثلاً، مقيد بالحاجيات، فإذا كان كذلك، فبعضه متوقف على بعض في الفهم، فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار"¹ إن هذا الاعتبار الذي يقرأ به (الشاطبي) القرآن الكريم كلمة واحدة، على الرغم أنه يمتد عبر مساحة نصية طويلة لا يستقرى البعد الدلالي فحسب - رغم أهميته - بل يعكس فهماً دقيقاً لبنية القرآن الشكلية المحكمة التي تختزل في الكلمة الواحدة بطاقتها التعبيرية، الإبداعية، المقصدية الإعلامية، التواصلية والجمالية، مثلما يؤسس لقيمة نصية بالغة الأهمية تتمثل في ظاهرة التناص² *

وبالرجوع إلى نص (الشاطبي) نسجل مجموعة من الملاحظات، ستعمق أكثر في مرافقتنا له

هي :

1 : التصور الشمولي لمفهوم النص من خلال تناوله - أي النص - كمادة للدراسة

¹ - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الموافقات في أصول الشريعة، ج 4، تقديم الشيخ

بكر بن عبد الله أبو زيد دار ابن القيم دار بن عفان ط 3 مصر 2003 ص 275

² - تفصيل هذه المقولة في (مبحث التناص ممارسة تراثية) من الفصل الرابع (التناص بين المنجز الغربي والممارسة التراثية) .

بوصفه وحدة دلالية كبرى تتجاوز الجملة بوصفها وحدة دلالية صغرى، وهذا التصور هو ما قامت عليه لسانيات النص في مسارها التاريخي ومع كل إعلامها دون تمييز (فان دايك)، (دي بونجراند)، (مايكل هاليداي) و(حسن رقية)، وهو التصور نفسه الذي رافق الدرس اللغوي عند علماء الأصول في تناولهم للنص القرآني الكريم .

2 : الإدراك الواضح لبنية الاتساق في إطارها العام الذي يتجاوز الجملة إلى النص من خلال تحديد العلاقات الممكنة التي تربط النص القرآني المعبر عنها إجمالاً ب(يفسر بعضه بعضاً) مع التأكيد على أن ذلك ليس إلا في القرآن بمعنى أن هذا التوصيف جديد مبتكر وتلك علامة فارقة في الخطاب التراثي الأصولي

3 : ويبدو ربط (الشاطبي) النص بقاعدة (و لأن كل منصوح عليه من أنواع الضروريات مثلاً، مقيد بالحاجيات) إدراكاً آخر لمعيار المقصدية التي تعد شرطاً أساسياً تقترحه لسانيات النص الحديثة أساساً ملزماً لتحقيق النصية ضمن معايير (دي بونجراند) المعروفة.

4 : تناول النص القرآني بشكله العام كوحدة موضوعية موحدة، وكنسق دلالي عام دون تجزيئه إلى موضوعات ومع ما قد تبدو من انفصال بين هذه الموضوعات داخل النص ظاهراً إلا أن مبدأ التعالق بين هذه الموضوعات على أساس علاقات محددة ومتنوعة من ذلك مثلاً علاقات السببية، الجزء بالكل، المجلد بالمفصل... فإن هذا التعالق يجذب تلك الموضوعات بعضها إلى بعض فتكرس بذلك خاصية الاتساق الدلالي مثلما تجسد ظاهرة التناص بدقة ووضوح وهو ما سيتضح لاحقاً

5 : الوعي بظاهرة التناص كممارسة نصية وبفاعلية هذه الظاهرة في تحقيق الانسجام النصي

في الخطاب القرآني الكريم، مع التنبية على الفارق بين مفهومي التناص في الممارسة التراثية والمنجز الغربي

مفردات في تحديد التناص والاتساق في مقترح الشاطبي

وفي مستوى آخر ينبني اعتبار الخطاب الكريم كلمة واحدة - لدى (الشاطبي) - على تأصيل علمي دقيق هو أن "المدني في السورة ينبغي أن يكون منزلاً على المكي وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه على بعض، حسب ترتيبه في الترتيل وإلا لم يصح والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على مقدمه - دل على ذلك الاستقراء - وذلك إنما يكون ببيان مجمل أو تخصيص عموم أو تقييد مطلق أو تفصيل ما لم يفصل أو تكميل ما لم يظهر تكميله"¹ وحين نتأمل هذا النص الذي يورده (الشاطبي) نقف على قدرة عجيبة في توصيف المقولات التي تنتج بنية النص المتسقة في تنوعها ودقتها وإمامها، أول هذه الملامح هو المعطى السياقي الذي يحكم الصلة بين خطابين مختلفين في البيئة التي رافقت وجودهما، فالعلاقة بين الخطاب المكي والمدني، وإن بدا أنهما يختلفان دلالة لاختلاف مكان النزول، إلا أنهما يدلان على التماسك النصي لأن أحدهما يستحضر الآخر بالضرورة، إذ قد لا تتضح الدلالة إلا بأن ينبني المكي على المدني أو العكس، وعملية استحضر النصوص داخل النص القرآني هي أوضح تجليات التناص القرآني الذي يعد الملمح الثاني، هذا التناص² الذي يعبر عن تميزه من خلال تنوع آلياته، القائمة على العلاقات المتباينة والمتنوعة المحددة ب: (وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق،

¹ - المرجع السابق ج 4 ص 256

² - في تصور الباحث يأخذ التناص حين يُرصد في القرآن الكريم مفهوماً مختلفاً عنه في المدونات البشرية، تتضح معالمه في مبحث التناص ممارسة تراثية من الفصل الرابع من هذا البحث

أو تفصيل ما لم يفصل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله) وكلها علاقات تجعل من الخطاب الكريم فضاء رحبا يتلاقى فيه كم كبير من النصوص، في اتساق وانسجام وإن اختلفت اتجاهاتها المحكومة بلحظة تنزل الخطاب، وهذه الآليات نفسها _ فضلا عما تحققه من أنواع التناص ومستوياته، _ ، فهي تضيف **الملح الثالث** وهو مقولة مهمة في انسجام النص متمثلة في ظروف وملابسات تنزل النص القرآني، وهي من معايير الانسجام كشرط من شروط النصية بمنظور المنجز الغربي الحديث

وقد تتنوع قضايا الخطاب القرآني في السورة الواحدة، غير أن هذا التنوع لا يؤدي إلى قطيعة بين مكونات النص بل يظل الترابط بين أجزاء الخطاب حاضرا "غير أن الكلام المنظور فيه، تارة يكون واحدا بكل اعتبار، بمعنى: أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت وعليه أكثر سور المفصل وتارة يكون متعددًا في الاعتبار، بمعنى: أنه أنزل في قضايا متعددة، كسورة البقرة وآل عمران والنساء وقرأ باسم ربك وأشباهها ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة أم نزلت شيئا بعد شيء"¹ وعلى هذا الأساس يشترط (الشاطبي) في فهم السورة فهما جيدا، أن تؤخذ وحدة كاملة، دون تقطيعها أجزاء، لأن ذلك من شأنه أن يغييب الدلالة، ويخرق نظام الاتساق الذي يحتكم في مجمله لمقصد واحد وإن تعددت القضايا "وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات، فاعتبار جهة النظم (التعاليق التركيبية والدلالي) مثلا في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالإقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الإقتصار على بعض الآية في استقادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها"² وتتأكد القصدية كمعيار من معايير النصية بمنظور (دي بونجراند) وغيره من الدارسين الغربيين في

¹ - الشاطبي الموافقات ص 267

² - المرجع نفسه ص 268

الشاهد السابق الذي أشار إليه (الشاطبي) بدقة من خلال اشتراطات النظر في أول الكلام وآخره مع حضور القضية الواحدة التي توجه دلالة النص القرآني طالت أم قصرت

عينات في سياق التدليل

وفي سياق التدليل على المنطلقات النظرية يورد (الشاطبي) أمثلة كثيرة من القرآن تترجم فهمه لبنية التماسك النصي وأشكال الترابط بين أجزاء الخطاب القرآني بفعل المناسبة ومساق الكلام وهو إذ يرصد هذه العلاقات بدقة وصبر وأناة يؤكد في أكثر من موضع على أن النص القرآني كلمة واحدة رغم ما يبدو من تنوع في الموضوعات والمضامين وللبرهنة على هذا الفهم يتتبع بدقة علاقات الترابط التي نقف على بعضها من خلال هذه الأمثلة الموجزة للتدليل: /

يقول في سورة البقرة: "فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم ومنها ما هو المقصود في الإنزال"¹

ثم يفصل بأمثلة دالة على ما تقدم يتحرى فيها المعاينة الدقيقة فيقول

"فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ مَلَكُمُ تَتَّقُونَ﴾

إلى قوله تعالى كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ البقرة: 187 183 كلام

واحد وإن نزل في أوقات شتى، وحاصله بيان الصيام وأحكامه، وكيفية آدائه، وقضائه، وسائر ما

يتعلق به من الجلائل التي لا بد منها ولا ينبغي إلا عليها ثم جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا

أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ ﴿١٨٨﴾ البقرة: 188 كلاما آخر بين أحكاما آخر وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ

¹ - المرجع السابق ص 268

عَنِ الْأَهْلَةِ ^ط قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ^{١٨٩} البقرة: 189 وانتهى الكلام على قول طائفة،
وعند أخرى أن قوله وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا البقرة 189 من تمام مسألة
الأهله، وإن انجر معه شيء آخر، كما انجر على القولين معا تذكير وتقديم لأحكام الحج في قوله
قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ " 1

ثم ينتقل في سياق التمثيل لما قد تقرر نظريا إلى سورة المؤمنين التي تحتكم لبنية دلالية
كبرى وإن ترتب عنها بعضا من الدلالات التي لا تخرج عن البنية الكبرى يقول " وسورة
المؤمنين نازلة في قضية واحدة، وإن اشتملت على معان كثيرة، فإنها من المكيات وغالب المكي
أنه مقرر لثلاثة معان، أصلها معنى واحد وهو: الدعاء إلى عبادة الله تعالى.. أحدها: تقرير
الوحدانية لله الواحد الحق، غير أنه يأتي على وجوه ؛ كنفي الشريك بإطلاق، أو نفيه بقيد ما ادعاه
الكفار في وقائع مختلفة، من كونه مقربا إلى الله زلفى، أو كونه ولدا أو غير ذلك من أنواع الدعاوى
الفاسدة والثاني: تقرير النبوة للنبي محمد، وأنه رسول الله إليهم جميعا، صادق فيما جاء به من عند الله
؛ إلا أنه وارد على وجوه أيضا ؛ كإثبات كونه رسولا حقا، ونفي ما ادعوه عليه من أنه كاذب، أو
ساحر، أو مجنون، أو يعلمه بشر، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم والثالث: إثبات أمر البعث
والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة، والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن
الكافر إنكاره به ؛ فرد بكل وجه يلزم الحجة، ويبكت الخصم، ويوضح الأمر " 2 ثم يعمم هذا المدرك
على سائر النص المكي الذي يتميز بكونه خطابا يدعو إلى التوحيد بمقتضيات نبذ الشرك وتقرير
النبوة وربط المؤمن بالإيمان بالبعث واليوم الآخر، يقول (الشاطبي): "فهذه المعاني الثلاثة هي التي

¹ - المرجع السابق ص 270

² - المرجع نفسه ص 270

اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر، وما ظهر ببادئ الرأي خروجه عنها ؛ فراجع إليها في محصول الأمر، ويتبع ذلك الترغيب والترهيب، والأمثال والقصص، وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك " ¹

ثم يؤكد مرة ثانية على ثبات تلك المقاصد في سورة المؤمنين إجمالاً، رغم نسقها العام هو حديث عن إنكار الكفار النبوة وهو المدخل الطبيعي للمعاني القارة في السورة " فإذا تقرر هذا وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين مثلاً وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه ؛ إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التي هي المدخل للمعنيين الباقين وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن كانت ؛ فجاءت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها، وبأي وجه تكون على أكمل وجوها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى " ²

وفي معانية مستوى قراءة (الشاطبي) لمفتتح السورة يقول " فافتتحت السورة بثلاث جمل إحداها وهي الآكد في المقام بيان الأوصاف المكتسبة للعبد التي إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه، وذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(١) المؤمنين 1 إلى قوله قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(١١) المؤمنين: 11 والثانية: بيان أصل التكوين للإنسان وتطويره الذي حصل له جارياً على مجاري الاعتبار والاختيار بحيث لا يجد الطاعن إلى الطعن على من

¹ - المرجع السابق الصفحة نفسها

² - المرجع نفسه ص 271

هذا حاله سبيلا والثالثة: بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به في التربية والرفق، والإعانة على إقامة الحياة، وأن ذلك له بتسخير السماوات والأرض وما بينهما، وكفى بهذا تشريفا وتكريما¹

وفي مستوى تتسق فيه هذه المقاصد مع ما ورد في هذه السورة من قصص يدل (الشاطبي) بهذه الشواهد" ثم ذكرت قصص من تقدم مع أنبيائهم واستهزائهم بهم بأمور منها كونهم من البشر

ففي قصة نوح مع قومه قولهم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ المؤمنون ٢٤

24، ثم أجمل ذكر قوم آخرين أرسل فيهم رسولا منهم ؛ أي: من البشر لا من الملائكة ؛ فقالوا

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ المؤمنون: 33،

وَلَيْنَ أَطْعَمَهُ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ المؤمنون: 34، إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَىٰ

اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ المؤمنون: 38 أي: هو من البشر ثم قال تعالى: ﴿

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَّجَاءً أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذِبُوهُ ۖ﴾ المؤمنون: 44 فقله: رسولها مشيرا إلى

أن المراد رسولها الذي تعرفه منها: ثم ذكر موسى وهارون ورد فرعون وملئه بقولهم ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ

بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ المؤمنون: 47 إلخ هذا كله حكاية عن الكفار الذين

غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية، تسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام...²

ثم يواصل (الشاطبي) ذكر القصص بتفصيل دقيق يتوخى فيه الربط بين مضامين السورة حسبما

اقتضاه الحال والوصف _ كما يقول _ لينتهي بتقرير أن ما ورد من القصص في هذا الموضع لا

يخرج عن مقصود السورة وهو محكوم في هذا الموضع وفي غيره من المواضع بالمساق

¹ - المرجع السابق ص 271

² - المرجع نفسه ص 272

واختلاف الأحوال وعليه لا يعد تواتر القصص في كذا موضع مجرد تكرار بل كل ذكر في أي موضع محكوم بسياق السورة واتساقها يقول (الشاطبي) "وبالجملة ؛ فحيث ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ؛ كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وهارون ؛ فإنما ذلك تسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام وتثبيت لفؤاده لما كان يلقي من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال، والجميع حق واقع لا إشكال في صحته، وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذي في النظر في القرآن لمن أراد فهم القرآن"¹ واختلاف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال _ كما يقرر (الشاطبي)_ بحيث يكون الرابط بين قصص هؤلاء الأنبياء يشاكل ما وقع للنبي ﷺ فيكون استدعاء هذه القصص بمثابة التناص حين تذكر القصة على النحو الذي يقع للنبي ﷺ مثله من الأحداث والمحن وليس خفياً أن هذا المسلك في الفعل القرآني بقدر ما يثبت قلب النبي ﷺ بقدر ما يحقق على المستوى النصي ذلك الترابط المحكم بين مستويات الخطاب بفعل ما بين هذه المستويات من تعالق .

بالعودة إلى مفاهيم (الشاطبي) التي تحدد تماسك النص القرآني مثلما تركز علاقات التناص داخل النص القرآني يورد مجموعة من العلاقات التي يتفق فيها مع الكثير من علماء الأصول، وهي علاقات متنوعة تدل على أن النص القرآني المحكم تتنوع آليات إحكامه بتنوع السياقات التي ينتزل فيها وأنه يحمل مجموعة من النصوص تتلاقى فيما بينها من خلال أشكال متنوعة من التناص من ذلك (المتقدم/ بالمتأخر) (تبيين/ المجلد) (تخصيص/ العموم) (تقييد/ المطلق) (تفصيل/ ما لم يفصل) (تكميل/ ما لم يكمل) (

¹ - المرجع السابق ص 272

وبهذا الوصف، لا يمكن فهم الآية -فضلاً على السورة- بعيداً عن وجهة الخطاب الدلالية الكبرى، وبالوصف نفسه لا يمكن -إطلاقاً- تصور خروج أبسط وحدة لغوية، عن ذلك النسق العام الذي يوجه السورة من القرآن في مستوى ومجموع السور في مستوى ثان والقرآن الكريم كله في مستوى ثالث حتى "إن الحرف من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة"¹

وحاصل ذلك أن الخطاب الكريم، وإن تنوعت مضامينه الجزئية، وتعددت قضاياها، فإن هذه المضامين و تلك القضايا، تعود في الأخير إلى أصل ثابت ومرجعية مهيمنة تعد جامعاً لكل الدلالات وبيان هذا الجامع الذي ينطلق منه الخطاب الكريم، في انسجام وتماسك كالبناء الواحد "أو كالكلمة الواحدة" هو أنك - باعتبار ثان - يفصل (الشاطبي) "إذا رأيت في المدنيات أصلاً فتأملته تجده جزئياً بالنسبة إلى ما هو أعم منه أو تكميلاً لأصل كلي و بيان ذلك أن الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة: وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال."² وأن هذه الأصول الخمس هي التي تجمع - غالباً - دلالات النص الكريم وتوجهها بمقتضى العلاقات السابقة التي أشار إليها (الشاطبي) وغيرها من علماء الأصول فيبدو النص الكريم جراً الفعل كالكلمة الواحدة اتساقاً وانسجاماً .

أدوات الشاطبي ممارسة تطبيقية عند الألوسي

وفي معاينة تطبيقية سريعة وموجزة لبعض مقولات الشاطبي يمدنا (الألوسي) بوصفه مفسراً للقرآن برصد دقيق ومحكم ، يمتد عبر المساحة النصية بين سورتي البقرة وآل عمران ، حيث يحدد في مقدمة تفسير آل عمران، شبكة من العلاقات الكثيرة - سبق معاينتها نظرياً مع الشاطبي -

¹ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، دارالكتاب المغرب، ط 3 بيروت لبنان ص 211

² - الموافقات الشاطبي ج3 ص 236

والتي تحكم هذه السورة بما قبلها أي البقرة، بدقة متناهية، وإحكام مذهل، بحيث يحضر الاتساق النصي، معتمدا آلية التناسب ببعض مستوياته، إجراءً يشد أجزاء الخطاب الكريم. لتأمل هذا النص بروية، ونرصد قدرة المعاينة، التي تحفزها قدرة النص، مع ملاحظة تلك المقولات التي فوق الخط: (..ووجه مناسبتها لتلك السورة، أن كثيراً من مجملاتها تشرح بما في هذه السورة، و أن سورة البقرة، بمنزلة إقامة الحجة، و هذه بمنزلة إزالة الشبهة ... و ذكر هناك مبدأ خلق آدم، و ذكر هنا مبدأ خلق أولاده، و ألطف من ذلك أنه افتتح البقرة بقصة آدم و خلقه من تراب و لا أم، و ذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب و هو عيسى، و لذلك ضرب له المثل بآدم، واختصت البقرة بآدم لأنها أول السورة، و هو أول في الوجود و سابق، و لأنها الأصل، وهذه كالفرع و التتمة لها، فاختصت بالأغرب، ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصة آدم، لتثبت في أذهانهم فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها، و لأن قصة عيسى قيس على قصة آدم، والمقيس عليه لا بد و أن يكون معلوماً لتتم الحجة بالقياس، فكانت قصة آدم - والسورة التي فيها - جديرة بالتقديم... وقد ذكر بعض المحققين من وجوه التلازم بين السورتين، أنه قال في البقرة في صفة النار (أعدت للكافرين) مع افتتاحها بذكر المتقين، و الكافرين معاً، و قال في آخر هذه (و جنة عرضها السموات و الأرض أعدت للمتقين) فكان السورتين بمنزلة سورة واحدة، و مما يقوي المناسبة والتلازم بينهما، أن خاتمة هذه مناسبة لفاتحة تلك، لأن الأولى افتتحت بذكر المتقين، وأنهم هم المفلحون، و ختمت هذه بقوله تعالى: (و اتقوا الله لعلكم تفلحون) واختتمت الأولى بقوله سبحانه و تعالى: (الذين يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك) و ختمت آل عمران بقوله تعالى: (و إن من أهل الكتاب لمن

يؤمن بالله وما أنزل إليكم و ما أنزل إليهم)¹ ويبدو شاهد (الألوسي) مستثمرا تلك العلاقات التي قررها (الشاطبي) وغيره في الوصف النظري (كعلاقات المجمل بالمفصل والضدين والنظرين والتلازم والتقديم والتأخير والسابق في الوجود والأصل بالفرع، والجزء والكل والمفتتح والمختتم و... وكلها علاقات تحقق بنية الاتساق على أساس مبدأ التناسب بتنوع آلياته ومستوياته. كما توضح هذه المادة التفسيرية للألوسي شكلا من الأشكال الاشتغال على النص ببنيتها الشاملة مع الوعي بتلك العلاقات التي تتجاوز الجملة في حدودها الضيقة

صدى التراث في وعي المحدثين

و كل فهم للخطاب الكريم - بوصفه " كلمة واحدة " بما تحمله هذه الكلمة من إشارات دالة على بنية اتساق القرآن الكريم - عند محدثينا، يتأسس على تأصيل القدامى، إننا نقرأ نصاً "لأستاذ (محمد مفتاح) مستوعبا نص (الشاطبي) ومتمثلا لمضامينه وأبعاده، إذ يقول: " صار المتن القرآني الذي بلغ في سنوات طويلة، و سياقات مختلفة، وصياغات متنوعة، لأناس متعددي الأهليات والأهواء بمثابة كلمة واحدة، لها معنى أصلي، أو معنى و معاني تابعة، تعزز المعنى الأصلي ولا تلغيه"²، و في السياق نفسه، نقرأ لمؤلف (النبأ العظيم) (عبد الله الدراز) رحمه الله تعالى نصا دقيقا يرصد البؤرة التي تنجذب إليها السورة من القرآن في انتقالها الدلالي المترابط، والمتلاحم تصنع فيه البنية المتماسكة اللحمة التي تحكم أجزاء الخطاب، فتعد جراء هذا الانجذاب " بنية متماسكة، قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس و أصول وأقيم على كل أصل فيها شعب و

¹ - أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، ج

3. إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ص 73

² - محمد مفتاح ، دينامية النص - تنظير و إنجاز - المركز الثقافي العربي ط 2 - الدار البيضاء المغرب ص

فصول و امتد من كل شعبة فيها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها، كما تنتقل بين حجرات و أفنية، في بنية واحد و قد وضع رسمه مرة واحدة ¹ و تتعمق هذه البنية النسقية أكثر من خلال مثال تكون فيه اللحمة أكثر دلالة على التماسك والتضام يقول: "ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنية؟ لا، بل إنها لتلتحم كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان: فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملة على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية"² وفي إطار هذا التوصيف النظري الذي يأخذ صورتين إحداها معمارية، وأخرى عضوية _ وهو توصيف مستلهم من التراث بالطبع _ يحدد الكاتب هذه البنية الشكلية والموضوعية تحديداً هرمياً معمارياً، ويبدو مع ذلك غير مكترث بتلك العلاقات الجزئية، التي تربط الكلمات بعضه بعض طالما اتضح النظام العام الذي يحكم السورة من القرآن الكريم "واعلم أنه ليس من ههنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً، نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة في موقعها من تلك السلسلة العظمى"³ وكان مؤلف (النبا العظيم) حين يؤكد مرة ثانية على هذا النحو في دراسة القرآن إنما يعيد تشكيل المقولات السابقة التي تداولها الدرس التراثي

¹ - عبد الله دراز، النبا العظيم مطبعة السعادة مصر. 1379 هـ 1960 م ص 151

² - المرجع نفسه 151

³ - المرجع نفسه ص 158-159

من أن النظم القرآني إنما يتحدد بقدر الوعي بنسق الكلمة الواحدة، حيث يقول: "بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه، نحب أن نقول كلمة ساق الحديث إليها، وهي: أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني، تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء منه - وهي تلك الصلات المبنوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها، بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها، على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل عن بيئة"¹ ويبدو نعيه على أولئك الذين يكتفون بتتبع علاقات قريبة بين قضايا متجاوزة أو جمل متعاقبة تكريساً لما قرره (الشاطبي) وغيره من علماء الأصول في أن النسق القرآني يتجاوز تلك العلائق القريبة إلى علائق تمتد بين أجزاء طوال عبر مسافة نصية ممتدة قد تتخطى مجموعة من السور، وإنما ترتبط فيما بينها بمقولات دقيقة ومحكمة سبق الإشارة إليها منها مقولات (المتقدم/ بالتأخر) (تبيين/ المجل) (تخصيص/ العموم) (تقييد/ المطلق) (تفصيل/ ما/ لم يفصل) (تكميل/ ما لم يكمل) وغير ذلك من العلاقات كعلاقة الكل بالجزء والمكي بالمدني والناسخ بالمنسوخ... يقول "وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات، حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاوزة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها: فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد ؟. وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم."²

وقد نقف على كم كبير، من الإشارات الدالة على حضور تراث علماء الأصول بمنجزاتهم النصية المحددة سلفاً في خطابات المحدثين واستقصاء هذا الملمح لا يتطلب كثير عناء، فكثيرة

¹ - المرجع السابق ص 158-159

² - المرجع نفسه ص 158-159

هي الطرائق والمناهج التي قاربت النص الكريم عند المحدثين العرب استلهمت مرجعياتها من تأصيل القدامى ولعل مدارس التحليل البياني والمقاربات السياقية المعروفة لدى الكثير من الكتاب المحدثين للنص القرآني¹ إن هي إلا صدى لذلك التأصيل الفذ الذي وضع معالمه القدامى، تلك المعالم التي ما تزال حاضرة فينا، تأخذ ألباب العارفين بقيمة ذلك التراث الثري، وهم يحاولون بما تتجزه قرائحهم من دراسات معمقة تشهد بها رفوف المكتبات الجامعية أن يستثمروا أقصى ما يمكن أن يبوح به ذلك الفكر المتألق المتميز.

¹ - في هذا السياق يمكن معاينات كتابات كثيرة خاصة تلك التي تناولت النص القرآني بالتحليل البياني أهمها مؤلفات أمين الخولي عائشة بنت الشاطي و الأستاذ فاضل السامرائي وغيرهم.

المبحث الثاني: التناسب ممارسة إجرائية بأدوات الإمام البقاعي

(قراءة في مدونته التفسيرية (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)

مقدمة

في مشروع إجرائي على النص القرآني الكريم يحاول (إبراهيم البقاعي)¹ أن يضع مفردات ظاهرة التناسب القرآني موضع التطبيق من خلال مدونته التفسيرية الموسومة بـ: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ولا يمكن أن نتجاوز هذا المشروع القرآني الذي يعكس فهماً ناضجاً، وتصوراً مكتملاً لفاعلية التناسب في تحقيق التماسك النصي ومن ثمة تأسيس الأجوبة التي تبرر الكثير من العلاقات التي تحكم أجزاء النص الكريم فيما بينها، وهو مشروع جريء في تفسير القرآن الكريم يقترحه صاحبه وقد وعى إمكانية اعتماد آلية التناسب إطار منهجيا ليس في تفسير النص الكريم فحسب مثلاً فعل بعض المفسرين بل في إدراك مستويات تماسك النص وتلاحمه باعتماد هذا الإجراء ولذلك دأب (البقاعي) في تفسيره هذا على رصد العلاقات المحكمة التي تشد الخطاب الكريم بعضه إلى بعض تأسيساً على أشكال التناسب بما يكشف مقولات الربط بين أجزاء الخطاب بكل مستوياته التركيبية، المعجمية، الدلالية، الصوتية والتداولية، ووحداته الصغرى والكبرى، ومع أن (البقاعي) خاض هذه المغامرة بمسالكها الوعرة إلا أنه كان على وعي بصعوبة المهمة فما هو يصرح للقارئ " فلا تظنن أيها الناظر لكتابي أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفع لسورها فرب آية أقمت في تأملها شهوراً، ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئاً من

¹ هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط بن علي بن أبي بكر البقاعي الشافعي ولد سنة 1406 م في لبنان في قرية البقاع الغربي وهو عالم ومحدث ومفسر وله مصنفات كثيرة في عديد العلوم الشرعية واللغوية توفي بدمشق 1470 ودفن بضواحيها

الآيات قبل أن ينظر ما قلته ثم لينظره يظهر له مقدار ما تعبت وما حصل لي من قبل الله تعالى ومن العون¹ والحق ما قال، فليس من السهل إدراك هذه العلاقات بالنظر السطحي بل إن هذه الخفايا الرائعة تحتاج إلى رؤية عميقة، شديدة الاهتمام بفهم أسرار المعجزة القرآنية ولعل (البقاعي) قد أوتي ذلك العمق الذي مكنه من بناء هذا المشروع التفسيري التناسبي

روافد مشروع البقاعي، محفزاته ومحدداته

ورغم تأكيدنا على قيمة هذا المنجز النصي المكتمل إلا أنه من المؤكد أيضا أن (البقاعي) قد استفاد بشكل واضح من منجزات سابقيه واستثمرها بقدرة مفسر في بناء مشروع جديد في قراءة النص القرآني يعتمد منحى منهجيا دقيقا وإطار معرفيا يستثمر حقول معرفية عدة أهمها البلاغة، النحو والصرف، علم المعجم، القراءات القرآنية، التاريخ، علوم القرآن، والإعجاز، وأنه حين انطلق في مشروعه هذا فيوحي من تأثير أستاذه (أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي) (الجزائري)² حيث ينسب إليه نصا يعد منظومة نظرية لتوجهه هذا، إنه يقرر في مقدمة تفسير سورة الفاتحة على لسان شيخه أن: "الأمر الكلّي المغيّد لعرفانٍ مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تتنظر الغرض الذي سيقّت له السورة وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما ستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلّي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله تعالى وجه النظم مفصلا بين كلّ آية وآية في كلّ سورة

¹ البقاعي نظم الدرر ج 1 ص 14

² أغلب المصنفات تشير إلى العلامة أبي الفضل المشدالي أستاذ البقاعي على أنه مغربي والحقيقة هو أنه عالم جزائري وتحديدا من مدينة بجاية

وسورة، والله الهادي" ¹ وبالوقوف على استقراء النص المنسوب إلى (المشدالي) شيخ (البقاعي)

نقف على مقولات هامة في اعتماد التناسب آلية لاتساق النص يمكن أن نجملها في ما يلي :

1 بناء المقاربة التفسيرية على الغرض العام وهو بمفهوم الدرس النصي الحديث البنية

الكلية للنص تلك التي تحدد وتهمين على كل وحدات النص ومكوناته، وهو التصور

نفسه الذي وجدناه عند (الزركشي) و(الشاطبي)

2 مواقع المقدمات التي قد تكون الفواتح والخواتم في السورة وقد تكون الوحدات الصغرى

على مستوى السورة والآيات

3 معاينة المسافة الدلالية بين هذه المقدمات والغرض العام ومدى توافقها واتساقها

4 معاينة مساق الكلام داخل النص ومدى توافقه مع أفق المتلقي أي اسشراف وعي هذا

المتلقي إلى أي حد يكون قادرا على فهم النص بما يملكه من مخزون يربطه بالنص

نفسه بالاعتماد على القرائن المقامية من أسباب النزول مثلا ومن ثقافة المتلقي وإمامه

بالحد الأدنى الذي يمكنه من فهم النص القرآني الكريم بما يعني أيضا اشتراك المتلقي

مع المفسر في بعض من الإجراءات ،وتلك أهم محددات المقاربة التداولية

5 محددات التناسب بكل مكوناته (الاتساق) وكذا علاقاته هي أوضاع ومقولات ماثلة

بين الآيات فيما بينها وبين السور فيما بينها .

مسارات الاتساق النصي باعتماد التناسب بمنظور البقاعي

وحيث ننتبع مسار التناسب بين أجزاء النص القرآني عند (البقاعي) ندرك دقة المعاينة وإمامها

ذلك أن منجز البقاعي تناول كل مستويات الربط الممكنة بين مكونات الخطاب، وهي كثيرة جدا

¹ نظم الدرر الجزء 1 ص 17 18

بحيث يصعب أن ندلل عليها كلها في هذا المبحث وإن كانت الإشارة إلى بعضها ممكنة، وهي مستويات عدة منها:

1/ ما كان على مستوى الآيات وقد تعددت أشكاله بحيث تتجاوز العشرة من ذلك مثلا: التناسب بين الآية وما قبلها مباشرة 2 التناسب بين الآية وما بعده مباشرة 3 التناسب بين الآية وأول السورة 4 التناسب بين بداية الآية ونهايتها 5 التناسب بين بداية الآية وخاتمة الآية التي قبلها. وغير ذلك من الأشكال

2/ أما ما كان بين السور فيما بينها فتتعدد أشكاله بحيث تتجاوز الخمسة عشر شكلا من ذلك مثلا: التناسب بين أول السورة وآخرها 2 التناسب بين أول السورة وآخر ما قبلها 3 التناسب بين أول السورة وأول ما بعدها 4 التناسب بين مجموع السور في الجزء الواحد وأشكال أخرى....

3 مستويات الربط بعلاقات ثنائية متشاكلة ومتباينة: من ذلك العلاقات التي تربط بين الآيات فيما بينها والسور فيما بينها ك: السبب بالنتيجة/المجمل بالمفصل/المطلق بالمقيد/السؤال بالجواب/والعلة العلة بالمعلل/ الشرط بجوابه/ وو....

4/ أما مستويات الربط بالظواهر التركيبية والسياقية فهي كثيرة من ذلك علاقات الربط على أساس: التقديم والتأخير / الحذف/ التكرار / .

و تمتد القراءة إلى المعاهد والأجزاء فيما بينها، مع التنبيه إلى الإشارات الهامة التي يوردها (البقاعي) في سياقات كثيرة إلى القصص والقضايا اللغوية والبلاغية و ما يرتبط بالقراءات....

وبهذا الوصف يدرك القارئ للمدونة التفسيرية التي أنجزها البقاعي أن منطلقها ومرجعيتها أساسا هي تتبع مستويات التعالق والارتباط بين مفردات النص القرآني ألفاظا، تراكيبا ونصوصا وأنساقا ضمن ظاهرة التناسب بكل مقولاته ومحدداته وبالوصف نفسه لا يمكن أن نورد كل المستويات

والأشكال لأن هذا الجهد يعني إعادة تشكيل مدونة (البقاعي) بصورة واصفة، و نكتفي بأمثلة دالة على بعض هذه المستويات

قراءة في المفاتيح

في القراءة الدلالية لعنوان المدونة التفسيرية (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)

وفي قراءة دلالية لعنوان التفسير ندرك المنطق الذي نحاه (البقاعي) حيث اختزل الفعل القرآني كله في مفردتي النظم والتناسب تأكيدا على أن ما يقوم به المفسر المدرك لأسرار القرآن البيانية والجمالية إنما هو استقراء لتلك العلاقات التي تربط آي القرآن وسوره بعضها ببعض ولذلك نجده يحتج بأقوال غيره في سياق البرهنة على أثر النظم والترتيب في تحقيق فعل الإعجاز حين يورد (قول الرازي) "ومن تأمل في لطائف هذه السورة وبدائع ترتيبها علم أن القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا أنه معجز بأسلوبه أرادوا ذلك " ¹، وفي مستوى آخر يقرر صاحب نظم الدرر ضرورة احتكام المفسر لهذا العلم العظيم إذ يدفعه إلى فهم علل ترتيب الخطاب بكيفية ما: "علم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه " ² بل إن بلاغة القرآن إن هي إلا تتبع هذا المنحى بما يفضي إلى إدراك العلاقات السياقية التي توجه دلالة الخطاب الكريم، يقول "وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير، نسبة علم البيان من النحو " ³

¹ البقاعي السابق ج 1 ص 9

² المرجع نفسه ج 1 ص 6

³ المرجع نفسه ج 1 ص 6.. 7

محور التركيب والترتيب (السانيان الجملة ولسانيات النص)

في أكثر من موضع في مدونته التفسيرية يُلح (البقاعي) على "أن للإعجاز طريقين: أحدهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب والأول أقرب تناولاً، وأسهل ذوقاً " ¹ وبهذا التوصيف يقترح محورين أساسيين هما محور التركيب (الجملة)، ومحور الترتيب (النص) يقول (البقاعي): " إنَّ ترتيب السور في السياق الترتيلي الذي هو بين دفتي المصحف الذي عليه الأمة جمعاء إنما هو مظهر من مظاهر إعجازه البياني، وأنَّ تناسُّبه المعجز ليس بالمحصور في تناسب نظمه التركيبي الماثل في بناء الجملة، بل هو أيضاً متحقق على كماله في نظمه الترتيبي الماثل في علاقات الجمل بعضها ببعض في بناء المعقد، وعلاقات المعاهد بعضها ببعض في بناء السورة، وعلاقات السور بعضها ببعض في بناء البيان القرآني العظيم كلّهُ مفتتحاً بسورة الفاتحة ومختتماً بسورة الناس " ²

وتبدو الفكرة غاية في الدقة والإحكام حين تضعنا أمام توجه قرآني دائري يبدأ من حيث ينتهي مشكلاً بذلك صورة رائعة لوحدة الكلمة القرآنية، ومما يدل على أن القرآن كل لا يتجزأ، وهو وحدة نسقية متسقة ومحكمة أنه لا وقف فيه تام منقطع انقطاعاً تاماً عما قبله وبعده، فلا يستغنى بجزء الآية عن كلها، يقول الإمام (البقاعي): " وبه أيضاً يتضح أنه لا وقف تام في كتاب الله، ولا على آخر سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ³ چ الناس: 1 بل هي متصلة مع كونها آخر القرآن بالفاتحة التي هي أوله كاتصالها بما قبلها بل أشد " ³ وتعكس البنية الدائرية التي يتجلى فيها الخطاب القرآني أهم محدد لاتساق نصه حيث تتداخل أجزاء النص فيما بينها في لحمة واحدة يغيب فيها

¹ المرجع السابق ص 11

² المرجع نفسه ج 4 ص 199

³ المرجع نفسه ج 1 ص 9

البدء والمنتهى وهو تصور ذكي يورده (البقاعي) محتجا بها على قناعته المطلق بوظيفة التناسب في تحقيق اتساق النص الكريم

وبالرجوع إلى هذا التناسب الترتيبي يبدو (البقاعي) مؤمنا حد اليقين أن هذا الترتيب هو المعول عليه في فهم أسرار التماسك والإحكام يقول بنبرة المعجب بهذا النسق " ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرصف عالية الأمر عظيمة القدر مباحدة لمعاني الكلام على أنها منها أخذت فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله و غطاه وجلاه وبينه غاية البيان وأخفاه "

1

ومن المهم أن نشير إلى فكرة بالغة الأهمية في تصور (البقاعي) ترتبط بالممارسة النصية، والاشتغال على الخطاب من خلال التفريق بين مظهري النظم القرآني، بهذه الكيفية، فيكون تناسب نظمه التركيبي المائل في بناء الجملة، الذي لا يتجاوز حدود الجملة ورغم أهميته ووظيفته إلا أنه _ بتقدير البقاعي _ لا يمثل المظهر الذي يتحقق فيه التماسك النصي ولا يحدد ذلك الترابط القوي الذي يجعل من النص القرآني وحدة دلالية كبرى متسقة ومنسجمة، بل الذي يحقق تلك الغايات " إنما هو كماله في نظمه الترتيبي المائل في علاقات الجمل بعضها ببعض في بناء المعقد، وعلاقات المعاهد بعضها ببعض في بناء السورة، وعلاقات السور بعضها ببعض في بناء البيان القرآني العظيم كله مفتتحاً بسورة الفاتحة ومختتماً بسورة الناس ² وتبدو هذه الجزئيات المحددة: (نظمه الترتيبي// المائل في علاقات الجمل بعضها ببعض // في بناء المعقد، // وعلاقات المعاهد بعضها ببعض// في بناء السورة،// وعلاقات السور بعضها ببعض // في بناء البيان القرآني العظيم كله// مفتتحاً بسورة الفاتحة ومختتماً بسورة الناس)

¹ المرجع السابق ج 1 ص 12 و 13

² المرجع نفسه ج 4 ص 199

كلها معايير نصية تحقق للخطاب القرآني صفة النصية التي تباينه عن الجملة، والتي تتحدد (أي الجملة) في ما يسميه (البقاعي) النظم التركيبي ويبدو هذا التفريق بين هذين المظهرين النظم التركيبي (الجملة) // النظم الترتيبي (النص) مهما في سياق الحديث عن مظاهر تماسك النص مثلما تبدو تلك المعايير التي يوردها (البقاعي) في تحديد النص المبين للجملة مهمة جدا خاصة حينما يؤكد في أكثر من سياق أنها هي التي يتمظهر من خلالها النص القرآني متسقا ومحكما، ويبدو هذا الفهم الناضج لدى (البقاعي) قرينة دالة على اشتغاله على النص مع وعيه التام بتلك المعايير التي تحقق للخطاب صفة النصية والتي يعد التماسك النصي أهم مظاهرها وعلى الرغم من أن (البقاعي) يعتقد جازما بأن (النظم الترتيبي / اتساق النص) هو المظهر الذي يتجلى فيه البناء القرآني محكما، متلاحما وأنه الأكثر إعجازا من جهة أنه تتعالق فيه أجزاء النص، إلا أن ذاك لا ينفي عدم وعيه بالمستويات الأخرى وأهميتها يقول مقاربا تلك المستويات كلها: " أمّا مِنْ جهةِ المُفرداتِ، فلكونها النهاية في جلاله الألفاظ ورشاقة الحروف وجمع المعاني، فيفيد ذلك أنّه لا تقوم كلمة أخرى مقام كلمة منه أصلاً وأمّا من جهة التركيب، فلكون كلّ كلمة منها أحقّ في موضعها بحيث إنّّه لو قدم شيء منها أو آخر لاختل المعنى المراد في ذلك السياق بحسب ذلك المقام وأمّا من جهة الترتيب في الجمل والآيات والقصص في المبادئ والغايات، فلكون مثل تركيب الكلمات: كلّ جملة منتظمة بما قبلها انتظام الدّرّ اليتيم في العقد المحكم التنظيم ؛ لأنها إمّا أن تكون علّة لما تلتها، أو دليلاً، أو مُتَمِّمَةً بوجه من الوجوه الفائقة على وَجْهِ ممتنع الجَنابِ، جليلِ الحجاب ؛ لتكون أخلّى في فمه، وأجلى بعد ذوقه في نظمهِ وسائر علمه

¹ ويبدو تعليقه على مستوى النظم الترتيبي مدركا فيه بعض العلاقات الدلالية الممكنة داخل النص
(أن تكون علّة لما تلتها، أو دليلاً، أو مَتَمِّمَةً بوجه من الوجوه الفائقة)

مسارات الاتساق النصي باعتماد التناسب بمنظور البقاعي

استقراء في العتبات النصية

في العلاقة الدلالية بين السورة واسمها

ولا يستثني (البقاعي) في مقاربتة التحليلية حتى اسم السورة، التي تخضع في دلالاتها لهذه لفاعلية التناسب في تحقيق الاتساق النصي يقول (البقاعي) " وقد ظهر لي باستعمالي هذه القاعدة عند وصولي إلى سورة سبأ .. أن اسم كل سورة مترجم عن مقصدها، لأن اسم كل شيء تلحظ المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه... ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها فأذكر المقصود من كل سورة وأطبق بينه وبين اسمها " ²، فيكون اسم السورة نصاً موازياً (par texte) للسورة نفسها يحمل دلالاتها، ويعبر عن مضامينها، ورغم أن (البقاعي) وضع هذه العلاقة _ بين عتبة العنوان والسورة _ موضع التطبيق من خلال مقاربات تحليلية موفقة في غالبيتها إلا أنه لم يكن سباقاً على المستوى النظري في اكتشاف هذه العلاقات إذ نجد هذا الفهم عند سابقه فهذا (الزركشي) مثلاً يشير إلى هذه العلاقة حيث يقول " ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت

¹ - المرجع السابق ج 19 ص 233/

² - المرجع نفسه ج 1 ص 17..18

أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقريظة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها"¹ ولعل الفارق الذي صنعه (البقاعي) عن غيره هو أنه وضع هذا الفهم النظري لوظيفة اسم السورة موضع التطبيق بوصفه إجراء قرائياً يحضر في كل الأسماء مع سورها، وهو ما لم يفعله غيره من المفسرين رغم تقريرهم النظري بهذه العلاقة بين السورة واسمها، وفي كل الأحوال وبصرف النظر عن مبدأ التفاضل بين أعلام التراث في مدى توظيف هذه العتبة النصية ورصد العلاقة القائمة بين (عنوان / اسم السورة) ومضمون السورة إلا أنه من المهم أن نشير إجمالاً أن التراث العربي سبق النقد الغربي المعاصر إلى قراءة العتبات، والتي يعد عنوان النص ملمحاً من ملامحها.

ويلتزم (البقاعي) بهذا الربط بين البسمة ومقصود السورة التي تنصدرها في السور القرآنية كلها وللتدليل على ذلك نسوق مثاله في سورة الفاتحة حيث يبين علاقات التماسك النصي الممكنة فيقول: "الفاتحة اسمها أم الكتاب و الأساس والمثاني و الكنز والشفافية والكافية والوافية والواقية والرقية والحمد والشكر والدعاء والصلاة ، فمدار هذه الأسماء كما ترى على أمر خفي كاف لكل مراد وهو المراقبة التي سأقول أنها مقصودها فكل شيء لا يفتح بها لا اعتداد به وهي أم كل خير وأساس كل معروف ولا يعتمد بها إلا إذا تثبت فكانت دائمة التكرار وهي كنز لكل شيء شافية لكل داء كافية لكل هم وافية بكل مرام واقية من كل سوء رقية لكل ملم وهي إثبات للحمد الذي هو الإحاطة بصفات الكمال وللشكر الذي هو تعظيم المنعم وهي عين الدعاء فإنه التوجه للمدعو وأعظم بجامعها الصلاة "² وبالتأمل في قراءة (البقاعي) ندرك ذلك العرض المفصل لكل الأسماء التي عرفت بها الفاتحة ثم في المستوى الثاني يحاول أن يربط بين كل اسم بمقصود السورة كلها

¹ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، ج 1 / 340.

² - البقاعي نظم الدرر ج 1 ص 19 و 20

لينتقل في المستوى الثالث فيقرر: أن الغرض العام الذي سيقى له السورة هو مجموع هذه الدلالات التي يحملها كل اسم " إذا تقرر ذلك فالغرض الذي سيقى له الفاتحة وهو إثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال واختصاصه بملك الدنيا والآخرة وباستحقاق العبادة والاستعانة بالسؤال في المن بالزام صراط الفائزين والإنقاذ من طريق الهالكين مختصا بذلك كله ومدار ذلك كله مراقبة العباد لربهم لإفراده بالعبادة فهو مقصود الفاتحة بالذات وغيره وسائل إليه " ¹ ثم ينتهي في مقاربه إلى أن مقصود القرآن كله انتظم في مقصود سورة الفاتحة ولعل ذلك هو السر في أن الفاتحة كانت أول ما يرد من القرآن في المصحف الشريف وهي بمثابة العتبة النصية للقرآن كله يقول " وهو مقصود القرآن الذي انتظمته الفاتحة بالقصد الأول " ²

وفي سورة الأعلى يقول (البقاعي) في مستهل تفسيرها " سورة سبى وتسمى الأعلى ثم يضيف قال الملوي وكان النبي ص يحبها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات _ مقصودها إيجاب التنزيه للأعلى سبحانه وتعالى عن أن يلحق ساحة عظمتة شيء من شوائب النقص كاستعجال في أمر إهلاك الكافرين أو غيره أو العجز عن البعث أو إهمال الخلق سدى ينبغي بعضهم على بعض بغير حساب أو أن يتكلم بما لا يطابق الواقع أو بما يقدر أحد أن يتكلم بمثله كما أذنت بذلك الطارق مجملا وشرحته هذه _ يعني سبى _ مفصلا وعلى ذلك دل كل من أسميها سبى والأعلى " ³ ومثلما يربط (البقاعي) اسم هذه السورة بمقصودها، يشير كما هو واضح إلى علاقة السورة

¹ - المرجع السابق ج 1 ص 20 و 21

² - المرجع نفسه ج 1 ص 20 و 21

³ - المرجع نفسه ج 21 ص 378

السابقة سورة الطارق بسورة الأعلى من حيث أن هذه _يعني الأعلى_ فصلت ما أجملته تلك

يعني الطارق يقول (كما أذنت بذلك الطارق مجملًا وشرحته هذه _يعني سبح_ مفصلاً)¹

وعلى هذا المنوال يقارب (البقاعي) كل أسماء السور في علاقاتها بمقصود السور وموضوعاتها

العلاقة بين اسم السورة ومقصودها باستحضار القرينة التاريخية

وقد يعتمد (البقاعي) إلى ربط مقصود السورة البنية الكلية بالسياق التاريخي الذي نزلت فيه

السورة ومجمل الظروف والملابسات والحوادث التي تراكمت وتزامنت مع نزول هذه السورة وذلك ما

يسمى في المنجز الحديث في الدراسات السياقية بالسياق التاريخي والثقافي لتأمل مثلاً قراءة

(البقاعي) لاسم سورة الفتح مع السياقات المختلفة "ومقصودها مدلول اسمها يعم فتح مكة وما تقدمه

من صلح الحديبية وفتح خيبر ونحوهما وما وقع تصديق الخبر به من غلب الروم على أهل فارس

وما تفرع من فتح مكة المشرفة من إسلام أهل الجزيرة العرب وقتال أهل الردة وفتح جميع البلاد

الذي يجمعه كله إظهار الدين على الدين كله وهذا كله في غاية الظهور بما نطق به ابتدائها

وأنتاؤها في مواضع منها (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) وانتهائها (ليظهر الدين كله) (محمد رسول

الله) إلى قوله (ليغيظ بهم الكفار) أي بالفتح الأعظم وما دونه من الفتوحات)² بقليل من

التأمل نلاحظ أن (البقاعي) استدعى كل ملابسات التنزيل والسياقات التاريخية والظروف المرافقة

لنزول هذا النص من أجل التأكيد على خاصية التناسب بين مقصود السورة البنية الكلية واسم

السور بوصفه عتبة نصية مهمة أو نصاً موازياً يتطابق مع كل دلالات السورة .

¹ - المرجع السابق ج 21 ص 378

² - المرجع نفسه ج 18 ص 273

في العلاقة الدلالية بين البسملة والسورة

وفي مستوى أبلغ يقرر (البقاعي) أن البسملة (العتبة النصية الثانية) هي خطابٌ تتغير دلالاته بالنظر إلى السورة التي يتصدرها، فيعقد بسبب بين البسملة في كل سورة بمقصود السورة نفسها، " وأفسر كل بسملة بما يوافق مقصود السورة، ولا أخرج عن معاني كلماتها " ¹، إنه يقرأ البسملة بحيث تستجمع معانيها من معاني السورة التي تتصدرها، فيفهمها، ويفسرها وقد شددت إلى فهم السورة، و تفسيرها كله، ذلك أنها لم تعلق كل سورة إلا لعلاقة بينهما، فهي آية اتسع معناها بحيث يمكن _ بمنظور البقاعي _ أن تسع مقصود كل سورة من سور القرآن الكريم على حدة، ولعل هذا الفهم الناضج لوظيفة البسملة- التي تحمل المفردات نفسها في السور كلها، لكنها في فهم (البقاعي) تختلف دلالاتها وإن اتفقت بنيته التركيبية - يعد ذروة الفهم، وأقصى ما يمكن أن تصل إليه قريحة متأمل فذ ومع التأكيد أن تلقي (البقاعي) لدلالات البسملة يختلف من سورة لأخر بحيث يجعلنا أمام كم هائل من الدلالات التي تأخذها البسملة بعدد سور القرآن كله، فعلى الرغم من أن البسملة واحدة في بنيتها التركيبية لا تختلف، إلا أن ارتباطها بسورة ما يكسبها دلالة تختلف حينما ترتبط بسورة أخرى وتكون الدلالات في كل موضع تنسجم مع مقصود السورة وسياقها، ويبدو هذا المسلك الذي ينزعه إليه (البقاعي) في قراءة البسملة منسجما مع قناعته بأنه لا تكرار في القرآن الكريم ²، والبسملة وإن تكررت في بنيتها التركيبية ظاهرا فإن بنيتها الدلالية مختلفة باطنا بمقتضى الارتباط بالسورة التي تتصدرها وبمقتضى قناعة (البقاعي)

¹ - المرجع السابق ج 1 ص 19

² - يعتقد البقاعي أنه لا يوجد في القرآن ظاهرة تسمى التكرار بما في ذلك ما يتكرر من القصص في مواضع كثيرة من القرآن وبالتأمل فيما تكرر ذكره في القرآن يتبين الاختلاف وأن الأمر كله محكوم بالسياق والقرائن الدالة

ونورد مثالا، ففي قراءته الدلالية لبسمة سورة "النساء" في علاقتها بمقصود السورة ودلالاتها يقول (البقاعي) :

" (بسم الله) الجامع لشتات الأمور بإحسان التزواج في لطائف المقدور، (الرحمن) الذي جعل الأرحام رحمة عامة، (الرحيم) الذي خصّ من أراد بالتواصل على ما دعا إليه دينه الذي جعله نعمة تامة ¹ وبالربط بين هذه الدلالات التي تحملها البسمة _هاهنا_ ومقصود السورة التي يشير (البقاعي) إليها بقوله: " ولما كان مقصودها ما دعت إليه السورتان قبلها (يقصد البقرة وأل عمران) وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل الأرحامُ العاطفة التي مدارها النساء سميت سورة النساء لذلك ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد"²

ولا نغادر السورة نفسها حيث نعاين كيف يربط (البقاعي) في مستوى آخر بين البسمة ومقصود هذه السورة فيقول " (بسم الله) الذي له العلى كله فلا نقص يلحقه (الرحمن) الذي عم جوده فكل موجود هو الذي أوجده وكل حيوان هو الذي يربيه (الرحيم) الذي من كان من حزيه يلزمه الطاعة وييسرها له ويوفقه " ³

وبالكيفية نفسها يقرأ (البقاعي) دلالة البسمة كعتبة نصية موازية في كل السور بما يتطابق مع دلالات كل سورة على حدة

القصص القرآني ومبدأ التكرار

وحين يتوجه (البقاعي) نحو القصص القرآني واصلا إياه بمقتضى السياق شارحا أوجه تكرار هذه القصة في أكثر من سورة جازما أن دلالة القصة في هذا الموضع غير دلالتها هناك،

¹ - البقاعي نظم الدرر: ج5ص171

² - المرجع نفسه ج5ص171

³ - المرجع نفسه

نافيا وجود التكرار بل مؤكدا أن ما ذكر هنا يختلف دلالة عن ما ذكر في موضع آخر ولو تطابق الملفوظان تطابقا تاما " وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى في تلك السورة، أستدل عليه بتلك القصة غير المعنى التي سيقى له في السورة السابقة، وبها اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض وتغيرت النظم بالتقديم والتأخير والإيجاز والتطويل، مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة " ¹ والحقيقة في تقرير (البقاعي) بأن القصص وإن تكرر في أكثر من موضع، فإنه يختلف في دلالاته، هو تقرير لا يبتعد كثيرا عن ذلك التصور العام، بأنه لا يوجد تكرار في القرآن مطلقا، بل هو التشابه، وأن ما يبدو مكررا في موضع ما ظاهرا، هو في حقيقة الأمر يحتاج إلى نظر كي يتأكد ذلك الاختلاف بين الضربين، وإن تشابها

وفي سياق المقاربة التي يتناول بها (البقاعي) القصص القرآني نورد هذه العينة التي توضح كيف اختلفت مقاربة (البقاعي) لقصة موسى ﷺ في سورتي طه والقصص .

ففي سورة طه حيث وردت قصة موسى ﷺ بداية من الآية ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ^(٩)

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أَحْدُثُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ طه: 10/9

يربط البقاعي بين بداية موسى ﷺ في دعوته إلى الله وبداية النبي ﷺ حيث منح الله عز وجل الأول نورا يعينه في الدارين وينصره على الأعداء أما الثاني فقد هيا الله عز وجل له تلك الخلوة كي يتعبد ويتزود للنبوة التي بها ينتصر على الأعداء ويمكن الله له دينه الذي ارتضى لعباده يقول (البقاعي) " فإن ابتداء أمر موسى ﷺ أنه أتى النار ليُقْبَسَ أهله منها نارا أو يجد عندها هدى. فمنح بذلك من هدى الدارين والنصرة على الأعداء كما سيقص هنا ما منح، وهذا النبي الكريم ﷺ كان ابتداء

¹ - المرجع السابق ج 1 ص 14

أمره أنه يذهب إلى غار حراء فيتعب الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك اجتذاباً من الحق له قبل النبوة بمدد، تدريباً له وتقوية لقلبه، فأنته النبوة وهو في مضمارها سائر، وإلى أوجها بعزمه صائر بل طائر، وموسى عليه السلام رأى حين أنته النبوة آية العصا واليد، ومحمد ﷺ كان قبل النبوة لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه ¹

ثم ينتقل البقاعي في مقاربة هذه القصة إلى الربط مرة ثانية بين ما تلقاه موسى عليه السلام في سبيل الدعوة وما تلقاه النبي ﷺ في رسالته جامعا بين الموفقين وموضحا أن قصة موسى عليه السلام إنما سقت _ هاهنا _ لتثبيت قلبي النبي ﷺ وتذكيره بطبيعة الطريق إلى الله وما فيه من الشدائد والمحن، متدرجا بعد ذلك (البقاعي) في ربط هذه السورة وما فيها من قصة وحوادث بما سبقها من سور مريم والكهف وإبراهيم وما فيها من قصص وعضات يقول البقاعي: " (وهل أتاك) أي يا أشرف الخلق! (حديث موسى) نادباً إلى التأسى بموسى عليه السلام في تحمل أعباء النبوة وتكليف الرسالة والصبر على مقامات الشدائد، وشارحاً بذكر ما في هذه السورة من سياق قصة ما أجمل منها في سورة مريم، ومقرراً بما نظمه في أساليبها ما تقدم أنه مقصد السورة من أنه يسعده ولا يشقيه، ويعزه على جميع شأنه بإعرازه على أهل بلده بعد إخراجهم له، كما أعز موسى عليه السلام من خرج من بلادهم خائفاً يترقب، ترغيباً في الهجرة ثالثاً بعد ما رغب فيها أولاً بقصة أصحاب الكهف وثانياً بقصة أبيه إبراهيم عليه السلام، وأنه يعلي قومه على جميع أهل الأرض، وينقذهم به بعد ضعفهم من كل شدة ويغني فقرهم ويجعلهم ملوك الأرض، يذل بهم الجبابرة، ويهلك من علم شقاوته منهم كما فعل بقوم موسى، وأشار بإنجاء موسى عليه السلام على ²

¹ - المرجع السابق ج 12 ص 271

² - المرجع نفسه ج 12 ص 272

أما قصة موسى ﷺ في سورة القصص فقد وردت في سياق مختلف وإن كانت في وصف النبي نفسه_أي موسى ﷺ وتضمنت الأحداث نفسها إلا أن (البقاعي) يربطها بأحداث أخرى في حياة النبي ﷺ وهي فتح مكة وانقياد العرب لأمره بعزة هذا الدين وذلة المشركين مع الربط بين ما حدث لموسى ﷺ من بلاء ثم تكريم وبين ما حدث للنبي ﷺ من محن ثم فتح مبين يقول البقاعي: " (نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) أي يصدقون ويعتبرون ويستدلون ويستوضحون، وقوله: (سيركم آياته) يشير إلى ما حل بهم يوم بدر، وبعد ذلك إلى يوم فتح مكة، وإذعان من لم يكن يظن انقياده، وإهلاك من طال تمرده وعناده، وانقياد العرب بجملتها بعد فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً، وعزة أقوام وذلة آخرين، بحاكم (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) إلى أن فتح الله على الصحابة رضوان الله عليهم ما وعدهم به نبيهم ﷺ فكان كما وعد، فلما تضمنت هذه الآية ما أشير إليه، أعقب بما هو في قوة أن لو قيل: ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله، ولا حال مستضعفي المؤمنين بمكة ممن قصدتم فتنته في دينه بدون حال بني إسرائيل حين كان فرعون يمتحنهم بذبح أبنائهم.

فهل تأملتم عاقبة الفريقين، وسلكتم أنهج الطريقين؟ (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) - إلى قوله: (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) فلو تأملتم ذلك لعلمتم أن العاقبة للتقوى، فقال سبحانه بعد افتتاح السورة إن فرعون علا في الأرض، ثم ذكر من خبره ما فيه عبرة، وذكر سبحانه آياته الباهرة في أمر موسى عليه السلام وحفظه ورعايته وأخذ أم عدوه إياه (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) فلم يزل يذبح الأبناء خيفة من مولود يهتك ملكه حتى إذا كان ذلك

المولود تولي بنفسه تربيته وحفظه وخدمته ليعلم لمن التدبير والإمضاء، وكيف نفوذ سابق الحكم والقضاء، فهلا سألت قريش وسمعت وفكرت واعتبرت (أولم تأتكم بينة ما في الصحف الأولى) " ¹ لينتقل (البقاعي) بعد ذلك إلى الربط بين خروج موسى عليه السلام من أرضه خائفاً يترقب وما ترتب على هذا الخروج من فضل عظيم وبين هجرة النبي ﷺ من مكة وما انجر عنها من تمكين ونصر في المدينة المنورة يقول البقاعي " ثم أتبع سبحانه ذلك بخروج موسى عليه السلام من أرضه فخرج منها خائفاً يترقب، وما ناله عليه السلام في ذلك الخروج من عظيم السعادة، وفي ذلك منبهة لرسول الله ﷺ على خروجه من مكة وتعزية له وإعلام بأنه تعالى سيعيده إلى بلده ويفتحه عليه، وبهذا المستشعر من هنا صرح آخر السورة في قوله تعالى: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وهذا كاف فيما قصد " ²

ويتبين لنا _ والحال هكذا في كل القصص القرآني _ أن (البقاعي) يتناول النص القصصي في القرآن الكريم _ وإن تكرر في مواضع عدة _ كأنه يرد لأول مرة رابطاً إياه بسياق السورة ومقصدها وما قبلها وما بعدها من دلالات ومقاصد السور التي ترتبط بهذه السورة .

بعض مستويات التعالق بين الآيات والسور من خلال التناسب

لقد سبقت الإشارة إلى أن (البقاعي) عاين الكثير من علاقات التناسب بين الآيات فيما بينها وبين السور فيما بينها وبين الآيات والسور وهي علاقات _ كما سبقت الإشارة _ يستحيل إيرادها كلها في هذا المبحث لكثرتها وامتداد مستوياتها ولذلك اقتصرنا على هذه الأمثلة على سبيل التذليل فحسب:

¹ - المرجع السابق ج 14 ص 239

² - المرجع نفسه الصفحة نفسها

أولاً: مستوى الآيات:

في التعالق بين آيات آخر السورة بآيات السورة التي تليها:

يقول (البقاعي) مستدلاً بقول (أبي جعفر بن الزبير) على ارتباط مجموعة من آيات سورة الحشر بآيات من السورة التي قبلها (المجادلة) "قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لا خفاء باتصال أيها بما تأخر من آي سورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم) إنما يراد به يهود فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جرأتهم ثم قال في آخر السورة (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) فحصل من هذا كله تنفير المؤمنين عنهم وإعلامهم بأن بغضهم من الإيمان وودهم من النفاق لقبيح ما انطوا عليه وشنيع ما ارتكبوه، فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر أتت بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم وتمكين المسلمين منهم، جرياً على ما تقدم للإيماء إليه سوء مرتكبهم، والتحمت الآي باتحاد المعنى وتناسبه، وتناسج الكلام، وافتتحت السورة بالتنزيه لبنائها على ما أشار إليه غضبه تعالى عليهم إذ لا يكون إلا على أعظم جريمة وأسوأ مرتكب وهو اعتداؤهم وعصيانهم المفصل في مواضع من الكتاب وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضبه عليهم (أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل) **المائدة: 60** وقال تعالى (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) **المائدة: 78** فبين تعالى أن لعنته إياهم إنما ترتبت على عصيانهم واعتدائهم، وقد فصل اعتداءهم أيضاً في مواضع، فلما كان الغضب مشيراً إلى ما ذكر من عظيم الشرك، أتبعه سبحانه وتعالى تنزيه نفسه جل وتعالى فقال (سبح لله ما في السماوات وما في الأرض) وإنما يرد مثله من التنزيه أثر جريمة تقع من

العباد وعظيمة يرتكبوها وتأمل ذلك حيث وقع، ثم عاد الكلام إلى الإخبار بما فعل تعالى بأهل الكتاب مما يتصل بما تقدم، ثم تناسجت الآي¹

في التعالق بين الآية وما قبلها مباشرة

وتكاد معاينة (البقاعي) للآية من السورة في تعالقها بما قبلها وما بعدها مباشرة حاضرة في كل المواضع لا يستثني في ذلك موضعاً إلا نادراً ومن هذه العينة من الترابط نسوق هذا المثال في سورة النساء الآية 27 و

﴿28﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ

عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

يقول (البقاعي) مفسراً ورابطاً بين الآيات "ولما قرر سبحانه وتعالى إرادته لصالحهم ورغب في اتباع الهدى بعلمه وحكمته عطف على ذلك قوله: (والله) بلطف منه وعظم سلطانه (يريد) أي بإنزاله هذا الكتاب العظيم وإرساله هذا الرسول الكريم (أن يتوب عليكم) أي يرجع لكم بالبيان الشافي عما كنتم عليه من طرق الضلال لما كنتم فيه من العمى بالجهل، وزادهم في ذلك رغبة بقوله: (ويريد الذين يتبعون) أي على سبيل المبالغة والاستمرار (الشهوات) أي من أهل الكتابين وغيرهم كشاش بن قيس وغيره من الأعداء (أن تميلوا) أي عن سبيل الرشاد (مَيْلًا عَظِيمًا) أي إلى أن تصيروا إلى ما كنتم فيه من الشرك والضلال، فقد أبلغ سبحانه في الحمل على الهدى بموافقة الولي المنعم الجليل الذي لا تلحقه شائبة نقص، ومخالفة العدو الحسود الجاهل النازل من أوج العقل إلى حضيض طباع البهائم

¹ المرجع السابق ، ج19 ص 404 و 405

ولما كان الميل متعباً لمرتكبه أخبرهم أن علة بيانه للهداية وإرادته التوبة الرفق بهم فقال: (يريد الله) أي وهو الذي له الجلال والجمال وجميع العظمة والكمال (أن يخفف عنكم) أي يفعل في هذا البيان وهذه الأحكام فعل من يريد ذلك، فيضع عنكم الآصار التي كانت على من كان قبلكم الحاملة على الميل، ويرخص لكم في بعض الأشياء - على ما تقدم، ودل على علة ذلك بالواو العاطفة؛ لأنكم خلقتم ضعفاء يشق عليكم الثقل (وخلق الإنسان) أي الذي أنتم بعضه (ضعيفاً) ¹

في التعالق بين مجموعة من الآيات مع مطلع السورة نفسها

وفي علاقة مجموعة من الآيات من سورة البقرة مع مطلع السورة نفسها ينتبع (البقاعي) تلك الدلالات التي تجمع بين هذه الآيات على أساس التناسب وبين مطلع السورة فيقول " فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه) إلى (المصير) فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى وأنزل (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) إلى (أو أخطأنا) قال: نعم» قال البغوي: وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: قد فعلت، واستمر إلى آخر السورة كلما قرؤوا جملة قال: نعم. فقد تبين من هذا تناسب هذه الآيات، وأما مناسبتها لأول السورة رداً للمقطع على المطلع فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي والاتصاف بأوصاف الكمال أشد اتصالاً، وجعل رأسهم الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام تعظيماً للمدح وترغيباً في ذلك الوصف فأخبر بإيمانهم بما أنزل إليه بخصوصه وبجميع الكتب وجميع الرسل وبقولهم الدال على كمال الرغبة وغاية الضراعة والخضوع فقال استئنافاً لجواب

¹ المرجع السابق ج 5. 257 و 258

من كأنه قال :ما فعل من أنزلت عليه هذه الأوامر والنواهي وغيرها؟ (آمن الرسول) أي بما ظهر له من المعجزة القائمة على أن الآتي إليه بهذا الوحي ملك من عند الله سبحانه وتعالى كما آمن الملك به بما ظهر له من المعجزة الدالة على أن الذي أتى به كلام الله أمره الله سبحانه وتعالى بإنزاله فعرفه إشارة إلى أنه أكمل الرسل في هذا الوصف باعتبار إرساله إلى جميع الخلائق¹

ثانياً مستوى السور

في التعالق بين سورة و مجموعة من السور

وفي سياق معانية العلاقات بين مجموعة من السور بسورة واحدة يورد أمثلة كثيرة نسوق منها ما أشار إليه من ارتباط سورة لقمان بما قبلها من السور حيث يقول: " مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منولة سبحانه في أقواله وأفعاله، وقصة لقمان المسمى به السورة دليل واضح على ذلك كأنه سبحانه لما أكمل ما أراد من أول القرآن إلى آخره براءة النبي هي سورة عزو الروم، وكان سبحانه قد ابتدأ القرآن أم القرآن بنفي الريب عن هذا الكتاب، وأنه هدى للمتقين، واستدل على ذلك فيما تبعها من السور، ثن ابتدأ سورة يونس بعد سورة عزو الروم بإثبات حكمته، وأتبع ذلك دليله إلى أن ختم سورة الروم، ابتدأ دوراً جديداً على وجه أضخم من الأول، فوصفه في أول هذه التالية للروم بما وصفه به في يونس التالية لغزو الروم، وذلك الوصف هو الحكمة وزاد أنه هدى وهداية للمحسنين، فهؤلاء أصحاب النهايات، والمتقون أصحاب البدايات"²

¹ المرجع السابق ج4 ص 168 ص 167

² المرجع نفسه ج 15 ص 140

في التعالق بين فاتحة السورة وخاتمتها:

ختم الله تعالى سورة الأنعام بقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) **الأنعام: 165**

ثم قال في بداية سورة الأعراف: (المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ

بِهِ وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ) **الأعراف: 1، 2.**

وفي قراءة التعالق بين أوائل سورة الأعراف وخواتيم سورة الأنعام يقول (البقاعي) "يسرع العالي إلى

عقوبة السافل! فأجيب بأن الله فوق الكل، وهو أسرع عقوبة، فهو قادر على أن يُسلِّطَ الوضع أو

أحقر منه على الرفيع، فيهلكه، ثم رغب بعد هذا الترهيب في العفو بأنه على غناه عن الكل، أسبل

ذيلَ غفرانه ورحمته بإمهاله العصاة، وقبوله اليسير من الطاعات بأنه خلق السموات والأرض،

وجعل الظلمات والنور منافع لهم، ثم هم به يعدلون! ولولا غفرانه ورحمته، لأسرع عقابه لمن عدل

به غيره، فأسقط عليهم السموات وخسف بهم الأرض التي أنعم عليهم بالخلافة فيها، وأذهب عنهم

النور، وأدام الظلام، فقد ختم السورة بما به ابتدأها، فإن قوله: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ)

الأنعام: 165 هو المراد بقوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ) **الأنعام: 2**، وقوله: (أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي

رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) **الأنعام: 164**، هو معنى قوله: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) **الأنعام: 1**¹.

في علاقة آخر الكهف بأولها يقول البقاعي " ولما كان الجزاء من جنس العمل، كان الواجب على

العبد الإخلاص في عمله، كما كان عمل ربه في تربيته بالإيجاد وما بعده، فقال (فليعمل) وأكدته

للإعلام بأنه لا بد مع التصديق من الإقرار فقال: (عملاً) أي ولو كان قليلاً (صالحاً) وهو ما

¹ المرجع السابق، ج 7، ص 346.

يأمره به من أصول الدين وفروعه من التوحيد وغيره من أعمال القلب والبدن والمال ليسلم من عذابه (ولا يشرك) أي وليكن ذلك العمل مبنياً على الأساس وهو أن لا يشرك ولو بالرياء (بعبادة ربه أحداً*) فإذا عمل ذلك فاز فحاز علوم الدنيا والآخرة، وقد انطبق آخر السورة على أولها بوصف كلمات الله ثم ما يوحى إليه، وكل منهما أعم من الكتاب بالأقومية للدعاء إلى الحال الأسلم، في الطريق الأقوم، وهو التوحيد عن الشريك الأعم من الولد وغيره، والإحسان في العمل، مع البشارة لمن آمن، والندارة لمن أعرض عن الآيات والذكر، فبان بذلك أن الله تعالى - بوحدانيتها وتام علمه وشمول قدرته صفات - الكمال، فصح أنه المستحق لجميع الحمد¹

في التعالق بين أول السورة وخاتمة ما قبلها:

وفي معانيته نهاية سورة سبأ وبداية سورة فاطر يرصد (البقاعي) مستويات التعالق فيقول: "ولما أثبت سبحانه في التي قبلها الحشر الذي هو الإيجاد الثاني، ودل عليه بجزئيات من القدرة على أشياء في الكون، إلى أن ختم بأخذ الكفار أخذاً اضطرهم إلى الإيمان بظهور الحمد لهم أتم الظهور، وبالحيلولة بينهم وبين جميع ما يشتهون كما كانوا متعوا في الدنيا بأغلب ما يشتهون من كثرة الأموال والأولاد، وما مع ذلك من الراحة من أكثر الأنكاد، وكان الحمد يكون بالمنع والإعدام، كما يكون بالإعطاء والإنعام، قال تعالى ما هو نتيجة ذلك (الحمد) أي الإحاطة بأوصاف الكمال إعداماً وإيجاداً (لله) أي وحده ولما كان الإيجاد من العدم أدل على ذلك، قال دالاً على استحقاقه للمحامد (فاطر) أي مبتدئ ومبتدع (السموات والأرض)²

¹ المرجع السابق، ج 12 ص 154 و 155

² المرجع نفسه ، ج 16 ص 2 و 3

في التعالق بين ختام السورة و مقصود السورة كلها

وفي مستوى آخر يرصد (البقاعي) علاقات التناسب بين ختام السورة ومقصودها العام مهما طالت المساحة النصية لهذه السورة وكمثال على ذلك نورد سورة آل عمران حيث يقول " قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** آل عمران 100

ولما كثر في هذه الآيات الأمر بمقاساة الشدائد وتجرع مرارات الأذى واقتحام الحروب واستهانة عظام الكروب، والحث على المعارف الإلهية والآداب الشرعية من الأصول والفروع انخلاعاً من المألوفات إلى ما يأمر به سبحانه من الطاعات، وختم بتجرع فرقة من أهل الكتاب لتلك المرارات كانت نتيجة ذلك لا محالة قوله تعالى منبهاً على عظمة ما يدعو إليه لأنه شامل لجميع الآداب: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** أي بكل ما ذكرنا في هذه السورة"¹

مقصود السورة آية لا تساق النص القرآني

لم ينفرد (البقاعي) " بالقول بمقاصد السور²، بل إن فهم السور القرآنية على أنها محكمة بمغزى عام كان في تصور الكثير من الذين اشتغلوا بالقرآن قبل (البقاعي) بل قد وجدنا هذا الفهم حتى عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

إن ربط معاني السورة الواحدة بمقصودها العام أصل ثابت في القراءة الآمنة للقرآن التي تقضي إلى مقصود الشارع، ولم يكن هذا الأصل خافياً في أذهان المتقدمين والمتأخرين بل هناك تأكيدات كثيرة نسوق بعضها توصل لهذا التناول لموضوعات السورة الواحدة مع الإشارة أن هذا التصور

¹ - المرجع السابق ج 2 ص 203

² - خصص البقاعي لدراسة مقاصد السور مصنفاً في ثلاثة أجزاء رصد فيه كل العلاقات الممكنة بين السور ومقاصدها مثلما ربط بين مقاصد السور فيما بينها، وقد يربط في كثير من الأحيان بين أسماء السور وهذه المقاصد والمصنف موسوم بـ: "مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور

العام يؤصل بدوره لقضية ارتباط النص ببعضه ببعض ذلك أن مقصود السور مرتبط بالضرورة بمناسبات السور مع الآي والقصص وجميع أجزاء الخطاب، يقول (البقاعي): "ومن حق المقصود من السورة عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها".¹ ويعبر (الشاطبي) عن هذا الارتباط المحكم بين مقاصد السور ومقتضى الحال ومساقات الخطاب ورد أول الكلام على آخره تعبيراً دقيقاً حيث يقول: "فإن كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، وإنما التفقه في المعبر عنه والمراد به، كما يعلم من أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، فلا محيص للمتفهم عن التعلق بأول الكلام وآخره ليحصل له المقصود منه، فإن فرق النظر لم يتوصل إلى المراد"² ذلك أن "مقصد السورة هو أصل معانيه الذي ترجع إليه فهو أصل في فهم معاني كلام الله تعالى ولهذا فإن معاني السورة لا تتحقق إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر واستخراج مقصدها"³ ويبدو (البقاعي) مدركاً بحس جمالي متميز هذه العلاقات التي تقضي إلى مقصود السورة بصورة حسية تحاكي انسجام الشجرة النضيرة والدوحة البهيجة مع ما في هذا التوصيف الجمالي من تدقيق لدوائر قراءة مقاصد السور، يقول: "تكون السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاءها ما بعدها، وعانق ابتداءها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغر، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل

¹ - برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور تحقق عبد السميع محمد

حسنين مكتبة المعارف الرياض 1407 هـ 1987 ط 1 ص 149

² - الشاطبي الموافقات 3 ج 409/.

³ - المرجع نفسه ج 3 ص 415

ثمارها وأغصانها " ¹ وهو قبل هذا التوصيف المادي الذي يجعل من السورة كالشجرة النضيرة بتعاطف أفنانها وتواصل ثمارها وأغصانها يبين علاقة المقصد الذي يمثل بؤرة السورة ونقطة ارتكازها وهي تجمع إليها كل العلاقات الممكنة يقول " لكل سورة لها مقصد واحد يُدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليها فيها، فترتّب المقدمات الدّالة عليه على اتّقي وجه وأبدع نهج وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدلال عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلمّ جرّاً، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه كان ابتداءً، ثمّ انعطف الكلام إليه، وعاد النظر عليه، على نهج بديع ومرقى غير الأول منيع" ²

ويضيف (البقاعي) مدققاً في الكيفيات التي تتجلى بها مقاصد السور مع تأكيده دائماً ارتباط هذه المقاصد بالمناسبات مما يؤكد _ ككل مرة _ خاصية التماسك والترابط بين مكونات السورة فيقول: " الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنتظر الغرض الذي سيق له السورة، وتنتظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات .. وتنتظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له " ³

وحين نسوق هذه الشواهد للبقاعي _ بوصفه المتن المدروس _ فإننا نؤكد أن هذا الفهم _ كما تقدم _ موجود في تصورات القدامى والمحدثين، فهذا (محمد الدراز) يؤكد الظاهرة بإلحاح ملحوظ في أكثر من موضع في كتاباته وهذه عينة من ذلك حيث: يقول: " لماذا نقول إن المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان ؟ لا . بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم

¹ - مصاعد النظر ج 1 ص 149

² - المرجع نفسه ج 1 ص 149

³ - البقاعي نظم الدرر ج 1 ص 17

الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية" ¹

وهذا الأستاذ (سعيد حوى) لا يخفي انبهاره بذلك الفتح المبين الذي مكنه من إدراك هذه العلاقات المحكمة في السورة الواحدة ثم امتداداتها في باقي السور مشكلة نظاماً معجزاً لم يعرفه خطاب آخر غير القرآن يقول في تفسيره (الأساس): " قد استطعت بحمد الله أن أبرهن على أن كمال القرآن في وحدة آياته في السورة الواحدة وكماله في الوحدة الجامعة التي تجمع ما بين سوره وآياته على طريقة لم يعرف لها العالم مثيلاً، ولا تخطر على قلب بشر " ²

مسارات الوصف لمقصود السور عند البقاعي

واضح لقارئ تفسير (البقاعي) اهتمامه الكبير بتوضيح مقاصد السور بدقة متناهية ولا يكتفي برصدها على مستوى السورة الواحدة بل يتجاوزها إلى ما قبلها وما بعدها ثم الذي يلي فالذي يلي وهكذا في حركة دائبة ومنظمة للكشف عن العلاقات أو لنقل _ بلغة البقاعي _ المناسبات التي تربط بين مجموع مقاصد هذه السور وهو عمل مضني يحتاج صبراً وأناة على مستوى القراءة فما بالك على مستوى الرصد والتحديد، وقد انبرى له (البقاعي) بهمة عالية، ولقد مكنتنا متابعة هذه المدونة التفسيرية من الوقوف في مفتتح كل السور وخواتمها وأحياناً في ثناياها من إشارات محكمة في توضيح المقصد في السورة وعقد الصلة بينها وبين مقاصد آخر في السوابق واللاحق من

¹ - عبد الله الدراز النبا العظيم 155

² - سعيد حوى الأساس في التفسير سعيد حوى ج1/ دار السلام - ط 6 القاهرة 1424 هـ ص 27

السور، وقد نشير إلى بعض هذه العينات، بيد أن الكثير منها متروك للقارئ بالرجوع إليها في مدونته التفسيرية.

في تناوله لسورة البقرة يَجْمَلُ (البقاعي) مقصودها في الدعوة إلى التوحيد والإيمان مع ذكر متعلقات هذا الإيمان، وتبدو قصة البقرة امتحانا مهما في تمييز إيمان أصحاب البقرة ولذلك سميت السورة باسمها

يقول (البقاعي) " مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ؛ ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب، فلذلك سميت بها السورة " ¹

ثم ينتقل إلى تفصيل جزئيات هذا المقصد الجليل وهو الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له وما يرتبط به من متعلقات _ كما وردت في سورة البقرة _ ليربط ربطا محكما، بين هذا المقصد بمقصد الفاتحة منتقلا إلى الربط بسورة آل عمران فسورة النساء، يقول: " المقاصد التي سيقّت لها هذه السورة إثبات الوجدانية لله سبحانه وتعالى، والإخبار بأنّ رئاسة الدُّنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئا في الدنيا، ولا في الآخرة، وأنّ ما أعدّ للمتقين من الجنة والرضوان هو الذي يُنبغي الإقبال عليه والمصارعة إليه. وفي وصف المتقين بالإيمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار ما ينعطف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة. هذا ما كان ظهر لي أولاً وأحسن منه أن نخصّ القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها، فإنّ الأمرين الأخيرين يرجعان إليه، وذلك ؛ لأنّ الوصف بالقيومية يقتضي القيام بالاستقامة، فالقيام يكون على كلّ نفسٍ والاستقامة العدل... وهذا الوجه أوفق للترتيب لأنّ " الفاتحة " لمّا كانت جامعةً

¹ - البقاعي نظم الدرر ج 1/55

للدين إجمالاً جاء ما به التفصيلُ محاذياً لذلك، فابتدئ بسورة الكتاب (البقرة) المحيط بأمر الدين، ثُمَّ بسورة التوحيد (آل عمران) الذي هو سرُّ حرف "الحمد"، وأوَّل حروف الفاتحة، لأن التوحيد هو الأمر الذي لا يقوم بناءً إلاً عليه، ولمَّا صحَّ الطريقُ، وثبت الأساسُ جاءت التي بعدها (النساء) داعيةً إلى الاجتماع على ذلك. وأيضاً فلمَّا ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنَّه هدى، وقامت به دعائم الإسلام الخمس جاءت هذه (آل عمران) لإثبات الدعوة الجامعة في قوله - سبحانه وتعالى - (يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) البقرة: 21 فأثبت الوجدانية لله - عز وجل - بإبطال إلهية غيره بإثبات أنَّ "عيسى" - عليه السلام - الذي كان يحيى الموتى عبده، فغيره بطريق الأولى، فلمَّا ثبت أنَّ الكلَّ عبده دعت سورة (النساء) إلى إقبالهم إليه، واجتماعهم عليه. ومما يدلُّ على أنَّ القصد بها (أي آل عمران) هو التوحيد تسميتها بـ"آل عمران" فإنَّه لم يعرب عنه في هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه، فهو النَّاجُ الَّذِي هو خاصَّة الملك المحسوسة، كما أنَّ التوحيد خاصته المعقولة. والتوحيد موجب لزهرة المتحلِّي به، فلذلك سميت الزهراء " ¹

وفي مقدمة حديثه عن سورة "النساء" يربط (البقاعي) ربطاً دلالياً بين هذه السورة وسورتي البقرة والفاتحة فيقول: "مقصودها: الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه " آل عمران"، والكتاب الذي حدث عليه "البقرة" ؛ لأجل الدين الذي جمعته "الفاتحة" تحذيراً مما أراده "شاس بن قيس"، وأنظاره من الفرقة " ²

وبالمناسار نفسه يربط (البقاعي) بين مقصود سورة المائدة وما قبلها:

¹ - المرجع السابق ج 4 / 195. 196. 197.

² - المرجع نفسه ج 5 ص 169

" مقصودها الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق شكراً لنعمه واستدفاعاً لنقمة، وقصة المائدة أدل ما فيها على ذلك، فإن مضمونها أن من زاغ عن الطمأنينة بعد الكشف الشافي والإنعام الوافي نوقش الحساب فأخذه العذاب، وتسميتها بالعقود أوضح دليل على ما ذكرت من مقصودها وكذا الأخبار"¹

و مقصود سورة "الأنعام" لا ينفرد عن عقد ما تقرر في سورة البقرة وما تلاها من سور: " مقصودها: الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد بأنه الحاوي لجميع الكمالات من الإيجاد والإعدام والقدرة على البعث وغيره "²

ينتقل بعد هذه الإشارة في مطلع السورة إلى تفصيل التقاطعات بينها وبين السابقة فيقول: " فقد لاح أن مقصد السورة الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب الذي تبين أنه الهدى من توحيد الله والاجتماع عليه والوفاء بعهوده بأنه سبحانه وحده الخالق الحائز لجميع الكمالات من القدرة على البعث وغيره، وما أنسب ذلك بختم المائدة بذكر يوم الجمع وأن لِمَلِكِهِ جميع الملك، وهو على كل شيء قدير، وهذه السورة أول السور الأربع المشيرة إلى جميع النعم المندرجة تحت النعم الأربع التي اشتملت عليها الفاتحة، وكل سورة منها مشيرة إلى نعمة من النعم الأربع، فقله: (خلق السماوات والأرض) الآية ثم (خلقكم من طين) ثم (وما من دابة في الأرض) [الأنعام: 38]، متكفل بتفصيل نعمة الإيجاد الأول لجميع العالمين من السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من آدمي وغيره المشار إليه في الفاتحة برب العالمين كما تقدم."³ ثم يضيف في ربط وجهة الخطاب في هذه السورة بما قبلها فيقول: " ولما تكفلت السور المتقدمة بالرد على مشركي العرب واليهود

¹ - المرجع السابق ج 6 / ص 1 و 2

² - المرجع نفسه ج 7 / ص 1

³ - المرجع نفسه ج 7 / 5

والنصارى مع الإشارة إلى إبطال جميع أنواع الشرك، سيق مقصود هذه السورة في أساليب متكفلة بالرد على بقية الفرق، وهم النثوية من المجوس القائلون بالهين اثنين وبأصلين: النور والظلمة،¹ والمتأمل بصبر وأناة يتضح له أن (البقاعي) بدأ بالفاتحة فربط ربطا موضوعيا بينها وبين (البقرة) فجاءت هذه مفصلة لتلك مع ارتباطهما معا في تبيان أصول العقيدة لينتقل إلى ربط هذا المقصود بمقصود (أل عمران) وقد وضحت معالم هذا التوحيد لينتقل بعدها إلى الربط بمقصود سورة (النساء) من ضرورة الاجتماع على الإيمان ومكارم الخير ثم ما قامت عليه سورة (المائدة) من ضرورة الوفاء بالعقود وأهم عقد يجب الوفاء به هو الذي يربطنا بخالقنا من ضرورة توحيده إلى الربط بسورة (الأنعام) وقد دلت هذه السورة على كل ما سبق .

وفي مفتتح سورة (لقمان): تبدأ معاينة (البقاعي) من هذه السورة مرورا عبر سور كثيرة وصولا إلى سورة البقرة وهو يتتبع الروابط الخفية والظاهرة التي تربط بين سورة لقمان وما قبلها من السور بتدرج سلس يفضي إلى أم الكتاب (البقرة) لتتأمل جزءا من تلك المعاينة في هذا النص: "مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللازم منه حكمة منزله سبحانه في أقواله وأفعاله، وقصة لقمان المسمى بها السورة دليل واضح على ذلك كأثمه - سبحانه وتعالى - لما أكمل ما أراد من أول القرآن إلى آخر براءة "التي هي سورة غزو الروم، وكان - سبحانه وتعالى - قد ابتدأ القرآن بعد "أم القرآن" بنفي الريب عن هذا الكتاب وأنه هدى للمتقين واستدل على ذلك فيما تبعها من السور، ثم ابتدأ سورة "يونس" بعد سورة غزو الروم بإثبات حكمته، وأتبع ذلك دليله إلى أن ختم سورة الروم، ابتدأ دورا جديدا على وجه اضخم من الأول فوصفه في أول هذه التالفة للروم بما وصفه به في "يونس" التالفة لغزو الروم، وذلك الوصف هو الحكمة، وزاد أنه هدى وهداية للمحسنين، فهؤلاء

¹ - المرجع السابق ج 6 / 7

أصحاب النهايات، والمتقون أصحاب البدايات، ولمّا أثبت في " آل عمران " أنّه أنزل بالحق أثبت في " السجدة " تنزيله ونفي الريب عن أنّه من عنده - عز وجل - وأثبت أنّه الحق واستمر فيما بعد هذا من السور مناظرًا في الأغلب لما مضى كما يعرف ذلك بالإمعان في التذكّر والتأمّل والتدبّر¹ وبعد أن تستوفي المعاينة المفصل الأولى من مجموع صور القرآن على نفس الإيقاع رسدا للعلاقات الممكنة بين مقاصد السور ينتقل (البقاعي) إلى رصد رابط بين المفصلين من القرآن في مفتتح سورة الحجرات حيث يقول في مقصودها

"حاصل مقصودها مراقبة النبي - ﷺ - في الأدب معه؛ لأنها أوّل المفصل الذي هو ملخص القرآن الكريم، كما كان مقصود (الفاحة) التي هي أوّل القرآن مراقبة الله - عز وجل - وابتدئ ثاني المفصل بحرف من الحروف المقطّعة، كما ابتدئ ثاني ما عداه بالحرف المقطّعة"²

ثم يستفيض في تحديد جزئيات تربط مقصود هذه السورة بمقاصد ما سبق من السور³

ولعله قد تبين لنا من هذه العينات كيف تتبع (البقاعي) مقاصد السور سورة فسورة وإن كنا لم نتعرض لكل السور، منع من ذلك امتداد النص الكريم واستحالت رصد العينات كلها، ومع ما وقفنا عليه من هذه الإشارات فإننا نوقع بأن (البقاعي) بما أوتي من نفس طويل ونفاذ بصيرة وقدرة عجيبة على الاستقراء والوصف لم يغفل مطلقا سورة دون ربطها بما قبلها وما بعدها مع امتداد هذا الربط عبر مجموع السور القريبة من السورة المعاينة قبلها وبعدها وأن هذا التوصيف يتناول دقائق

¹ - المرجع السابق ج 15 ص 139 و 140

² - المرجع نفسه ج 18 ص 349 و 350

³ - ينظر المرجع نفسه ج 18 ص 351، 352 و 353

وجزئيات في مستويات عدة دلالية، لغوية وبلاغية يحتاج فيها القارئ لهذا التفسير إلى حضور فكر، وصبر نفس، وتتبع بروية وأناة .

المرجعيات التي أنتجت فكر البقاعي

والقارئ الدقيق لمنهج (البقاعي) في تفسيره هذا يكتشف عبقرية الرجل، وخبرته العميقة بدقائق اللغة وأسرارها ولطائفها، فلا تمر اللفظة إلا وقد قلبها على وجوه عدة، وأحصى معانيها ومختلف توصيفاتها وتوظيفاتها، ثم ينتقل الى التراكيب فيقارن بين مختلفها مع بسط الحديث في مختلف الدلالات وأوجه التباين، وهو في الآن نفسه يشغل باستقراء مشكلات الإعراب وأوجهه المتباينة، ثم يعمد إلى خفايا التصريف المعجمي، معرجا على البديع والبيان في أغلب الآيات، ثم ينتقل بك إلى حقل الأصوات والقراءات فيعين كل آية وقد أورد جل القراءات المختلفة، فيقرأ كل مظهر من مظاهر الخلاف رابطا إياها بدلالة الآية، عاقدا الصلة بين هذه الآية وما قبلها وما بعدها، وقد يورد في سياقات معينة أقوال العلماء والفقهاء وخلافاتهم مع الدليل والترجيح رادا القارئ إلى كتب الفقه والحديث والإعجاز واللغة، وبنفس طويل تجده يرد على الفرق والطوائف بمنطق دقيق، منزها كلام الله _عز وجل_ عن شطحات بعض الفرق، وهو في كل هذه الرحلة المترامية الأطراف لا يخرج عن النص القرآني، رابطا كل شاردة وواردة بالنص، على أساس من التناسب والاتساق ' معتمدا ذلك الأساس الذي وعاه كثير من جهاذة التراث ممن اشتغلوا على القرآن الكريم، والذين مر ذكر بعضهم في هذه المقاربة، وهو تفسير القرآن بالقرآن، وهو الأساس الذي تمثله (البقاعي) وتشبع بمفرداته، ووضعه موضع التطبيق، فأبدع (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، تلك المدونة التفسيرية التي تجاوزت عصرها بما قرره من إجراءات محكمة في تحليل الخطاب القرآني تحليلا لا يبتعد كثيرا عن مقررات تحليل الخطاب المعاصر في بعض جزئياته التي

ترتبط بالأدوات السياقية والتداولية والنصية فضلا عن مقارنة العتبات النصية وكذا بنية الاتساق بتوصيفات تركيبية، دلالية، بلاغية وصوتية، وإن اعتمدت ظاهرة التناسب آلية للمقاربة ، ولست أجد بعد هذا التوصيف الدقيق مانعا للقول بأن جهازة تراثنا من علماء القرآن والأصول والتفسير، (والبقاعي) عينة منهم أبدعوا أيما إبداع في الممارسة النصية بكل تفاصيلها وجزئياتها ومسالكتها، وبصرف النظر عن عدم التطابق المصطلحي التراثي والغربي الحديث وهو أمر طبيعي... فإن المنجز التراثي تجاوز كثيرا المنجز الغربي في مقولات عدة.

خاتمة

حاولت هذه المقاربة لبعض مفردات منجز (البقاعي) أن تستقرئ إجراءات التحليل التناسبي التي اعتمدها المصنف جهازا قرائيا للنص الكريم يهدف من وراءه التأكيد على أن النص القرآني متسق، منسجم ومتماسك بكل التوصيفات التركيبية المعنوية الدلالية التداولية ومع أن مقاربتنا ركزت على جانبين أولهما الشكلي ثم الدلالي مع إشارات عن التوصيف التداولي في المستوى الثالث إلا أن العاكف على مدونة (البقاعي) باهتمام وإلمام وصبر يكتشف روعة الأداء الذي أظهره هذا الرجل الفذ في تجلية جل المستويات التي تكشف عن التماسك النصي للخطاب القرآني اتساقا وانسجاما ولا نبالغ ونحن مستعدون لتحمل تبعات هذا التصريح أن نقول بأن (البقاعي) بمنجزه هذا الموسوم بـ: (نظم الدرر في تناسب الآيات والصور) قد تجاوز في بعض المستويات الدرس اللساني النصي الحديث

إن (نظم الدرر في تناسب الآيات والصور) ليس تفسيرا فحسب بل إنه مشروع قرائي لساني بامتياز أنجز به البقاعي مبادئ متينة لمنظومة تراثية أصيلة في تحليل الخطاب تستمد مفرداتها من أنساق معرفية متنوعة (نحو علم المعاجم البلاغة علم القراءات علوم القرآن علم الأصول الأعجاز علم

المناسبة المنطق علم الكلام التاريخ....) كما استثمر فيه قراءات واعية وناضجة لمنجزات الذين سبقوه واستوعب في هذه القراءات أجود ما تم من الاشتغال على القرآن الكريم ورغم أن البقاعي كان متواضعا في طرحه إلا أنه استحق بكل موضوعية وتجرد أن يكون موسوعة عصره في هذا الفن من التفسير بل إنه تجاوز عصره بهذا الفكر الجريء الذي ثورَ على حد تعبير الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود _ القرآن فأخرج منه هذه الكنوز .

الفصل الثالث

السياق آلية للاتساق النصي

الفصل الثالث: السياق آلية للاتساق النصي

المبحث الأول: في تحديد الماهيات

مقدمة

إن نظرة فاحصة في التراث العربي القديم تكشف عن حضور متميز لمقولة السياق، هذا الحضور الذي تتنازعه حقول معرفية عدة، أهمها: البلاغة، النحو، نقد الشعر، التفسير، علم الأصول، علوم القرآن وإعجازه، وهو تتازع أمد الدرس السياقي بمادة ثرية تؤكد المدونات التراثية الكثيرة - على اختلاف مرجعياتها المعرفية - هذه المدونات التي أدرجت مباحث السياق ضمن منظومة معرفية صلبة تناولت في _الغالب_ لغة القرآن بالمبحث المفصل والاستقراء الدقيق انطلاقاً من أن القرآن الكريم يعدُّ أسمى تجلٍ للغة العربية

وفي النقاش الدائر حول مقولة السياق بين المنجز العربي القديم والمنجز الغربي الحديث جدلٌ تتجاذبه إرادتان، إحداهما تنزع إلى اعتبار مباحث السياق في التراث العربي لم تتضح بالقدر الذي يؤهلها أن تكون منظومة إجرائية منهجية واضحة المعالم ومبررهم في ذلك أن هذه المباحث لم تكن شأن علوم أخرى كالنحو والبلاغة والفقه وغيرها من العلوم مدرجة ضمن مصنفات قائمة بذاتها وأن ما وصلنا مجرد إشارات عابرة لا ترقى أن تكون نسقاً معرفياً محدداً بقواعد وإجراءات، وهو تصور غير موضوعي البتة تُسفه المعايير الدقيقة لذلك الإرث الثمين الذي خلفه القدامى والذي يكشف _بما لا يدع أدنى مجال للشك_ عن مادة ناضجة متبلورة ومكتملة في قضايا السياق والبحث الدلالي والتفكير التداولي، ويكفي أن نقلب صفحات هذا التراث ليمدنا بمنظومة نظرية وأخرى تطبيقية تناولت المباحث السياقية بإحاطة والمأم .

أما الإرادة الثانية فهي رغبة لدى فريق من الباحثين يقف عيانا على هذا الإرث العظيم ويعرف تفاصيله ويؤمن بجدارته وبجدواه لكن تعوزه إرادة التأكيد وقد لا يوفق في كل الأحوال للبرهنة على ما يؤمن به، وبين هؤلاء وهؤلاء نجد ثلة من الدارسين المحدثين ممن امتلكوا الرغبة والقدرة، فهم ينافحون عن هذا التراث بحجة دامغة ومنطق سديد .

وموضوع القيمة - الذي يروم هذا الفصل من البحث الكشف عنه و البرهنة على مصداقيته - هو أن مباحث السياق - بتفاصيلها الدقيقة - في التراث العربي القديم كانت متبلورة وناضجة ؛ قد تتفاوت درجة الاشتغال لدى أعلام التراث عمقا وإحاطة، أو من جيل لجيل نضجا وتبلورا، أو من حقل معرفي لآخر دقة وثراء، لكن الثابت بالاستقراء أن الدرس السياقي أبدا لم يكن غائبا، ولم يكن تواجهه - في ملكه القدامى - عارضا، اعتباطيا تحكمه البساطة والسطحية، بل كان ظاهرة نسقية متميزة وناضجة، محكومة بأنساق معرفية متداخلة، ومتباينة.

ومبرر هذا التأكيد الذي نسوقه _ها هنا_ على فاعلية السياق في تراثنا العربي القديم بتنوع مرجعياته الفكرية، ومحفزاته والحقول المعرفية التي يمتد منها ، هو ليس ردًا على المترددين أو المشككين في حق هذا المنجز المعرفي الأصيل فحسب، بل ثمة مبررٌ إجرائيٌ تقتضيه دواعي البرهنة على عمق الممارسة النصية في هذا التراث الثري الذي اشتغل على أعظم مدونة لغوية، وهي القرآن الكريم، قراءة، بحثا، وتأصيلا، وهذا المبرر هو أهم دوافع بحثنا هذا، يضاف إليه مبررٌ لا يقل أهمية عن سابقه وهو عدم تقويت فرص الاستفادة من هذه المادة الغزيرة التي تضع الدارس العربي الحديث أمام إمكانات كثيرة لتأسيس جهاز مكتمل في البحث السياقي الدلالي والتداولي بمرجعيات تراثية عربية صرفة .

وتقتضي هذه الدراسة أن نضع بين يديها جملة من المساءلات تصوغ الإشكالية بوضوح ودقة، وتوجه مسار البحث وجهة تفضي إلى مخرجات ذات مصداقية يتم التأسيس عليها، هذه المساءلات هي:

ما المقصود بالسياق؟ ما هي القواعد التي ينبني عليها؟ ما هي الملامح التي يتجلى من خلالها في التراث العربي القديم؟ وما طبيعة الحقول المعرفية التي احتضنت مقولة السياق وهل اختلف سمات التجلي من حقل لآخر؟ وبتعبير أدق وشامل كيف فهم القدامى السياق؟ هل كانوا سيان في هذا الفهم؟ أم ثمة تباين واختلاف؟ وهل كانوا على وعي بدور السياق في تحقيق الاتساق النصي؟

في تحديد الدالتين اللغوية والاصطلاحية للسياق

الدلالة اللغوية

في هذا المدخل الوجيز سنحاول معاينة الدلالة اللغوية لمفهوم (سياق) في بعض المصادر والمعاجم المعروفة وعلى الرغم أن هذه التعريفات تكاد تتفق في التحديد، وتصادف القارئ في كل المراجع والبحوث التي تناولت مباحث السياق، إلا أنني أجذني مدفوعا في هذا الاتجاه بدافع مقارنة التعريفات اللغوية بالتعريفات الاصطلاحية ومدى تقارب التعريفين

يكاد المعنى اللغوي للفظ (السياق) ومشتقاته يتفق بين كل من أورد هذه المعاني عدا بعض الجزئيات مما يتضح من خلال التوصيف الذي سيأتي بعد معاينة تواتر ملفوظ (سياق) ومشتقاته في القرآن الكريم

1 تواتر ملفوظ سياق ومشتقاته في القرآن الكريم

وردت كلمة سياق بمشتقاتها في هذه المواضع حسب ترتيب سور القرآن الكريم :

أولاً: في سورة الأعراف الآية 56

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نُّفَالًا تُقْنَتُهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الأعراف 56.

ثانياً: سورة الأنفال: الآية 6

قَالَ تَعَالَى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ الأنفال 6

ثالثاً: سورة مريم الآية 86

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٨٦﴾﴾ مريم: 86

رابعاً سورة السجدة الآية 27

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ السجدة: 27

خامساً سورة فاطر الآية: 9

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ فاطر: 9

سادساً سورة الزمر الآيات 71، 72، 73

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا شَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا

خَالِدِينَ ﴿٧٢﴾ الزمر: 71- 73

سابعا سور ق الآية 21

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَآتَ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ ق 21

بالرجوع إلى المواضع التي ورد فيها هذا اللفظ نجد أن معناه يتنزل في حقول دلالية ثلاثة

أولاً: للدلالة على رحمة الله تعالى بعباده حين يسوق الماء فيحيي الأرض بعد موتها وذلك في السور التالية: (الأعراف فاطر والسجدة)

ثانياً: للدلالة على الموقف الجلل الذي يقفه العباد يوم القيامة يوم يساق الذين كفروا إلى جهنم (في سورة مريم والزمر) وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا (في سورة الزمر) ويوم ينفخ في الصور فتأتي كل نفس معها سائق وشهيد، السائق من الملائكة، والشهيد: شاهد عليه من نفسه (سورة ق)

ثالثاً: للدلالة على موقف عصيب شبيه بالموت وهو ذلك الموقف الذي يجادل فيه بعض من المؤمنين النبي ﷺ في أمر الخروج للقاء الكفار كأنما يساقون إلى الموت (الأنفال)

وعلى الرغم من اختلاف هذه الحقول الدلالية إلا المعنى المعجمي واحد في هذه المواضع من السور وهو الانقياد والتتابع وهو ما يتواتر في المادة التي سنرصدها في أهم المعاجم العربية

2 الدلالة اللغوية لملفوظ سياق

بالرجوع إلى بعض المعاجم اللغوية وتتبع أهم الدلالات على اختلاف مضامينها لرصد التباين الدلالي الممكن في استعمالات هذا الملفوظ، نورد هذه المادة :

قال (ابن فارس) " : السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء يقال ساق يسوق

سوقا .والسيقة :ما استيق من الدواب .ويقال :سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها"¹

ومعنى حدو الشيء أو حدو الإبل ساقها وغنى لها ليحثها على السير، ومعنى حدا توخاه ودفعه، ويقال حَدَّتِ الرِّيحُ السَّحَابَ: ساقَتْهُ و حدا الشيءَ حَدًّا: تبَّعه ويقال: لا أفعل ذلك ما حدا الليلُ النهارَ أبداً بمعنى ما تتابع الليل والنهار."²

ولا يبتعد (الزمخشري) و(الجوهري) عن هذه المعاني إذ نجد أن الأول يضيف دلالة السرد في قوله: " تساوقت الإبل :تتابع، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقه كذا، وجئتُك بالحديث على سوقه :على سرده"³. مع إضافة دلالة السرد

¹ - أحمد بن فارس بن زكريا القزويني معجم مقاييس اللغة تحقق عبد السلام محمد بن هارون دار الفكر بيروت 1399 هـ 1979 م 3 ص 117

² - المرجع نفسه

³ - أبو القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري أساس البلاغة مادة سوق تحقق محمد باسل عيون السود منشورات دار الكتب العلمية، ط 1 بيروت 1419 هـ 1998 م ص 484

فالمعنى هنا التتابع والتوالي. وهو المعنى نفسه الذي يورده (الجواهري) حين يقول: قال " ويقال ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم على إثر بعض... (وهذا المثال يرد في أكثر من معجم) .. والسياق نزع الروح"¹ بمعنى خروج الروح .

ويجمل (ابن منظور) كل هذه المعاني مع إضافات أخرى في هذا النص: " سوق: السوق: معروف. ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق سواق.... السوق، سميت بها لأن التجارة تجلب إليها وتساق المبيعات نحوها... وفي الحديث: (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه)؛ هو كناية عن استقامة الناس وانقيادهم إليه واتفاقهم عليه، ولم يرد نفس العصا وإنما ضربها مثلا لاستيلائه عليهم وطاعتهم له ،....وسواق يسوق بهن ، أي: حاد يحدو الإبل فهو يسوقهن بحدائهن، وسواق الإبل يقدمها ؛ ومنه: رويدك سوقك بالقوارير. وقد انسأقت وتسأقت الإبل تسأوقا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة متسأوقة. وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعزما ما تسأوق أي ما تتابع. والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضها. والأصل في تسأوق تتسأوق كأنها لضعفها وفرط هزالها تتخاذل ويتخلف بعضها عن بعض. وساق إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه، وإن كان دارهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما. وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها. والسياق: المهر. وفي الحديث: أنه رأى بعبد الرحمن وضرا من صفرة فقال: مهيم، قال: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال: ما سقت إليها ؟ أي ما أمهرتها، قيل للمهر

¹ - الجواهري معجم مقاييس اللغة 3 / 117

سوق لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهرا لأنها كانت الغالب على أموالهم، وضع السوق موضع المهر وإن لم يكن إبلا وغنما " ¹

فالمعاني هاهنا هي: التتابع والانقياد والتوالي وتقفي الأثر وخروج الروح من البدن. والمعنى نفسه عند (الفيروزبادي) مع إضافة معنى القريب والتزاحم في السير حيث يقول: " وساق الماشية سوقا وسياقة ومساقا، واستاقها، فهو سائق وسواق، والمريض سوقا وسياقا: شرع في نزع الروح، وفلانا: أصاب ساقه، وإلى المرأة مهرها: أرسله، كأساقه.. والمنساق: التابع، والقريب، ومن الجبال: المنقاد طولاً... . وتساوقت الإبل: تتابعت وتقاودت، والغنم: تزاحمت في السير " ²

وإجمالاً يمكن أن نحصر هذه المعاني اللغوية لكلمة سياق في هذه التحديدات: الحدو، التوخي، الدفع، التتابع، التوالي، الانقياد، الجلب، السرد، القرابة والتقارب، التزاحم، خروج الروح، ومهر الزوجة، التقفي، الجلب .

الدلالة الاصطلاحية لمفهوم السياق

إذا كان إيراد المعنى اللغوي لظاهرة ما يكفي لضبطه بالعودة إلى المعاجم والقواميس فإن المعنى الاصطلاحي لا يتأتى بسهولة بل يستلزم الخوض في المرجعيات المعرفية وتفاصيل تطور المصطلح عبر فترات زمنية ومتابعة ذلك الانتقال من مرحلة لأخر ومن اتجاه فكري معين إلى اتجاه آخر مما يستدعي استحضاراً معرفياً وتاريخياً قد يمتد عبر مراحل زمنية جد طويلة، لأجل ذلك لن يكون التحديد دقيقاً كل الدقة إذا أردنا مفاهيم جاهزة مبتورة عن سياقها الثقافي والتاريخي

¹ - ابن منظور لسان العرب مادة سوق ص 305

² - القاموس المحيط ص 825

والمعرفي ورغم ذلك سنورد مجموعة من التعريفات الاصطلاحية بشكل سريع وموجز ونترك تدقيق التفاصيل إلى المبحث الثاني من هذا الفصل.

المفاهيم الاصطلاحية بين التراث والمنجز الحديث

ورد في "قاموس اللسانيات" لـ(جان ديوبوا) تعريفاً للسياق: "السياق هو المحيط: وهو الوحدات التي تسبق و التي تلحق وحدة معينة"⁽¹⁾، والمقصود بالمحيط ظروف ممارسة الكلام أو إنتاج النص من معطيات اجتماعية وثقافية والعرف العام وغيرها من قرائن غير لغوية ترافق التكلم أو الكتابة ، وهو المستوى الذي يحدد بالمقام أما قوله الوحدات التي تسبق وتلحق وحدة معينة فالمقصود بالوحدات هنا التراكيب اللغوية وبالتالي فالتعريف هنا في شقه الثاني يشير إلى السياق اللغوي .

و في معجم القاموس السوسiolساني "السياق ينظر إليه تقليدياً على أنه ظواهر لغوية وغير لغوية تحيط بشكل لغوي أو نطق لغوي معين".⁽²⁾

و لا يختلف (كريستيان بيلون) و (بول فابر) عن تعريف (جان ديوبوا) فالسياق عندهما هو: " مجموعة الوحدات اللسانية التي تسبق و تلحق وحدة معينة"⁽³⁾. دون الإشارة إلى معطيات البيئة المتمثلة في المقام .

ويجمع(تمام حسان) بين المقام والمقال أي بين المعطيات اللغوية المكونة للسياق وبين معطيات الأحداث والبيئة التي ترافق المعطى اللغوي فيقول " المقصود بالسياق التوالي ومن ثم

¹)- Jean Dubois et autres, dictionnaire de linguistique, Larousse, paris 1989, mot contexte, p 120.

² . Swann, Joan, *et.all.*, Dictionary of Sociolinguistics, Edinburgh University Press, UK, 2004, p. 49.

³)- Christian Baylon et Paul Fabre, la sémantique, p 137.

يمكن أن ننظر إليه من زاويتين أولاهما توالي العناصر التي يتحقق بها السياق الكلامي، وفي هذه الحالة تسمى السياق سياق النص والثانية توالي الأحداث التي هي عناصر الموقف الذي جرى فيه الكلام وعندئذ نسمي السياق سياق الموقف¹ والسياق بهذا المعنى يأخذ مظهرين أحدهما لغوي تركيبى هو سياق النص، والثاني خارج حيز النص واللغة هو مجمل الأحداث والمواقف التي رافقت فعل الكلام ويسمى سياق الموقف.

و هو التعريف نفسه الذي يورده (جورج موان) في (قاموس اللسانيات) حيث يوضح بضرب مثال فيقول: "السياق يمكن اعتباره التعبير بواسطة وسائل لغوية بحتة، و هو ما يفرقه عن المقام... في المقام يشار إلى قلم فوق الطاولة، و يقال هاته لي، لكننا نكتب بخلاف ذلك: أعطني القلم الذي فوق الطاولة"⁽²⁾.

إن الذي حدده (جورج موان) والذي عناه (تمام حسان) هو نفسه الذي وجدناه في مصنفات كثيرة في التراث وعلى سبيل التمثيل فقط نورد تعريفا موجزا ل(بن تيمية) لا يبتعد كثيرا عن التعريفين السابقين: يقول " فإن الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحف به من القرائن اللفظية والحالية³ فالقارئ اللفظية هي بنية النص التركيبية أما الحالية فهي ما أشار إليه (تمام حسان) بعناصر الموقف الذي جرى فيه الكلام، أو ما يعنيه (ابن تيمية) بأسباب النزول ومعهود كلام العرب وما تعارفت عليه وغير ذلك من المفردات. ويضيف (ابن تيمية) موضحا موقع المعنى في ارتباطه بخصوص اللفظ تارة وبارتباطه بسياق الكلام "ينظر في كل آية وحديث

¹ - تمام حسان اجتهادات لغوية عالم الفكر ط1 مصر 2007 ص 237

² - George Mounnane, dictionnaire de la linguistique, presse universitaire, France , paris, 1974, p 83.

³ - ابن تيمية مجموع الفتاوى ج5 / ص 114

بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرائن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع، في باب فهم الكتاب والسنة " ¹. وبوضع هذا التحديدات حيال مفاهيم كثيرة لمدرسة السياق الحديثة بأعلامها الغربيين لا نجد إضافة نوعية في التحديد الاصطلاحي بل ربما تجاوز تعريف (ابن تيمية) الكثير من هذه التعريفات الحديثة ².

إن أهم ما يميز التعريفات السابقة _ على إيجازها _ أنها تناولت السياق بوضوح ببعديه اللغوي والمقامي مثلما أشارت إلى أهمية القرائن المرافقة لإنجاز فعل التلغظ مع التأكيد على تنوعها وامتدادها على حد تعبير الغزالي (فوق الوصف والحصص) مثلما أولت المخاطب و الظروف المرافقة لإنجاز الكلام أهمية كبرى، وبهذا الوصف يكون أهم ما يميز السياق الامتداد والفاعلية أو ما يعبر عنه فان ديك الديناميكية " الخاصة الأولى للسياق مما يتعين التوكيد عليها هي الصفة أو الميزة الديناميكية المحركة، فليس السياق مجرد حالة لفظ، وإنما هو على الأقل متوالية أحوال ألفاظ. وفضلا عن ذلك لا تظل المواقف متماثلة في الزمان وإنما تتغير، وعلى ذلك فكل سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث " ³.

وفي استقراء تحديدات أخرى بالمنظور غربي يقول (جون لاينز) محددا دور الموقف في توجيه السياق (وتعتبر النصوص مكونات للسياقات التي تظهر فيها أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها

¹ - المرجع السابق ج 6 ص 18

² - ينظر في المبحث الثالث من هذا الفصل السياق عند علماء الأصول

(3) فان دايك النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي تر عبد القادر قنيني إفريقيا الشرق

وتعديلها بشكل دائم بوساطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة¹ والمفهوم هنا بتوصيف (لاينز) لا يضيف جديدا قياسا بما قاله (ابن تيمية) و(الغزالي) .

أما (مايكل هاليداي) فيعرف السياق "النص الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهر، والنص الآخر لا يشترط أن يكون قوليا، إذ هو يمثل البيئة الخارجية للبيئة اللغوية بأسرها، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"² ولا يختلف هذا المفهوم عن غيره مما سبق ذكره بالتأكيد على القرينتين اللغوية والمقامية .ويقول (فندريس): " والسياس هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي بوسعها أن تدلّ عليها " ³ ويمدنا معجم تحليل الخطاب المتخصص لمجموعة من المؤلفين بهذا التوصيف للسياق:

" إن سياق عنصر ما (س) هو مبدئيا كل ما يحيط بهذا العنصر وعندما تكون (س) وحدة لغوية فإن محيط (س) يكون من الآن نفسه من طبيعة لغوية (المحيط اللغوي) وغير لغوية السياق المقامي الاجتماعي والثقافي " ⁴ وبقدر وضوح هذه التحديدات بقدر ما هو معبر عنها في المدونات التراثية بهذه الدقة

ويضيف أصحاب المعجم " ويستعمل لفظ سياق بحسب المؤلفين للإحالة خاصة إما إلى المحيط اللغوي للوحدة ويُفضل آخرون تسميته جريا على استعمال بدأ يعم (contexte)السياق المقالي

¹ - اللغة والمعنى والسياق جون لاينز تر عباس صادق الوهاب مراجعة د يونيل عزيز دار الشؤون العامة العراق بغداد 1987 ص 217

² - يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة دار الثقة للنشر والتوزيع، ط(1) مكة المكرمة 1410هـ ص33 - 34

³ - فندريس: اللغة، ترجمة الدواخلي والقصاص، مكتبة الأنجلو المصرية سنة 1950 م ص 231

⁴ - معجم تحليل الخطاب مجموعة من المؤلفين بإشراف باتريك شارودو و دومينيك منغنو تر عبد المهيري حمادي صمود المركز الوطني للترجمة _ تونس دار سيناترا 2008 ص 133

وإما إلى مقام التخاطب... ففي ما يتعلق بالسياق غير اللغوي ينتمي إلى السياق الضيق أو الأصغر مثلا الإطار المكاني الزماني والمقام الاجتماعي المحلي الذي ينخرط فيه التبادل التواصلية والمشاركون في هذا التبادل (عددتهم خصائصهم أوضاعهم وأدوارهم وكذلك العلاقة القائمة بينهم)¹ ويوجز صاحب (التاريخ الوجيز للسانيات) معنى السياق في مفردة موجزة وبسيطة حيث يقول: " المعنى وظيفة السياق"² ومع ما يبدو من بساطة هذا التعريف وإيجازه إلا أنه يختزل المقولات التي تؤسس للسياق ذلك أن السياق بمظهره اللغوي والمقامي وبمجموع القرائن التي تعضده إنما يهدف بالأساس إلى تحقيق المعنى فمتى تحقق المعنى المقصود فقد أدى السياق وظيفته وبهذا الوصف فالسياق ليس إلا تحقق المعنى .

هذه بعض من التعريفات الاصطلاحية العامة للسياق آثرنا فيها الأخذ من التراث ومن الحديث، ويبدو في هذه الشواهد أن الاتفاق بين القديم والحديث ظاهرا من حيث أنهما يحيلان إلى نوعين من السياق اللغوي والمقامي، مع الإشارة إلى أهمية القرائن المقامية وتنوعها بالإضافة إلى التنبيه على دور المتلقي في اكتمال فاعلية السياق.

¹ - المرجع السابق ص 133

² :- R. H. Robins: A Short history of Linguistics
Green and Co LTD. Second. Longman's Linguistics Library
impression 1969.. P. 213

المبحث الثاني: السياق في الممارسة التراثية

مدخل

رغم أن اتجاها من الباحثين المحدثين يجمعون على أن نظرية السياق جاءت مع العالم الانجليزي (فيرث) ثم توالى الدراسات الغربية بعده إثراء ونقاشا إلا أن الحقيقة غير ذلك فلقد عرف العرب القدماء قضايا السياق وتناولوا مقولاته بالدراسة والتحليل _كما سبقت الإشارة في المبحث السابق _ ولم يكن هذا التناول ضمن حقل معرفي واحد فقط، بل تواتر الدرس السياقي في حقول كثيرة ومع علماء كثر ويكفي للتدليل على كثرتهم أن نورد هذه الأسماء بدءا من علماء معاني القرآن أبو الحسن الكسائي، (هـ 189) (الفراء 207هـ) (الأخفش 215هـ) (الزجاج 311هـ) (النحاس 338هـ) ومن جاء بعدهم، وإذا انتقلنا إلى علماء القرآن وأصول الفقه وجدنا كل الذين اشتغلوا بعلوم القرآن وعلم الأصول قد أداروا نقاشا عميقا حول السياق بصريح لفظه أو بما دل عليه من المصطلحات الأخرى وقد كانت البداية مع الإمام الشافعي (204-150هـ)، ثم توالى مع الأمدى (551هـ 631هـ) وابن دقيق العيد (625 هـ 702 هـ)، (ابن تيمية 661هـ 728هـ) ابن القيم، (691هـ 751هـ) (الشاطبي 790هـ) (الزركشي 745هـ، 794هـ)، (السيوطي 849هـ 911هـ) وغيرهم أما أعلام التفسير فكثير منهم كانت مدوناتهم غنية بتلك المقاربات التطبيقية السياقية مستثمرين مخرجات الدرسين النحوي والبلاغي وعلمي أسباب النزول والمناسبة، وتفاصيل القراءات القرآنية وما قرره علماء الأصول نظريا حول قضايا الدلالة والسياق، والقارئ لتفسير (الزمخشري 467هـ 538هـ) مثلا يجد ذلك التأسيس النحوي والبلاغي للنص القرآني بما يفضي إلى فهم السياقات التي يتنزل فيها القرآن الكريم والأمر نفسه عند مفسرين آخرين قبله (كالطبري 224هـ 310هـ) أما (فخر الدين الرازي 606هـ) في تفسيره مفاتيح الغيب فقد

أسس لتفكير تداولي أصيل استمد مفرداته من مقررات تراثية خالصة. وما قيل عن هؤلاء يقال أيضا عن أعلام التفسير الآخرين (كالبعوي 516هـ) (محمد الشهرستاني 548هـ) (القرطبي 671هـ) (النيسابوري 850هـ) بإشاراتهم القيمة حول المناسبة وكذا (البقاعي 885هـ) بما أسس في تفسيره من إجراءات تربط بين المناسبة ومقتضى الحال (الألوسي 1270هـ) (وابن عاشور 1296هـ 1393هـ) وغيرهم من المفسرين ممن لم نذكرهم في هذه الصفحات.. كل هؤلاء لم يكن السياق غائبا في منجزاتهم وإن تفاوتت درجة تمثلهم، أم علماء الإعجاز فلم تخلو كتاباتهم من إشارات مهمة حول السياق ومن هؤلاء (الرماني 296هـ 384هـ) و(الخطابي 319هـ 388هـ) (الباقلائي 338هـ 402هـ) و(عبد القاهر الجرجاني 400هـ - 471هـ) وغيرهم، والأمر نفسه عند نقاد الشعر وعلماء البلاغة كـ، (الجاحظ 159هـ 255هـ) (ابن قتيبة الدينوري 213هـ 276هـ) (ابن طباطبا العلوي 322هـ)، (السكاكي 626-555هـ) ، (القرطاجني 684هـ) (ضياء الدين ابن الأثير 637هـ) (السجلماسي 704هـ) (ابن خلدون 732هـ 808هـ) ...

وإذا انتقلنا إلى علماء اللغة فتبدو الفكرة واضحة جلية عند (سيبويه 148هـ 180هـ - هـ) وقبله شيخه (الخليل بن احمد 100هـ 170هـ) والأمر نفسه عند (ابن جني 322 392هـ). وغير هؤلاء من علماء اللغة وهم أكثر...

وإذا كان الاستحضار قد مكننا من الإشارة إلى هذه الأسماء فهذا لا يعني وقوف الفكرة عند هؤلاء فحسب بل ثمة أسماء كثيرة جدا لم نذكرها لأن البحث لا يمتلك قدرة استيعاب كل الأسماء بمنجزاتها وهي بالتأكيد كثيرة جدا.

المحددات الإجرائية لظاهرة السياق في المدونات التراثية

إن المتأمل في المصنفات التراثية _على تنوعها_ يقف على تواتر هذه المقولات: (السياق)، (المقام)، (مقتضى الحال)، (الملائمة)، (وضع الأشياء في مواضعها)، (دلالة الاقتضاء) (النظم) (دلالة الانتظام)... ولا يعدم القارئ في التراث العربي الوقوف عندها سواء تعلق الأمر بعلوم اللغة ونحوها، أم بنقد الشعر وروايته أم بالبلاغة وفنونها أم بعلوم القرآن وإعجازه أم بعلم الأصول والتفسير أم بعلم الكلام والفلسفة... في كل هذه الأنساق لا تغيب هذه المفردات التي تدل على اتساع دائرة البحث في قضايا الدلالة والسياق مثلما تدل على أصالة هذا البحث في تراثنا العريق كما تحيل في مستوى آخر إلى ذلك التوجه الذي يتوخى في _ تلك المقاربات _ اشتراطات الترابط في الخطاب ونقد كل ما يخل بانتظام الكلام واتساقه بفعل غياب العلاقات السياقية. وتتفرع عن البحث في قضايا السياق مفردات متنوعة تُفصل الكيفيات والإجراءات التي تنتظم كي تحقق هذا المقصد المعرفي.

وبهذا الوضوح يتبين مبرر البحث في السياق لارتباطه بعلاقات الترابط والتماسك داخل النص ذلك أن " السياق يشمل بوجه عام جميع العلاقات المتبادلة بينه وبين مكونات التشكيل اللغوي الأخرى. أي أن السياق يؤكد أن الظاهرة لا يمكن أن تفهم منعزلة وإنما تفهم فقط بدراسة تشكلاتها وتأثيراتها وعلاقاتها المتبادلة ويساعد على جعل بناء العمل كله متماسكا ويمدنا بقراءة مترابطة للكل " ¹ إذا فالبحث في هذه القضايا السياقية هدفه هو البرهنة على اتساق الخطاب وانسجامه، وأنه بانتقاء محددات السياق ينتقي الاتساق فلا اتساق بلا سياق، ومن هذا المنطلق تتحدد مبررات الاشتغال على ظاهرة السياق لأنها هي التي تبرهن في جانب مهم على بنية

¹ - تامر سلوم نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر والتوزيع / ط 1 اللاذقية سوريا

الاتساق، فلاشتغال على السياق مرتبط عضويا بمباحث الاتساق والانسجام وهو من صلب الممارسة النصية ومن أبرز معاييرها، ولم يكن هذا الوعي الذي يربط بين السياق والممارسة النصية غائبا في ملكات القدامى بل بقدر حديثهم عن مقولات السياق، مقتضى الحال، المقام والنظم بقدر ما كانت إشاراتهم تؤكد على دور هذه المقولات في اتساق النص و تعالق أجزاءه، بل لم يخرج تحليلهم مطلقا عن الربط بين السياق ووظائفه الذي يعد التماسك والترابط من أهم هذه الوظائف .

لماذا هذه الإشارات _ التي تبدو ملحة _ ؟ للتأكيد مرة ثانية مثلما قد تأكد في الفصل السابق (التناسب آلية للاتساق) أن الاشتغال على النص في تراثنا حاضر أيضا من خلال مباحث السياق. وأن هذه المباحث مرتبطة بقضايا النص و الخطاب .

مع نقاد الشعر

اختلف نقد الشعر _ رغم بعض إشاراته القيمة _ عن الدرسين النحوي والبلاغي قدرة على الاستقراء والتحليل والتعقيد ولأسباب كثيرة _ ليس مقام هذا البحث التدليل عليها _ كانت المقاربات النقدية للنص الشعري القديم أشبه بالانطباعات الذاتية التي تتأسس على الذوق الشخصي وجزئية الأحكام ولم يكن بوسع تلك الانطباعات العامة أن تُتجزأ أنساقا منهجية يمكن الوثوق في مخرجاتها في كل الأحوال، فقد كانت مقارباتهم أشبه بالسجال الفني الجمالي الذي يمليه المجلس ثم ما يلبث أن يقع طي النسيان بمجرد أن ينفض المجلس ومع أنه قد وُجدت بعض المنجزات النقدية القيمة _ وهي قليلة _ قياسا بما أنجز في علوم اللغة والبلاغة وعلوم القرآن وأصول الفقه والإعجاز والقراءات ..إلا أن وجود هذه المؤلفات القليلة لم يكن ليؤسس ممارسة نقدية باتجاهات متباينة في خلفياتها المعرفية وفي أطروحاتها ولم يكن ليعطي للنقد الشعري ذلك الزخم والثراء الذي وجدناه في علوم أخرى

إن هذا التقدير النسبي لا يعني أن كل المساهمات التراثية النقدية للشعر العربي القديم كانت بهذه السذاجة والبساطة والعفوية بل ربما وجدنا بعضاً من المنجزات _ كما أشرت سابقاً _ تعمقت النص الشعري وبحثت في جزئياته وتفاصيله لكنها استثناءات تُحمد لهذا النقد وإن كانت لا تواكب ذلك التطور المذهل الذي عرفته الأنساق الأخرى التي أشرنا إليه والتي قاربت في غالب الأحيان النص القرآني.

وفي اتجاه التدليل على هذه العينات النقدية التي أشارت إلى ظاهرة السياق نورد نقاشاً لعلمين معروفين: (ابن طباطبا العلوي) (وحازم القرطاجني)

1 / المنجز النقدي في عيار الشعر لابن طباطبا

في مؤلف عيار الشعر (لابن طباطبا العلوي) إشارات مهمة يعاين بها الكاتب مواقف نقدية بحس فني رائع، تقف أمامه معجبا بذوق الرجل وعمق تصويره لخصائص النص الأدبي، ورغم أن بعض هذه الإشارات ربما انحدرت أحياناً نحو الانطباعية والذوقية إلا أن فيها ما هو قابل للاستقراء والتأسيس لمقولات نقدية كمفاهيم الشعرية وقضايا التلقي وإشارات مهمة في التناص، وهي مقولات ليست مساحتها هذا البحث الذي يتوجه أساساً نحو قضايا السياق والتماسك النصي لدى هذا الناقد.

يبدأ (ابن طباطبا) مقاربه بمدخل يحدد فيه مفهوم الشعر فيقرر أنه ينبغي أولاً على شرط النظم الذي يباين بالضرورة المنتور، ولهذا النظم _ بتقدير ابن طباطبا _ قواعد معلومة، محدودة تتبني هي الآخر على صحة الطبع وسلامة الذوق ومن اضطرب ذوقه وشق طبعه لم ينفعه تعلم العروض في أن يكون شاعراً " فَمَنْ صَحَّ طَبْعُهُ وَذَوْقُهُ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى الاستعانة على نَظْمِ الشَّعْرِ بالعروض الَّتِي هِيَ مِيزَانُهُ، وَمَنْ اضْطَرَبَ عَلَيْهِ الذَّوْقُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنِ تَصْحيحِهِ وَتَقْوِيمِهِ بِمَعْرِفَةِ

العروض والحدق بها حتى تصير معرفته الاستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه ¹ لينتقل بعد ذلك إلى توصيف أدوات الشعر، وما يميز هذا التوصيف هو أنه ملم بكل شروط الشعرية فضلاً على أنه يقارب السياقين اللغوي والمقامي بما في ذلك الإشارات الدالة على المحددات المرافقة لإنتاج النص وهي كثيرة _ في تصور (ابن طباطبا) _ يقول: "وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مرامه وتكلف نظمه، فمن نقصت عليه أداة من أدواته لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبأن الخل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة " ² والذي يعنينا من هذه الأدوات هو ما يحدد السياق بنوعيه اللغوي والمقامي، وما يشير إلى استحضار المتلقي لحظة إبداع النص، يقول: (ابن طباطبا) في معرض معاينة السنن التي تستعملها العرب في نظمها " التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب.... والوقوف على مذاهب العرب في الشعر، والتصرف في معانيه في كل فن قالت العرب فيه وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها، والسنن المستعملة منها، وتغريضها وتصريحها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها، وإيجازها، ولطفها وخلابها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن مبادئها، وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظاً من العبارة، والبأسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة " ³

ويبدو الشاهد سرداً لجملة من المعايير التي تحكم عملية الإبداع وبالتأمل في هذه المعايير فإنها ترتبط بالسياق اللغوي وتشير إلى جل العلاقات التركيبية والمعجمية والصوتية التي تنتظم بها

¹ - محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسني العلوي عيار الشعر تج عبد العزيز بن ناصر

المانع الخانجي - القاهرة ص 5/6

² - المرجع نفسه ص 6

³ - المرجع نفسه ص 6

العملية الإبداعية فضلا على ما تشير إليه من قرائن مقامية التي ستتحدد أكثر في القادم من الشواهد .

وفي موضع آخر يحذر (ابن طباطبا) من الجهل بهذه القواعد السياقية التي تفضي بالمبدع إلى الإخفاق في مراده: يقول "، واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستبردة، والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، حتى لا يكون ملقاً مرفوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة، والوشى المنمّم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتدّ الفهم بحسن معانيه كالتداذ السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد البناء يتركب عليها ويغلو فوقها، ويكون ما قبلها مسبوقاً إليها ولا تكون مسبوقاً إليه فتتلق في مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ مُنْقَادَةً لما تُرَادُّ لَهُ، غير مُسْتَكْرَهَةٍ وَلَا مُتَعَبَةٍ، مُخْتَصِرَةُ الطُّرُق، لَطِيفَةُ الْمَوَالِجِ، سَهْلَةُ الْمَخَارِجِ. وَجَمَاعُ هَذِهِ الْأَدَوَاتِ كَمَالُ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ تَتَمَيَّزُ الْأَضْدَادُ، وَلَزُومُ الْعَدْلُ، وَإِثَارُ الْحَسَنِ، وَاجْتِنَابُ الْقَبِيحِ، وَوَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا"¹ وبالتأمل في هذا الشاهد ندرك (ابن طباطبا) واعياً بجملة العلاقات التركيبية والمعجمية والصوتية التي تنتج السياق اللغوي مع ما يحيل إليه هذا الشاهد من ضرورة إدراك الشاعر للعلاقة المحكمة بين اللفظ والمعنى. و تعكس هذه الملفوظات التي تتواتر في نص (ابن طباطبا) (يكون كالسبيكة المفرغة،/ والوشى المنمّم،/ والعقد المنظم، والرياض الزاهرة،/ وتكون الألفاظ مُنْقَادَةً لما تُرَادُّ لَهُ،/ غير مُسْتَكْرَهَةٍ وَلَا مُتَعَبَةٍ، /مُخْتَصِرَةُ الطُّرُق، لَطِيفَةُ الْمَوَالِجِ، سَهْلَةُ الْمَخَارِجِ./ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا) مفردات السياق اللغوي

¹ - المرجع السابق ص 7

ويمدنا (ابن طباطبا) بشاهد تبدو فيه محددات السياق اللغوي أكثر وضوحاً ودقة ومع هذا الوضوح تتأكد أيضاً فاعلية السياق في إنتاج الاتساق والتماسك النصي من خلال ذلك التعالق بين أجزاء النص يقول (ابن طباطبا) " وأَحْسَنُ الشَّعْرِ مَا يَنْتَظِمُ فِيهِ الْقَوْلُ انْتِظَاماً يَنْتَسِقُ بِهِ أَوَّلُهُ مَعَ آخِرِهِ عَلَى مَا يُنْسَقُّهُ، قَائِلُهُ، فَإِنْ قُدِّمَ بَيِّنٌ عَلَى بَيِّنٍ دَخَلَهُ الْخَلَلُ كَمَا يَدْخُلُ الرِّسَائِلُ وَالْخُطَبُ إِذَا نُقِصَ تَأْلِيفُهَا. فَإِنَّ الشَّعْرَ إِذَا أُسِّسَ تَأْسِيسَ فُصُولِ الرِّسَائِلِ الْقَائِمَةِ بَأَنْفُسِهَا، وَكَلِمَاتِ الْحِكْمَةِ الْمُسْتَقْلَةِ بِذَاتِهَا، وَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ الْمَوْسُومَةِ بِاخْتِصَارِهَا، لَمْ يَحْسُنْ نَظْمُهُ بَلْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْقَصِيدَةُ كُلُّهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً فِي اشْتِبَاهِ أَوَّلِهَا بِآخِرِهَا نَسْجاً وَحُسْناً وَفَصَاحَةً وَجَزَالَةً أَلْفَاظٍ وَدِقَّةَ مَعَانٍ وَصَوَابَ تَأْلِيفٍ. وَيَكُونُ خُرُوجُ الشَّاعِرِ مِنْ كُلِّ مَعْنَى يَضِيفُهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَعَانِي خُرُوجاً لَطِيفاً، عَلَى مَا شَرَطْنَاهُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْقَصِيدَةُ كَأَنَّهَا مُفْرَعَةٌ إِفْرَاقاً، كَالْأَشْعَارِ الَّتِي اسْتَشْهَدْنَا بِهَا فِي الْجَوْدَةِ وَالْحُسْنِ وَاسْتِوَاءِ النَّظْمِ، لَا تَتَأَقَّصُ فِي مَعَانِيهَا، وَلَا وَهِيَ فِي مَبَانِيهَا، وَلَا تَكْلُفُ فِي نَسْجِهَا، نَقْضِي كُلَّ كَلِمَةٍ مَا بَعْدَهَا، وَيَكُونُ مَا بَعْدَهَا مُتَعَلِّقاً بِهَا مُفْتَقِراً إِلَيْهَا"¹ ولا يحتاج هذا الشاهد استقراءاً بما يفضي إلى تأكيد نضج الفكرة في ذهن (ابن طباطبا) سواء تعلق الأمر بإدراك السياق اللغوي _ وإن لم يذكره بصريح اللفظ _ أم إدراك الاتساق الذي يحكم النص الشعري وقد ذكره بصريح اللفظ .

وفي سبيل توضيح صورة ذلك النظم اللغوي المحكم بين الألفاظ والتراكيب فيما بينها يشاكل (ابن طباطبا) بين النسق اللغوي وأنساق أخرى (النسيج النقش صناعة الجوهر) يقول عن الشاعر الحاذق "ويكون كالنَّسَاجِ الْحَازِقِ الَّذِي يُقَوِّفُ وَشْيَهُ بِأَحْسَنِ التَّقْوِيفِ وَيُسَدِّيهِ وَيُنِيرُهُ، وَلَا يَهْلُهُ شَيْئٌ مِنْهُ فَيَشِينُهُ. وَكَالنَّقَّاشِ الرَّقِيقِ الَّذِي يَصْعُقُ الْأَصْبَاغَ فِي أَحْسَنِ تَقَاسِيمِ نَقْشِهِ، وَيُسْبِغُ كُلَّ صَبْغٍ مِنْهَا

¹ - المرجع السابق ص 213

حَتَّى يَتَضَاعَفَ حُسْنُهُ فِي الْعَيَانِ، وَكِنَاظِمِ الْجَوْهَرِ الَّذِي يُؤَلَّفُ بَيْنَ النَّفِيسِ مِنْهَا وَالثَّمِينِ الرَّائِقِ، وَلَا يَشِينُ عُقُودَ بَأْنٍ يُفَاوَتْ بَيْنَ جَوَاهِرِهَا فِي نَظْمِهَا وَتَنْسِيقِهَا،"¹

وتعكس هذه المحاكاة التي يعتمد إليها (ابن طباطبا) بين نسق اللغة والأنساق الأخرى صورة واضحة لذلك التشاكل بين العلاقات المحكمة داخل البنية التركيبية بما يحقق التماسك والترابط وبين الخيوط والأصباغ والجواهر وقد انتظمت هي الأخرى فيما بينها في علاقات منسجمة ومتناغمة بما يحقق مقصدية النسيج والنقاش وناظم الجواهر .

وفي إشارة مهمة تترجم وعي (ابن طباطبا) بالسياق المقامي وظروف إنتاج النص يقرر مجموعة من الشروط التي تستحضر المتلقي لحظة الشروع في إبداع القصيدة يقول متحدثا عن الشاعر المجيد الذي يعي صورة المخاطب، ويدرك مقامه ومنزلته "وَيُحْضِرُ لَبَّهُ عِنْدَ كُلِّ مُخَاطَبَةٍ وَوَصْفٍ، فَيُخَاطَبُ الْمُلُوكَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ جَلِيلِ الْمُخَاطَبَاتِ وَيَتَوَقَّى حَطَّهَا عَنْ مَرَاتِبِهَا وَأَنْ يَخْلُطَهَا بِالْعَامَّةِ، كَمَا يَتَوَقَّى أَنْ يَرْفَعَ الْعَامَّةَ إِلَى دَرَجَاتِ الْمُلُوكِ. وَيُعِدُّ لِكُلِّ مَعْنَى مَا يَلِيقُ بِهِ وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا حَتَّى تَكُونَ الْإِسْتِفَادَةُ مِنْ عَقْلِهِ فِي وَضْعِهِ الْكَلَامَ مَوَاضِعَهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ قَوْلِهِ فِي تَحْسِينِ نَسْجِهِ، وَإِبْدَاعِ نَظْمِهِ "²

وفي موضع آخر يشترط على الشاعر ضرورة " المعرفةُ بِأَيَّامِ النَّاسِ وَأَنْسَابِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ وَمَثَالِيهِمْ،"³ وهي كلها قرائن مقامية تحيل إلى سياق الحال .

¹ - المرجع السابق ص 8

² المرجع نفسه ص 9

³ - المرجع نفسه ص 6

وفي سياق التدليل بأمثلة على ضرورة معرفة الشاعر القرائن المقامية وإدراك ملابسات البيئة وأعرافها يقرأ (ابن طباطبا) نصا لامرئ القيس رابطا إياه بالسياق الثقافي الذي يفسره، يقول معلقا على " قول امرئ القيس:

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا ... مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقُقَالٍ

فَشَبَّهَ النُّجُومَ بِمَصَابِيحِ رُهْبَانٍ لِفَرَطِ ضِيَائِهَا وَتَعَهُدِ الرُّهْبَانِ لِمَصَابِيحِهِمْ وَقِيَامِهِمْ عَلَيْهَا لِتُزْهِرَ إِلَى الصُّبْحِ، فَكَذَلِكَ النُّجُومُ زَاهِرَةٌ طَوْلَ اللَّيْلِ، وَتَتَضَاءَلُ لِلصَّبَاحِ كَتَضَاوُلِ الْمَصَابِيحِ لَهُ. وَقَالَ ... :تُشَبُّ لِقُقَالٍ

لأنَّ أحياءَ العَرَبِ بالبادية إذا قَفَلَتْ إِلَى مَوْضِعِهَا الَّتِي تَأْوِي إِلَيْهَا مِنْ مَصِيفٍ إِلَى مَشْتَى، وَمِنْ مَشْتَى إِلَى مَرْبَعٍ أَوْ قَدَتْ لَهَا نِيرَانُ عَلَى قَدَرِ كَثَرَةِ مَنَازِلِهَا وَقِلَّتِهَا لِيَهْتَدُوا بِهَا، فَشَبَّهَ النُّجُومَ وَمَوَاقِعَهَا مِنَ السَّمَاءِ بِتَقَرُّقِ تِلْكَ النِّيرَانِ واجتماعِهَا فِي مَكَانٍ بَعْدَ مَكَانٍ عَلَى حَسَبِ مَنَازِلِ الْقُقَالِ مِنْ أَحيَاءِ العَرَبِ، وَيُهْتَدَى بِالنُّجُومِ كَمَا تَهْتَدَى الْقُقَالُ بِالنِّيرَانِ الْمُوقَدَةِ لَهُمْ¹

وعلى هذا المنوال تتواتر عينات كثيرة في مصنف (ابن طباطبا) تؤكد على ضرورة وعي الشاعر بملابسات البيئة وظروف إنتاج النص ومعرفة أحوال العرب وأعرافها تحت مسمى (سنن العرب وتقاليدها) يقول " وأمثلة لسنن العرب المستعملة بينها التي لا تفهم معانيها إلا سماعا؛ كإمساك العرب عن بكاء قتلاها حتى تطلب بثأرها، فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاها، وفي هذا المعنى [يقول الشاعر

¹ - المرجع السابق ص 33

من كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَاتِ نِسْوَتَنَا بَوَّحِهِ نَهَارِ
يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ يَلْطَمْنَ أَوْجُهُنَّ بِالْأَسْحَارِ
قَدْ كُنَّ يَكُنُّنَ الْوُجُوهَ تَسْتُرًا فَالآنَ حِينَ بَرَزْنَ لِلنُّظَارِ

يَقُول: من كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَسْتَدِلَّ بِبُكَاءِ نِسَائِنَا وَنَدْبِهِنَّ إِيَّاهُ عَلَى أَنَا قَدْ أَخَذْنَا بِنَّارِنَا، وَقَتَّلْنَا قَاتِلَهُ.¹

ويضيف (ابن طباطبا) أعرافا أخرى مما يتوجب على الشاعر معرفتها فيقول:

" وَكَسَفِيهِمُ الْعَاشِقَ الْمَاءَ عَلَى خَرَزَةٍ تُسَمَّى السُّلْوَانِ فَيَسْلُو، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْقَائِلُ.

يَا لَيْتَ أَنَّ لِقَلْبِي مَنْ يُعَلِّلُهُ أَوْ سَاقِيًا فَسَقَاهُ الْيَوْمَ سُلْوَانَا

وَقَالَ آخِر:

شَرِبْتُ عَلَى سُلْوَانَةٍ مَاءَ مُزْنَةٍ فَلَا وَحْدِيهِ الْعَيْشُ يَا مَيُّ مَا أَسْلُو²

وكإيقادهم خَلَفَ الْمُسَافِرِ الَّذِي لَا يُحِبُّونَ رُجُوعَهُ نَارًا وَيَقُولُونَ: أَبْعَدَهُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُ، وَأَوْقَدَ نَارًا إِثْرَهُ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ:

وَدَمَّةٌ أَقْوَامٍ حَمَلَتْ وَلَمْ تَكُنْ ... لِتَوْقَدَ نَارًا إِثْرَهُمْ لِتَنْدُمَ³

وتمتد هذه المعاينة لعدد العينات التي تقرأ النص الشعري محكوما بسياقه المقامي ومقتضيات

الأحوال والأعراف وهي قراءة تؤكد في هذا الاتجاه الحضور المكتمل لمفردات السياق المقامي في

تصور هذا الناقد⁴ ويختتم (ابن طباطبا) هذا السرد لتلك العينات بقاعدة مهمة تؤكد على ضرورة

¹ المرجع السابق ص 51 / 52

² - المرجع نفسه ص 54

³ - المرجع نفسه ص 54

⁴ - ينظر المرجع نفسه من ص 54 إلى ص 66

اكتساب هذه الخلفية المعرفية بتلك الأحوال والأعراف التي تُمكن من استنباط المعاني يقول: " فَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ لَا تُفْهَمُ مَعَانِيهَا إِلَّا سَمَاعًا. وَرُبَّمَا كَانَتْ لَهَا نَظَائِرُ فِي أَشْعَارِ الْمُحَدِّثِينَ مِنْ وَصْفِ أَشْيَاءٍ تَعَرَّضُ فِي حَالَاتٍ غَامِضَةٍ؛ إِذَا لَمْ تَكُنِ الْمَعْرِفَةُ بِهَا مُتَقَدِّمَةً عَسَرَ اسْتِنْبَاطُ مَعَانِيهَا، وَاسْتُبْرَدَ الْمَسْمُوعُ مِنْهَا " ¹

ويسوق (ابن طباطبا) مثالا غاية في روعة التدليل على احتمال انحراف القراءة الدلالية لنص ما بمنأى عن هذا التأسيس يقول معلقا على بيت أبي تمام

" كَقَوْلِ أَبِي تَمَام:

تَسْعُونَ أَلْفَا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ الثَّيْنِ وَالْعِنَبِ

وَكَانَ الْقَوْمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ يَتَوَاعَدُونَ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ بِإِزَائِهِمْ بِالْقِتَالِ، وَأَنْ مِيعَادَ فَنَائِهِمْ وَقْتُ نُضْجِ الثَّيْنِ وَالْعِنَبِ - وَكَانَتْ مَدَّةُ ذَلِكَ قَرِيبَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ - فَلَمَّا ظَفِرَ بِهِمْ حَكَى الطَّائِي قَوْلَهُمْ عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيعِ وَالشَّمَاتَةِ. وَلَوْلَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى لَكَانَ مَا أوردَه من أبرد الكلام وأغثه " ²

وفي قراءة أخرى لبيت النابغة نتأمل ذلك التعليق الموجز والمركز الذي يصدره (ابن طباطبا)

على قول النابغة:

وإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك أوسع

حيث يقول: (وإنما قال كالليل الذي هو مدركي، ولم يقل كالصبح لأنه وصفه في حال سخطه فشبهه بالليل وهوله، فهي كلمة جامعة لمعان كثيرة) ³.

¹ - المرجع السابق ص 66

² - المرجع نفسه

³ - المرجع نفسه ص 48-49

ويبدو التأسيس الذي يقيم عليه (ابن طباطبا) حكمه هو (سياق الحال) فاختيار الشاعر الليل عوض الصبح ليس اعتباطا بل هو مقصود بالذات لما يحققه من تلاؤم مع مقتضى الكلام وحال المخاطب والمخاطب، لأن الليل بهذا التوظيف ينسجم مع الحال التي كان عليها الملك وهو الغضب والسخط والوعيد مثلما ينسجم مع حال الشاعر من الخوف والرعب والتوجس وعلى هذا الأساس لا يسوغ وضع كلمة الصبح مكان الليل مع أن البيت لا يختل في حال وضعنا الصبح على المستويين التركيبي والصوتي وحتى على المستوى الدلالي إذ الليل يصل إلى نفس النقطة التي يصل إليها الصبح لو أراد الشاعر أن يعبر عن نفوذ الملك وسعة ملكه وقدرته على الوصول إلى الشاعر حيثما فرّ، لكن الشاعر كان دقيقا واعيا بملائمة هذا الملفوظ بالذات والناقد (ابن طباطبا) كان واعيا بقدر كبير بسر اختيار هذا الملفوظ (الليل)

وتبدو العلاقة التفاعلية بين روعة هذا البيت الذي _ برأي الشخصي _ لو قال النابغة فقط هذا البيت لكفاه شاعرية وبين قدرة القراءة النقدية (لابن طباطبا) .و التي تعكس جملة من التحديدات:

1اعتماد القراءة على المعطى السياقي الحالي وهذا أهم شيء قياسا بموضوع دراستنا 2 فهم القراءة لخفايا نفسية المبدع والحال التي كان فيه لحظة إنتاج النص بما يفسر ذلك البعد التداولي لهذه الإشارة النقدية وإدراك السياق النفسي 3 فهم الحال النفسية للمتلقى الراهن المقصود بالخطاب أصالة ألا وهو الملك النعمان بن المنذر 4قدرة هذه القراءة على صناعة أفق حيوي للتلقي لدى قارئ هذا البيت إذ يشعر هذا الأخير بعد قراءة النص وبعد الاطلاع على هذه الإشارة النقدية أنه يكتشف النص من جديد من خلال رؤية الناقد مما ينتج لدى

المتلقي معرفة بإمكانات خفية للغة هذا البيت 4 مساهمة هذه القراءة في إنتاج هذا النص

الشعري بما فكت من شفراته الخفية

وتبدو الإشارة إلى الدوافع النفسية المرتبطة بالمخاطب (الباث) في مقاربة (ابن طباطبا)

ملمحا مهما للوعي بالسياق النفسي، وقد يكون من المناسب إيراد شاهد نقدي تراثي يؤصل الفكرة

بوضوح، ذلك الذي وجدناه عند (ابن رشيق) حيث يشترط في ناظم الشعر أن يعي تلك النوازع

النفسية للمخاطب (المقصود بالخطاب): " أول ما يحتاج إليه الشاعر بعد الجدّ الذي هو الغاية،

وفيه وحده الكفاية، حسن التأني والسياسة، وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذلّ وخضع، وإن مدح

أطرى وأسمع، وإن هجا أخلّ وأوجع، وإن فخر خبّ ووضّع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف

حنّ ورجّع. ولتكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائناً من كان، ليدخل إليه من بابه، ويدخله في

ثيابه، فذلك هو سرّ صناعة الشعر، ومغزاه الذي تتفاوت به الناس، وبه تفاضلوا. وقد قيل: لكلّ

مقام مقال " ¹ فبعد إدراك مقاصد القول في ذات الشاعر توجب عليه أن يتمثل عاطفياً صورة

المخاطب (المتلقي) فيعي نوازعه لحظة النظم مع ضرورة أن يرتبط هذا الوعي بأغراض النص وما

يتوافق معها من عواطف، ولعل هذا الفهم الناضج لدى (ابن رشيق) لهذه الأحوال النفسية الماثلة

في ملكة الشاعر لحظة نظم القصيد يعد توصيفاً دقيقاً للسياق النفسي الذي يجب أن يراعيه الشاعر

بوصفه مكوناً مهماً يوجه الدلالة وجهة صحيحة، وهو في الآن نفسه تأكيداً على سعة فهم هذا

العالم الفذ لدقائق السياق، حتى كأنه بهذه الإشارة قد تجاوز نظرياً كل القائلين بالسياق النفسي من

اللغويين الغربيين المحدثين

¹ - أبو علي الحسين بن رشيق الأزدي القيرواني العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج 1 تحقق محمد محي الدين

عبد الحميد، دار الجبل ط 5 1401 هـ / 1981 م ص 199

وإذا انطلق (ابن رشيق) في مقاربه النظرية من النص الشعري فإن (ابن قتيبة) " ينقل الظاهرة إلى الكاتب داعيا إياه "أن يُنزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضع الكلام " ¹ ورغم أن إشارة (ابن قتيبة) ليست بذلك العمق الذي أورده (ابن رشيق) إلا أنها في اتجاه البرهنة على حضور سياق الحال ومراعاة أوضاع المتلقي/ المخاطب ضرورة ملحة.

وحتى تتمثل جمال بيت النابغة واتساقه وانسجامه بما يمتلكه من محددات سياقية أشرنا إلى بعضها نورد نصا شعريا آخر في _ سياق التمثيل والتدليل _ يقف على طرف نقيض من بيت النابغة، إنه بيت (أرطاة بن سهية) الذي لم يمتلك مقتضى الحال، وجهل سنن السياق، يورد (ابن طباطبا) حادثة هذا الشاعر مع الخليفة عبد الملك بن مروان يقول: " دخل (يعني الشاعر) على عبد المالك ابن مروان، فقال له عبد الملك: ما بقي من شعرك؟

فقال: ما أطرب ولا أحزن يا أمير المؤمنين، إنما يقال الشعر لأحدهما، ولكني قلت:

رأيت الدهر يأكل كل حي كأكل الأرض ساقطة الحديد

وما تبغي المنية حين تغدو سوى نفس ابن آدم من مزيد

وأحسب أنه سترك يوما توفي نذرهما بأبي الوليد

فقال له عبد المالك: ما تقول ثكلتك أمك؟

فقال: أنا أبو الوليد يا أمير المؤمنين. وكان عبد المالك يكنى أبا الوليد أيضا، فلم يزل يعرف

كرهه شعره في وجه عبد المالك إلى أن مات " ²

¹ -أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري أدب الكاتب تحق محمد الدالي مؤسسة الرسالة ص 19

² - ابن طباطبا عيار الشعر ص 204.

إن مخالفة سياق الحال، والجهل بمقتضى المقام الذي يحيط بواقعة إنتاج هذا النص والمحددات السابقة التي أشار إليها (ابن طباطبا) هي التي جعلت هذا الشاعر مثار سخط الخليفة الذي ظن أنه هو المقصود بالكلام لأن الخليفة يُكنى بأبي الوليد وللمصادفة أن الشاعر أيضا يُكنى بأبي الوليد وكان الشاعر يقصد نفسه حين أنشد هذه الأبيات لا الخليفة عبد الملك، ورغم أن هذا النص غاية في الروعة بعيدا عن سياق الحال الذي يرتبط بالمتلقي المقصود وهو الخليفة، إلا أنه _أي النص _ في هذا السياق المحدد بهذه الظروف التي أُنتج فيها قد فقد انسجامه رغم سلامته اللغوية ودقة تصويره ونبل مقصده لمبرر وجيه هو تعارضه مع القرائن المقامية ومقتضى الحال والجهل بطبيعة المتلقي تلك التي نبه عليه (ابن طباطبا) في الشواهد السابقة، وبرصد حال المتلقي المقصود وهو الخليفة يحيلنا هذا النص إلى خيبة أفق انتظار لديه.

وبالوقوف على هذه الإشارات الدالة يتأكد لنا أمرين في غاية الأهمية أما الأولى فهو الحضور المكتمل لظاهرة السياق بأهم مفرداته في تصور (ابن طباطبا) أما الأمر الثاني فهو تلك الممارسة النصية (الاشتغال على النص) التي تجلت في مقاربات هذا الناقد للنصوص الشعرية بما ينفي ادعاءً مجحفاً بغياب الممارسة النصية في تراثنا القديم واقتصار منجزاتهم في الاشتغال على الجملة .

الضبط الإجرائي مع حازم القرطاجني

يضع (حازم القرطاجني) القواعد المحكمة التي تُقَوِّم إبداعات الشعراء وفق منهج علمي دقيق والقارئ النافذ في مصنفه المتميز (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) يقف على نشاط معرفي منهجي دقيق يقارب به حازم أنساقا معرفية كثيرة (لسانية، بلاغية، نقدية دلالية تداولية إيقاعية

صوتية)، ورغم أن سياقنا هذا لا يمتلك قدرة استقراء هذه الأنساق وفحصها، إلا أنه من المهم أن نشير في اتجاه توصيف تصور حازم للبنية المنتظمة والمتسقة التي تسيطر على فكره وتوجه منحاه في هذا المؤلف القيم، حيث نجده _ قبل الشروع في تحليل نص المتنبي _ (أغالب فيك الشوق والشوق أغلب) يستهل مقاربته بتوصيف نسقي حيث يقول: " يقسم المعاني والعبارات على فصول، ويبدأ منهما بما يليق بمقصده أن يبدأ به، ثم يتبعه من الفصول بما يليق أن يتبعه به ليستمر هكذا على الفصول فصلاً فصلاً، ثم يشرع في نظم العبارات التي أحضرها في خاطره منتشرة فيصيرها موزونة، إما أن يبدل فيها كلمة مكان كلمة مرادفة لها، أو بأن يزيد في الكلام، فتكون لزيادته فائدة فيه، أو بأن ينقص منه فلا يخلّ له، أو بأن يعدّل من بعض تصارييف الكلمة إلى بعضها، أو بأن يقدّم بعض الكلام ويؤخر بعضاً، أو بأن يركّب في الكلام أكثر من واحدة من هذه الوجوه¹. فيبدو _ من خلال هذا الشاهد _ هيمنت البنية النسقية المترابطة على تفكيره .

بعبارة موجزة ومحددة يقرر (حازم القرطاجني)، أن الأقاويل الشعرية، محكومة بـ " انقياد الكلام لمقتضاه " ² ومقتضى هذا الانقياد لهذه الأقاويل الشعرية _ بلغة حازم " هو أن يكون الوضع والغرض على اتفاق " ³ ورب سائل عن تلك الكيفيات التي تحقق للنص الشعري هذا التلاؤم وبالتالي تتحقق له سمة الاتساق والانسجام، يجيب (حازم) مستعرضاً أنحاء التلاؤم التي يقع فيها الكلام وهي متباينة لكنها محددة: حيث يقول " منها أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى /ئتلاف

¹ - ابو حسن حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة دار الغرب الاسلامي بيروت 1981 ص 241.

² - المرجع نفسه ص 82.

³ - المرجع نفسه ص 83.

بعض حروف الكلمة مع بعضها، وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها، منتظمة في حروف مختارة متباعدة المخارج، مترتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما، ومنها ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال، ومنها أن تتناسب بعض صفاتها، مثل أن تكون إحداها مشتقة من الأخرى، مع تغاير المعنيين من جهة أو جهات، أو تتماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها، ومنها أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها من الكلم، أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها"

1

وبقراءة هذه الإجراءات نقف أولاً على جل محددات السياق اللغوي من جهة ثم بالتأمل في هذه المستويات الني يقترحها حازم تتأكد بنية الاتساق.

لنتأمل هذه المستويات:

1 منها ما تعلق بالأصوات ومخارجها بضرورة الانسجام الصوتي في مواقع الأصوات ومخارجها.

2 منها ما تعلق بالمفردة وموقعها أن تكون مواقع الألفاظ مناسبة لها بحيث لا يمكن أن تقوم مقامها ألفاظ آخر وكأن ذلك اللفظ إنما وجد لذلك الموقع لا يحيد عنه.

3 منها ما تعلق بالبنية التركيبية بالإسناد الصحيح ومراعاة سلامة التركيب .

4 منها ما تعلق بالجملة ما قبلها وما يليها. في ضرورة ارتباط هذه الجملة فيما بينها على أساس الملائمة بتوافق المعنى وتساوي الطول والقصر بما يحدد البنية المتسقة

5 عدم التفاوت في مقدار الاستعمال أن لا تكون بين هذه التراكيب تفاوتاً في الاستعمال

¹ - المرجع السابق ص 222.

6التناسب على مستوى الصفات بحيث تكون ثمة علاقات بين هذه التراكيب كأن تكون إحداها

مشتقة من الأخرى أو جوابا لها أو تفصيلا لمجمل في الجملة السابقة وغيرها من الصفات

7تماثل أوزان الكلم ومقاطعها أن تتوافق المقاطع وأوزان الكلام فلا تتنافر بنيتها الإيقاعية

8أن تكون كل كلمة قوية الطلب لما يليها: ضرورة أن تكون بين الكلمات ألفة وحسن تجاور فلا

تكون الكلمة نافرة عن أختها ينبو بها مكانها أو تكون غريبة حوشية بين أخواتها .

وبالتأمل في هذه المحددات الثمانية نجد أنها توخت التماسك النصي بما يحقق الاتساق

في بنياته التركيبية والدلالية والصوتية وانسجام الخطاب بمراعاة سياق الحال (الأوضاع

والأحوال التي أنتج فيها النص) وكل هذه المحددات تجتمع في السياق بقرينتيه اللفظية

والحالية، أي بنوعيه السياق اللغوي والسياق المقامي

وفي إشارة مهمة يعمق فيها (حازم) بعدا مهما في العلاقات السياقية يتمثل في منطق البيئة

وسلطة المحيط للذان يوجهان الدلالة بمقتضى ما يمكن تسميته بملاسات البيئة والمحيط أو

الفضاء المكاني، تتجلى هذه الإشارة في تعقيبه على الشاعر (خالد بن صفوان) حين قال

الشاعر

فإن صورة راقتك فاخبر فر بما أمر مذاق العود والعود أخضر

فعقب عليه حازم حيث " بنى على أن مرارة العود أكثر ما تكون عند اليبوسة، وأنها في

الخضرة على سبيل القلة، والأمر بخلاف ذلك، لأن وجود المرارة مع الخضرة هو الأكثر" ¹،

ولأن هذا البيت، خالف عرف البيئة، بدا غير منسجم رغم سلامة بنيته التركيبية والصوتية

ولأجل مخالفة ما تعارف عليه القوم بحكم البيئة استحق هذا البيت أن يوصف بـ " الغلط

¹ - المرجع السابق ص 146.

المستقبح في المعاني" ¹ ولا يقتصر العرف عند (حازم القرطاجني) على سلطة البيئة _ رغم أن هذه الإشارة مهمة جدا في معرض الحديث عن سياق المقام وظروف إنتاج النص _ بل نراه يعمم القاعدة على كل ما تعارف الناس عليه إذ يقول " إذا كان في اللفظة عرف في طريق من الطرق الشعرية فالواجب ألا تستعمل في مضاد ذلك الطريق" ² ويبدو العرف بهذا الوصف سلطة توجه السياق مع التنبيه على تنوع مصادر هذا العرف منه ما يرتبط بالبيئة ومنه ما يرتبط بوقائع معينة ومنه ما يرتبط بزمن أو ملمح ثقافي أو أو...وفي كل الأحوال ينبه (حازم) الشعراء على ضرورة الإذعان إلى هذه الأعراف " إنما وجب أن يستعمل في كل طريق الألفاظ المستعملة فيه عرفا لأن ما كثر استعماله في غرض ما واختص به أو صار كالمختص لا يحسن إيراده في غرض مناقض... ولأنه غير لائق به لكونه مألوفاً في ضده وغير مألوف فيه" ³ وبهذا التوصيف قد ينأى ملفوظ عن دلالاته المعجمية ويكتسب دلالة يستمدّها من البيئة أو عرف حتى تصير هذه الدلالة ملازمة لذلك الملفوظ بحيث لا يحسن توظيفه في غير هذا الوضع، ويبدو (حازم) حازماً صارماً في ضرورة أن يكون النص الشعري منسجماً متسقاً إلى المستوى الذي يُحظر فيه حضور مصطلحات ينبو بها النص ولا يتناغم معها حيث يقول " البصراء بهذه الصناعة، كأبي الفرج قدامة وأضرابه، قد نص جميعهم على قبج إيراد المعاني العلمية والصناعية والعبارات المصطلح عليها في جميع ذلك، ونهوا عن إيراد جميع ذلك في الشعر" ⁴

¹ - المرجع السابق ص 146.

² - المرجع نفسه ص 52

³ - المرجع نفسه ص 364

⁴ - المرجع نفسه

وتمتد مساحة العرض لتلك الأقاويل الشعرية _ بلغة حازم _ التي التي خالفت معايير مختلفة حالت دون انتظامها، من سنن ما أوعرف عام، فجاءت على غير اتساق محكم¹، وما ذلك إلا لأن "هذه الأشياء التي نبهنا عليها، من وضع ما لا يليق موضع ما يليق، وهو وضع غير مؤثر"²، ويؤكد مرارا على ضرورة أن ينتزل القول الشعري في الوضع اللائق " وإنما الوضع المؤثر وضع الشيء الموضع اللائق به، وذلك يكون بالتوافق بين الألفاظ والمعاني، والأغراض من جهة ما يكون بعضها في موضعه من الكلام متعلقا، ومقترنا بما يجانسه ويناسبه ويلائمه من ذلك"³ ويبدو الوضع اللائق ليس إلا تلك الشروط السياقية التي استعرضناه مع (حازم القرطاجني) بما يحقق تماسك النص وترابطه، ثم يحذر في مقابل ذلك من الوضع الذي لا يؤثر، وهو وضع تغيب فيه فاعلية السياق فيختل الاتساق، ويحكم المعاني التباين والتنافر " والوضع الذي لا يؤثر، يكون بالتباين بين الألفاظ والمعاني، والأغراض من جهة ما يكون في موضعه من الكلام، متعلقا ومقترنا بما يناقضه ويدافعه، وينافره"⁴ وواضح أن هذا النشاز والتنافر يصيب كل هينات الكلام بدءا بالألفاظ فيما بينها ثم في علاقة هذه الألفاظ بالمعاني وبالأغراض الذي سيقته له .

بين حازم القرطاجي و ميشال ريفاتار

يلتقي الناقد الفرنسي صاحب نظرية السياق (ميشال ريفاتار) (M.Riffaterre) مع (حازم القرطاجني) الذي سبقه بقرون في بعض محددات نظرية السياق ونقتصر على إشارة موجزة

¹ - المرجع السابق 148...152.

² - المرجع نفسه

³ - المرجع نفسه ص 153.

⁴ - المرجع نفسه ص 153.

ربما تضع المتتبع للدرس السياقي التراثي على دراية بذلك الإنجاز الذي تفتقت به قريحة الكثير من أعلامنا القدامى وما حازم إلا عينة بسيطة أمام ذلك الكم الهائل من هؤلاء الرواد

ينبه (حازم) بوضوح على مقولة التضاد¹ كقيمة دافعة تفضي إلى مقتضى الكلام، وهي دافعية تتفاعل مع جملة من الثنائيات الأخرى فيقول " فإن للنفوس في تقارن المتماثلات و تشافعيها، والمتشابهات، والمتضادات، وما جرى مجراها تحريكا، و إيلاعا بالانتقال إلى مقتضى الكلام"². وتبدو هذه الفكرة مهمة حين توضع حيال ما يقوله (ميشال ريفاتار) (M.Riffaterre) في نظريته في السياق، حيث يحدد (صلاح فضل) قيمة (التضاد) في السياق الأسلوبي عند (ريفاتار) في أنه "يخلق بنية مثلها في ذلك مثل بقية المتقابلات المتميزة في اللغة"³ وعلى هذا الأساس فـ " السياق الأسلوبي ليس هو التداعي، وليس هو التوالي الذي يحصر تعدد المعنى، أو يضيف إحياءات خاصة للكلمات بل هو نموذج لغوي ينكر بعنصر غير متوقع، والتضاد الناجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي"⁴.

يرى (ريفاتار) أن أهم محددات السياق الأكبر هو ذلك الانتقال الأسلوبي من سياق لآخر، وقد تعترض هذا الانتقال لفظة غريبة عن الشفرة المستعملة: " وفي مقابل هذا السياق الأسلوبي الأصغر، يحدد ريفاتار لونا آخر من السياق الأكبر، الذي يتمثل في نموذجين أحدهما:

أ- السياق - الإجراء الأسلوبي - سياق -

¹ - المرجع السابق ص 44 - 45.

² - المرجع نفسه ص 44 - 45.

³ - د. صلاح فضل علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته الهيئة المصرية للكتاب ط 2 القاهرة 1985 مصر ص

166.

⁴ - المرجع نفسه ص 166.

ويتميز هذا النموذج بالعودة إلى السياق الأول، بعد الإجراء الأسلوبى الذي مهد له، والمثل السائغ على ذلك النوع من السياق هو إدخال كلمة في السياق غريبة عن الشفرة المستعملة.... كأن تقول مثلا في وصف رحلة نهاية الأسبوع خرجت من منزلي بالمعادي مصطحبا معي القبيلة لنقضي يومين على شاطئ الإسكندرية.... فكلمة (القبيلة) كلمة دخيلة على السياق السابق واللاحق... مما يجعل لها تأثيرا مضادا للجزء الأول من العبارة، الذي يمثل السياق الأصغر الوارد قبل الكلمة المرسومة، وهي القبيلة، ثم تستأنف الجملة مسارها في إطار عادي مألوف، مما يكون النموذج الأول للسياق الأكبر¹.

ب- أما النموذج الثاني يضيف (صلاح فضل) مقرا مقولات (ريفارتار) " فيتكون من: السياق - الإجراء الأسلوبى كنقطة لسياق جديد - إجراء أسلوبى. أي أن الإجراء الأسلوبى هنا يولد مجموعة من الإجراءات من نفس الجنس، مثلا بعد إيراد كلمة قبيلة تأتي مجموعة من الكلمات والعبارات الملائمة لها، مثل الخيام، الأغنام، الصحراء، إلى غير ذلك مما يؤدي إلى حالة إشباع هذا الإجراء الأسلوبى، تنتهي بأن تفقد تلك الكلمات قدرتها على التضاد"² وبالرجوع إلى منجز (حازم القرطاجني) في إشارته إلى الصورة الالتفاتية يبدو التشاكل بينها وبين الانتقال الأسلوبى، يقول حازم: " والصورة الالتفاتية أن يجمع بين حاشيتي كلام متباعدي المآخذ والأغراض"³

وبالرجوع إلى عينات كثيرة من أصناف الالتفاتات _ كما يرى حازم _ نعاين ذلك الانتقال " منه ما يتراعى فيه الغرض الأول إلى الغرض الثاني من بعد على سبيل التدرج، ومنه ما يخلص

¹ - المرجع السابق ص 166.

² المرجع نفسه ص 168.

³ - حازم القرطاجني منهاج البلاغاء... ص 315 .

فيه إلى الشيء ما يليه من الكلام بغير تدرج، فلنذكر الآن مآخذ الشعراء فيما يتدرجون إلى مدحه أو ذمه أو يخلصون إليه خلوصة التفاتيا على جهة الاستطراد، أو لا يتدرجون إليه ولا يستطردون، بل يهجمون على المدح أو الذم هجوما¹

وفي سياق التطبيق والاستقراء يورد (حازم) بيتين اجتمع فيهما التخلص والاستطراد بصورة رائعة وهي

" قول مسلم:

أجذك لا تدري أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنتشر

أرقت لها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يذكر جعفر²

وبالتأمل في هذين البيتين نقف على اتجاه السياق من " النسيب " بداية لنخلص إلى سياق "المديح" عبر انعطافة الخطاب بانتقال مفاجئ ويتخذ سياق المديح سياقين اثنين، سياق مدح يحيى، ثم سياق مدح جعفر.

وحين يقرر (حازم) شروطا لهذا الانتقال بما يسميه الاحتيال " أن يحتال فيما يصل بين حاشيتي الكلام " ³ فذلك تأكيد أن الانتقال متى افتقد " الجامع الملائم " بين الطرفين نفر منه الذوق السليم " وكانت بمنزلة المستمر على طريق سهل بينا هو يسير فيه عفوا، إذ تعرض له في طريقه ما ينقله من سهولة المسلك، إلى حزنوته ومن لينه، إلى خشونته " ⁴

¹ - المرجع السابق ص 316

² - المرجع نفسه ص 316

³ - المرجع نفسه 318.

⁴ - المرجع نفسه ص 319.

ورغم أن الصورة واضحة في منجز (القرطاجني) إلى درجة التطابق مع (ريفاتار) مع التأكيد أن السابق في الوجود طبعا هو (حازم)، فإن فكرة السياق الأسلوبي بهذا الوصف موجودة في البلاغة العربية بصورة ناضجة ومكتملة وفضلا عن إشارة (صلاح فضل) فإن ناقدا معروفا هو (عبد الله صولة) ينبه إلى هذه الإشارة من خلال مقارنة بين (ريفاتار) و (الزمخشري) حيث يقول معلقا على نص للزمخشري: (هذا كلام يجعل الالتفات قريبا من مفهوم الأسلوب عند (ريفاتير) باعتباره منبها (Stimulus) يستدعي الاستجابة له من لدن القارئ أو السامع، ويأتي هذا المنبه أو التصرف الأسلوبي خرقا لما دأب عليه الكلام وتشبع به، فهذا عند (ريفاتار) هو السياق الأسلوبي (le contexte stylistique)¹.

ويضيف عبد الله صولة مترجما نص (ريفاتير): "السياق الأسلوبي (le contexte stylistique) عبارة عن نمط تعبيرى متبع يخرقه عنصر غير متوقع .."².

ويعمم (حازم) القاعدة بلفظ أنواع الشيء وضروبه إدراكا منه لذلك الإطار العام الذي يحكم السياق كله " وكلما وردت أنواع الشيء وضروبه مترتبة على نظام متشاكل وتأليف متناسب، كان ذلك أدعى لتعجيب النفس وإيلاعها بالاستمتاع بالشيء، ووضعها منها الموقع الملائم"³.

¹ - عبد الله صولة الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية دار الفارابي ط2 بيروت لبنان، ص 458 و 459

² Michael Riffaterre *Stylistique Structurale* Michael Riffaterre traduit de l'anglais par Daniel Essais De Stylistique Structurale Michael Riffaterre

نقلا عن عبد الله صولة الحجاج في القرآن ص 459

³ - حازم القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص 245.

تلك إشارات واضحة تأكد حضور السياق في تصور (حازم القرطاجني) وتأتي المقارنة الموجزة بينه وبين (ريفارتار) على مستوى مقولة السياق الأسلوبي والصورة الالتفاتية لتبرهن على اكتمال ذلك التصور في ذهن (حازم) .

السياق عند النحويين و اللغويين

بين سيبويه والخليل

حين نرصد إشارات الخليل بن أحمد (ت 175 هـ) - التي يوردها تلميذه سيبويه في الكتاب - حيث يقرأ بعض التراكيب النحوية بمقتضى السياقين اللغوي وسياق الموقف المحدد باعتبار العلاقة بين المخاطب والمخاطب وأحوال المقام _، نجد تصورا ناضجا، واضح المعالم لا يختلف كثيرا عن تصورات الدرس السياقي الغربي الحديث.

وهو يستقصي العلاقة بين داليتين إحداها ظاهرة والأخرى مضمرة يعمد (الخليل) إلى الربط بينهما بدلالة السياق: يقول وقد استوقفه قول الشاعر

إِذَا تَعَنَّى الْحَمَامُ الْوُزُقُ هَيَّجَنِي وَلَوْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمَّ عَمَّارٍ ¹

" قال الخليل رحمه الله: لما قال (هيجني) عرف أنه قد كان ثم تذكر لتذكرك الحمام و تهيجه، فألقى ذلك الذي قد عُرف منه على (أم عمار)، كأنه قال: هيجني فذكرني أم عمار... " ² فكأنه التداعي بين شدة الحمام وذكرى أم عمار يكون فيها الفعل هيجني هو المثير، ومن المؤكد أن في الجملة إضمارا دل عليه السياق اللغوي، فنصبت (أم عمار) بدلالة ما سبق وكما يقول محقق الكتاب (الأستاذ عبد السلام هارون) " والشاهد فيه نصب أم عمار بفعل دل عليه ما قبله، لأن

¹ - أبو بشر بن عثمان قنبر سيبويه الكتاب 1 ج تح عبد السلام هارون ط 3 1408 هـ 1988 م مكتبة

الخانجي القاهرة ص 286

² - المرجع نفسه الصفحة نفسها

(هيجني) تدل على (فذكرني) " ¹ ثم يضيف سيبويه " ومثل ذلك أيضا قول (الخليل) رحمه الله، وهو قول أبي عمرو: ألا رجل إما زيدا وإما عمرا؛ لأنه حين قال: (ألا رجل)، فهو متمن شيئا يسأله ويريده، فكأنه قال: اللهم اجعله زيدا أو عمرا، أو وقِّ لي زيدا أو عمرا " ² - فحين يبرر عدم ذكر جملة اللهم اجعله زيدا أو عمرا (لأنه عُرف أنه متمن سائل شيئا وطالبه) ³

والأمثلة في هذا الاتجاه كثيرة مما ينتصب على قاعدة الفعل المتروك إظهاره لعلم المخاطب بها فمثلا النداء فالأصل في (يا) أنك تطلب المنادى بمعنى " حذفوا الفعل لكثرة استعمالهم هذا في الكلام وصار بدلا من اللفظ بالفعل، فكأنه قال يا: أريد عبد الله فحذف أريد وصارت يا بدلا منها، لأنك إذا قلت يا فلان علم أنك تريده " ⁴

ومن الأمثلة الداعمة التي يسوقها (سيبويه) على لسان شيخه (الخليل) القول: " انتَه خيراً لك " ⁵، فيقول: " نصبته؛ لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له: (انتَه)، أنك تحمله على أمرٍ آخر، فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه محمولٌ على أمرٍ حين قال له: انتَه، فصار بدلاً من قوله: انت خيراً لك، وادخل فيما هو خيرٌ لك " ⁶

وبالكيفية نفسها يكون الحذف لاعتبار الحال مؤشرا للتفسير بالسياق حين يبين سيبويه " قولك إذا كنت تحذر: إياك، كأنك قلت: إياك نح، و إياك باعد، وإياك اتق، وما أشبه ذلك... و إنما

¹ - المرجع السابق الصفحة نفسها

² - المرجع نفسه الهامش كلام المحقق

³ - المرجع نفسه الصفحة نفسها

⁴ - المرجع نفسه ص 291

⁵ - المرجع نفسه الصفحة نفسها

⁶ - المرجع نفسه الصفحة نفسها

حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم و استغناء بما يرون من الحال، و بما جرى من الذكر⁽¹⁾.

بالنظر إلي تفسير (الخليل) يتضح فهم الرجل بعمق كبير للسياقين اللغوي من خلال نصب (خيرا) على أساس فعل محذوف تقديره انت خيرا، فكانت انتة بدلا من انت خيرا لك وادخل فيما هو خير لك،

أما سياق الحال فهو صريح بتقدير (الخليل) لقاعدة علم المخاطب السابق أي أن (الخليل) فسر هذا التركيب على أساس قرينة حالية تمثلت في ظروف إنتاج النص ويسوق (سيبويه) عن (الخليل) أمثلة كثيرة جدا في هذا الاتجاه دالة على حضور السياق اللغوي وسياق الحال في تفسير الخطاب² وفي الإشارة القرآنية الرائعة التي يوردها (سيبويه) فيقول " سألت (الخليل) عن قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا ﴾^(٧١) وعن قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾^(١٦٥)، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ ﴾^(٢٧) فقال الخليل: إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم، لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام " ³.

ولا أدل على حضور سياق الحال من هذه الإشارة التي هي أصل في معهود كلام العرب حين تسكت عن هذا المضمرة لعلم المخبر به

¹ - المرجع السابق ص 273.

² - يمكن الرجوع إلى الصفحات من 72 إلى 77

³ - المرجع السابق ج 3 ص 103

ومن الأمثلة القرآنية التي يوردها (سيبويه) والتي يفعل فيها الإضمار دورا في توجيه السياق

للدلالة على ما هو مضمّر قول الله عزّ وجلّ: " قُلْ بَلْ مَلَّةٌ إِزْرَهُمْ حَنِيفًا ۖ ﴿١٣٥﴾ " أي: بل ننَّبَع ملة

إبراهيم حنيفا، كأن قيل لهم: اتَّبِعُوا، حين قيل لهم: (كونوا هوداً أو نصارى) ¹

ومن أدقّ التفسيرات التي ينزع إليها (سيبويه) في التقديم والتأخير بين الفعل والفاعل والمفعول به

ما يرده إلى مبدأ الاهتمام بالمقدم أو المؤخر وهو تفسير لا يرجع قطعاً إلى البنية التركيبية الصرفية

وإنما مبرره رعاية الموقف والاهتمام بأثره في المتلقي وهو بهذا الوصف تفسير يركن إلى سياق

الموقف: يقول (سيبويه) " وذلك قولك: (ضرب عبدُ الله زيدا) ... فإن قدّمت المفعول وأخرت الفاعل

جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيدا عبدُ الله؛ لأنك إنما أردت به مؤخراً ما

أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ. فمن ثم كان حدّ اللفظ

أن يكون فيه مقدماً، وهو عربيّ جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أَعْنَى،

وإن كانا جميعاً يهْمَانِهِم ويعنيانهم ². وبالرجوع إلى القرينة الإعرابية يتضح الفرق بين الفاعل

والمفعول والقرينة نفسها هي التي توضح كيف تم تجاوز المعيار اللغوي تقديماً وتأخيراً بين الفاعل

والمفعول وهو تفسير على أساس السياق اللغوي، أم الشطر الثاني فيعمد (سيبويه) إلى السياق غير

اللغوي المقامي حين يبرر تقديماً أو تأخيراً بمقتضى الاهتمام والعناية بالمتلقي .

يقول سيبويه في (باب ما يُنتصب لأنه خبر للمعروف المبني على ما هو قبله من الأسماء

المبهمه)

تعليقا على قول الشاعر

¹ - المرجع السابق ج 3 ص 103

² - المرجع نفسه ج 2 ص 34

" أنا ابن دارة معروفا بها نسبي وهل بدارة يا للناس من عار

وتقول هو عبد الله وأنا عبد الله مفاخرا أو موعدا أي اعرني بما كنت تعرف وبما كان بلغك عني ثم يفسر الحال التي كان يعلمه عليها أنا عبد الله كريما جوادا وهو عبد الله شجاعا بطلا، وتقول إني عبيد الله مصغرا نفسه لربه ثم تفسر حال العبيد فتقول: آكل كما تأكل العبيد " ¹ وبالتأمل في هذا الشاهد ندرك أن (سيبويه) يشير إلى وضع يكون الملفوظ دالا بمقتضى السياق وموقع السامع وتعريفه بما قد جهل ف: هو عبد الله.. وأنا عبد الله.. وإني عبد الله، قد تدل على الفخر أو التوعد أو تصغير النفس وإنما يدل عليها السياق الذي وردت فيه يضيف (سيبويه) موضحا: " وإذا ذكرت شيئا من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمّر فإنه مُحال أن يظهر بعدها الاسم إذا كنت تُخبر عن عمل، أوصفة غير عمل، ولا تريد أن تعرفه بأنه زيدٌ أو عمرو. وكذلك إذا لم توعد ولم تقهر أو تصغر نفسك؛ لأنك في هذه الأحوال تعرف ما تُرى أنه قد جهل، أو تُنزل المخاطب منزلة من يجهل فخرا أو تهذّداً أو وعيداً، فصار هذا كتعريفك إياه باسمه " ². وبإمكان المدقق في (الكتاب) أن يقف على عينات كثيرة تؤكد وعي إمام النحو الفذ (سيبويه) السياق اللغوي بل إنه في ذلك الوقت المبكر نلمح منه إلحاحا بينا على أهمية قراءة الدرس النحوي وفق اشتراطات سياقية لغوية ومقامية وقد يكون من المفيد أن نسوق شهادة الأستاذ نهاد موسى حيث يقول "وكننت نظرت في سياق بحث مختلف في كتاب سيبويه ألتمس فيه هذا العنصر من عناصر التحليل فوجدته منذ ذلك العهد المبكر يفزع إلى (السياق) والملابسات الخارجية وعناصر المقام ليرد ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طلبا للاطراد المحكم وهو يوافق فيما صدر عنه في الكتاب ملاحظات كثيرة مما تتبني عليه الوظيفة ومناهج (التوسع) أو اللغويات الخارجية

¹ - المرجع السابق ج2 ص 79 و 80

² - المرجع نفسه ج2 ص 80

بعبارة (دي سوسير) ¹ "وقبل (نهاد الموسى) تقطن (الشاطبي) لقيمة منجز (سيبويه) حين رأى أن ما قام به (سيبويه) يتجاوز مجرد درس النحوي فهو " وإن تكلم في النحو - فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو بيّن في كل باب ما يليق به، حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان، ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني " ² وإشارة (الشاطبي) على اهتمام (سيبويه) بمقاصد العرب وعلمي المعاني والبيان ومراتب الألفاظ والمعاني تؤكد أن درس السياق كان في عصب هذه الاهتمامات .

مع ابن جني

ولابن جني شاهد رائع كثيرا ما تواتر عند الذين ينتصرون لحضور السياق في درسه اللغوي والذي يعكس إدراكه المبكر لأثر الظروف المحيطة بالكلام في تحديد الدلالة وتوجيه المعنى بمقتضى العرف والأحوال يقول: " والذي يدلُّ على أنَّهم قد أحسُّوا ما أحسننا، وأرادوا وقصدوا ما نسبنا إليهم إرادته، وقصده شيئان: أحدهما: حاضر معنا، والآخر: غائب عنَّا إلا أنَّه مع أدنى تأمل في حكم الحاضر معنا، فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها من استخفافها شيئا أو استثقاله وتقبله أو إنكاره، والأنس به أو الاستيحاش منه والرِّضا به أو التَّعجب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشَّاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس ³ وواضح من خلال هذه الإشارة إدراك (ابن جني) للقرائن المقامية

¹ - نهاد الموسى نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث دار البشير ومكتبة وسام ط2
الأردن 1987 ص 88

² - الشاطبي الموافقات 4 / 71

³ أبو الفتح عثمان بن جني. الخصائص. ج 1 تحق: محمد علي النجار، الهيئة. المصرية العامة للكتاب ط

5، القاهرة 1986، ص 246

بتنوعها ودورها في تحديد وتوجيه الدلالة (الأحوال، الأعراف، الظروف المرافقة للكلام فضلاً عن الأوضاع النفسية والأمزجة المرتبطة بالمتحدث والمتلقي على السواء)

ويتعمق إدراكه لهذه الأحوال حين ينبه على أثر القرائن الإشارية من ذلك ملامح الوجه وحركات الشفاه أثناء التلفظ التي قد تغني عن الألفاظ وتوجب الحذف أحياناً وهي حين توجب الحذف فلكي تدل أكثر: " وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت، و ذلك أن تكون في مدح إنسان و الثناء عليه، فنقول: كان والله رجلاً فتزيد في قوة اللفظ بهذه الكلمة و تتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها... أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك"(1).

وقد تكون تقطيبات الوجه في حال الذم قرينة تؤدي دور اللفظ بما يفضي إلى مقصود المتكلم "... إن ذمته ووصفته بالضيق قلت: سألناه و كان إنساناً و تزوي وجهك و تقطبه، فيغني ذلك عن قولك إنساناً لثيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك"(2)

ومن عجيب فهمه لهذه القرائن ودورها في توجيه الدلالة يربط (ابن جني) بين فعل التلفظ و أحوال الحواس، فلو كانت الأذن تغني عن البصر لما احتاج بعضنا أن يرى البعض لحظة الخطاب، يقول (ابن جني): " فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئاً عنه لما تكلف القائل ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه... وعلى ذلك قالوا: رب إشارة أبلغ من عبارة، وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله أنا لا أحسن أن أكلم إنساناً في الظلمة " (3)

ومثل هذه الإشارات يتواتر ذكرها في أكثر من موضع ولعل رواة الحديث النبوي أكثر هؤلاء حرصاً على إيراد هذه الإشارات وهم ينقلون الأحاديث النبوية، من ذلك ما رواه سهل بن سعد، قال: رسول

¹ - المرجع السابق ج 2، ص 371.

² - المرجع نفسه ، ج 2، ص 76.

³ - المرجع نفسه، ج 247/1

الله - صَلَّى الله عليه وسلم - : (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئاً؛ (1)

وحديث أبي موسى عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا " وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ " (2)

هذه إشارات في السياق التدليل على حضور السياق في الدرس اللغوي العربي القديم وهي عينات موجزة لمادة مترامية الأطراف في مصنفات اللغويين يمكن الرجوع إلى هذه المتون للاستقراء والمعينة .

مع علماء البلاغة والإعجاز

في سياق البرهنة على أسبقية المنجز التراثي في حقله البلاغي على المنجز الغربي الحديث في مباحث سياق المقام يقول الأستاذ (تمام حسان) " وقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم، لأن الاعتراف بفكرتي المقام أو المقال بوصفهما أساسيين متميزين من أسس تحليل المعنى يُعَدُّ الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة " ³ وإن ألف سنة هي مسافة زمنية ممتدة لا نحسب أن مفهوم السياق المقامي بقي على ما هو عليه فلم يتطور بل إن سنن التراكم المعرفي تدفع في الاتجاه الذي تتبلور فيه المفاهيم وتتنضح خاصة إذا علمنا أن تلك

¹ أخرجه البخاري، رقم الحديث 4892.

² أحمد بن علي بن حجر العسقلاني فتح الباري في شرح صحيح البخاري دار الريان للتراث 1407 هـ 1986 م باب تعاون المؤمنين رقم الحديث 5680 ص 464

³ - تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها دار الثقافة مصر ط 1994 ص 337

* سيأتي الحديث بالتفصيل عن مساهمة الشافعي في مبحث السياق عند علماء الأصول

القرون قد شكلت مرحلة ذهبية تميزت بعباء علمي رصين جاد به العالم الإسلامي على البشرية قاطبة بشهادة المستشرقين والمؤرخين والمفكرين الغربيين.

علماء البلاغة والإعجاز

كانت البلاغة أكثر حظ من نقد الشعر ذلك أنها ترعرعت في مباحث الإعجاز القرآني ولم يكن الدرس البلاغي ليصل إلى ما وصل إليه من النضج والتبلور لو لا مرافقته للنص القرآني الذي أمد مباحث البلاغة بجل القواعد والمعايير ولقد وجدت تلك الأسئلة التي كان يطرحه علماء اللغة والقرآن وأصول الفقه والقراءات حول دلالات النص الكريم ومقاصده ومستوياته اللغوية وسماته الأسلوبية وجدت هذه الأسئلة حقل البلاغة كي ترسي تلك الأجوبة الدقيقة أصولاً ضاربة في عمق علمي المعاني والبيان ولقد أمد هذا اللقاء بين البلاغة والنص القرآني عمر البلاغة قروناً طوال رغم ما عرفته في مراحل معينة من تعقيد ممل أضر بجمالها وعذوبتها و لم يكن الدرس الأسلوبي والسياقي خارج الاهتمام بل لقد استحوذ على مناقشات تكاملت فيما بينها لتؤسس منظومات علمية دقيقة شهد بها كل منصف تابع مسار هذا النقاش وقد لا نبالغ إن قلنا: "وحيث قال البلاغيون (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبها مقام) وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد السواء"¹

وتأتي مقاربتنا للجاحظ وعبد القاهر الجرجاني بحثاً عن قضايا السياق في مدوناتهما البلاغية.

¹ - تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص 372

الجاحظ ناقدًا نموذجيًا

من المهم أن نشير إلى شخصية (الجاحظ) الذي كان ظاهرة عصره بما اتسم به من مؤهلات كثيرة وقدرات قل أن تجتمع في شخص بعينه، فلم تكن معرفته الدقيقة بأسرار اللغة العربية بكل تفاصيلها، هي كل ما يميزه بل فضلا على ذلك كان (الجاحظ) فيلسوفا متكلمًا، ومثقفا موسوعيا، وصاحب قدرة عجيبة على المحاجة والمناظرة والابتكار " وقد أهله لذلك أنه كان ذا طبيعة نفاذة مبتكرة، تنفذ إلى الدقائق وتميز اللطائف، إلى جانب دراسته بعمق للغة والأدب على كبار علماء عصره، وقد كان هذا الطابع الغني الممتاز نتيجة سعة أفقه وكثرة اطلاعه في اللغة والنحو، والشعر وأخبار العرب والفلسفة والأديان المختلفة، وثقافات العصر المتعددة، وإحاطته بكتب اليهود والنصارى والفرس والهنود وتتبعه لشوارد الأحاديث وال نوادر ومحاجته لأصحاب البدع والشعبية. ولقد كان للجاحظ رأي حر وفكر عميق وبديهية لماعة، وكان يجمع بين الطابع الساخر قوة البيان ورصانة الأسلوب ويضم إلى هذا وذاك قوة الحجة، وهي ميزة كل عقل جامع طموح"¹.

ولقد كان (الجاحظ) عالما لسانيا، الأمر الذي شهد به الكثير من الدارسين المحدثين إذ كشفت أعماله - خاصة البيان والتبيين - عن رؤية استباقية لعصره، حيث أشار إلى إشكالات لغوية هي مدار نقاش علمي تتناوله أحدث الاتجاهات اللسانية المعاصرة " وهو جانب آخر من الجوانب المهمة في تراث (الجاحظ) مع أنه من أبدعها وبخاصة في هذا العصر الذي سادت فيه اللسانيات وطغت على ميداني النقد والأدب...فتشخيصه لمفهوم الحرف (PHONEME) وللوظيفة الحرفية (PHONOLGIE) توصل إليهما عن طريق التحليل الوظيفي للحروف

¹ - احمد جمال العمري المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها وتطورها المكتبة الخانجي القاهرة 1410 هـ 1990م، ص 89.

(ANALYSE PHONOLOGIQUE) وقد قدم لنا نماذج عن ذلك في (البيان والتبيين) لا تختلف عن التحليلات المستعملة لأي من الدراسات اللسانية. كما أنه يميز تمييزاً واضحاً بين محور التخيير (LE PARADIGME) ومحور التأليف (SYNTAGME) اللذين يعدان من الدعائم في اللسانيات الحديثة، وليس من المبالغة قط أن نقول أن لسانيات الجاحظ لسانيات عملية تجريبية...¹. وقد ألف أيضاً كتاباً لا يقل قيمة عن (البيان والتبيين) نال من الشهرة أضعاف ما ناله (البيان والتبيين) وقيمة هذا الكتاب تتحدد من خلال إشارات معاصريه إليه، وإحالات من جاء بعد (الجاحظ) على هذا الكتاب ولعل أبرزهم (الجرجاني) الذي كثيراً ما أشاد بكتاب (نظم القرآن) للجاحظ واستشهد بنصوصه ومن المؤكد أن (الجرجاني) قد استلهم نظريته في النظم من بعض حيثيات هذا الكتاب الذي لم يصلنا منه شيء وشهادة (الجرجاني) كافية للدلالة على قيمة الكتاب الذي يبدو أن (الجاحظ) قد عصر فيه كل ملكاته حيث يقول: "أجهدت فيه نفسي وبلغت فيه أقصى ما لا يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي ولا لكافر مباد، ولا منافق مقموع، ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه ترتل ليس ببرهان ولا دلالة"². و من المؤكد أنه لو قدر لهذا الكتاب أن يصل إلينا لوجدنا فيه مبادئ منظومة نظرية في لسانيات النص القرآني .

¹ - المرجع السابق، ص 09.

² - رسائل الجاحظ جمعها ونشرها حسن السندوبي المطبعة الرحمانية ط 1 مصر 1352 هـ / 1933م

الجاحظ والتأسيس لأشكال الدلالة

يقول (الجاحظ) منظرا لأشكال الدلالة " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ. خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال، التي تسمى نصبة...، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بئنة من صورة صاحبها، وحيلة مخالفة لحيلة أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرعا ... ¹."

ينبه (الجاحظ) على أن الدلالة ليست وليدة اللفظ بالضرورة وأن المعاني تتحدد عبر مظهرين اثنين ملفوظ / وغير ملفوظ، وفي هذا التنبيه إدراك مبكر لأنظمة العلامات الدالة (السيمائيات)، وأن هذه الوسائط الدلالية، لفظية أو غير لفظية _ بتعبير الجاحظ _ هي علامات سيميائية تأخذ أشكالا مختلفة لكنها تتفق كلها في أنها تدل على ما يدل عليه اللفظ ومن الواضح أن هذه الدوال/ العلامات إنما تدل بمقتضى ظروف وأحوال قد لا يكون فعل التلفظ حاضرا فيها. وإذا استثنينا (اللفظ) من تلك الأصناف الخمسة التي يشير إليها الجاحظ فإن الأربعة الأخرى كلها علامات سيميائية دالة وهي في مستوى آخر قرائن مقامية يحكمه سياق الحال الذي ويوجه دلالاتها.

(1) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ / البيان والتبيين دار ومكتبة الهلال،

السياق اللغوي بين الألفاظ والحروف

يعني (الجاحظ) أن السياق اللغوي يتحقق من خلال بنية تركيبية محكمة وفي اتجاه البرهنة على ذلك يرصد بعض المستويات التركيبية التي قد يخل فيها هذا النظام فيفقد السياق حضوره، من ذلك ما يسميه (تتافر الألفاظ والحروف) يقول عن المستوى الأول (تتافر الألفاظ):

"ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه. فمن ذلك قول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر... وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن، صدقوا بذلك¹ ثم يورد أمثلة كثيرة للتدليل على هذا الاختلال² لينتهي بهذا الحكم

"فإنك ستجد بعض ألفاظه (أي البيت) يتبرأ من بعض"³

ثم يضيف موضحا بدقة هذا الاختلال، فيقول:

"إذا كان الشعر مستكراها، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض، كان بينها من التتافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤنة."⁴

(1) المرجع السابق ج 1 ص 74

(2) المرجع نفسه ينظر ص 1 ج 1 ص 74

(3) المرجع نفسه ج 1 ص 75

(4) المرجع نفسه ج 1 ص 75

لينتقل إلى رصد هذا التنافر في مستوى الثاني الذي يسميه (تنافر الحروف) فيقول " هذا في اقتران الألفاظ. فأما في اقتران الحروف فإن

الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير. والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الصاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير. وهذا باب كبير. وقد يكتفي بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري. " ¹

وفي موضع آخر يقارن بين الوضعين على مستوى الحروف والكلمات فيقول "وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متقنة ملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد " ²

وتترجم عبارة الجاحظ (حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد) تأكيدا على النتيجة التي يفضي إليها ذلك الانتظام الذي تراعى فيه شروط السياق اللغوي وعدم مخالفة ما يعبر عنه (الجاحظ) في مواضع أخرى بالسنن اللغوي، بما يحقق ذلك الترابط فيغدو البيت بهذا المنطق كالكلمة الواحدة تماسكا وتلاحما وتغدو الكلمة كلها حرفا واحدا. ويتحقق هذه العلاقات السياقية على المستويين اللغوي والمقامي تتحقق العملية التواصلية فيكون " لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكلّ نوع من المعاني نوع من اللفظ، ولذلك يجب إلهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم " ³

(1) المرجع نفسه ج 1 ص 77

(2) المرجع السابق ج 1 ص 75

(3) المرجع نفسه ج 1 ص 95

الإشارة إلى السياق القرآني

وفي سياق البرهنة على تميز السياق القرآني الذي يتجاوز دلالة الألفاظ في واقعها المعجمي يسوق (الجاحظ) أمثلة لدلالات بعض الألفاظ وقد تجاوزت ما تعارف عليه العامة وبعض الخاصة يقول (الجاحظ) " وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ¹

وليست هذه الإشارة التي يوردها (الجاحظ) لدلالة الألفاظ في النص القرآني إلا تأكيدا على فريدة النص القرآني الذي يعدل في مواقع كثيرة عن المواضع المعجمية امتثالاً لفاعلية السياق القرآني

السياق ومراتب البلاغة

وفي موقع آخر يختزل (الجاحظ) البلاغة في مقتضى الحال فليست البلاغة هي إلا قدرة الخطيب على " إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم " ² ولا يتحقق هذا الإفهام إلا باستيفاء شروط يجمعها الجاحظ في هذه المراتب المهمة:

" أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير الألفاظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة و لا الملوك بكلام السوق، ويكون في

(1) المرجع السابق ج 1 ص 41

² - المرجع نفسه ج 1 ص 95

قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل تنقيح، ولا يصفىها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا أو فيلسوفًا، ومن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ وقد نظر في صناعة المنطق¹ ويؤسس هذا النص لشروط ترتبط باللغة وأخرى خارج حيز اللغة منها ما يرتبط بالباحث من ضرورة امتلاك كفاءات نفسية، عقلية و فيزيولوجية (رابط الجأش ساكن الجوارح، قليل اللحظ) مع الإشارة إلى مجموع القرائن المقامية من ذلك إنزال الناس في منازلهم (لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة و لا الملوك بكلام السوقة...) إذ ليس كل كلام يقال، بل يجب النظر إلى المقام الذي يملك سلطة توجيه الدلالة بحيث لا تتعارض مع الظروف التي ترافق إنتاج الكلام وطريق البلاغة عند (الجاحظ) مع التأكيد أن البلاغة عنده مطابقة مقتضى الحال كما سبق- هي منازل ثلاث، في كل منزلة يكون السياق حاضرا ببعض مقولاته:

المنزلة الأولى: هي ذلك الوضع الذي يعمد فيه المتكلم ضمن (محور الاختيار) إلى اختيارات لفظية ومعنوية وثيقة الصلة باشتراطات السياقين اللغوي والمقامي، أما اللفظية فمدارها الرشاقة، العذوبة، الفخامة والسهولة أما المعنوية فتتحدد بمقدار الوضوح والإعراب عن الدلالة مع مراعاة مقصود المتحدث ومنزلة المتلقي (اللفظ / المعنى / المقصد / المقام / واعتبار منازل المخاطبين)، يقول (الجاحظ) موضعا:

" فأول المنازل الثلاثة أن يكون لفظك رشيقا، عذبا، وفخما سهلا، ويكون معنأك ظاهرا مكشوفًا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة، إن كنت للعامة قصدت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من

¹ - المرجع السابق ج 1 ص 95

معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي، والخاص، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ بالواسطة التي لا تطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام¹

أما المنزلة الثانية فهي وعي المتكلم (منتج النص) بمنزعه واستعداداته الفطرية وما جبل عليه من محفزات نفسية تلك التي ترتبط أساسا بالسياق النفسي المرافق لإنتاج النص فقد لا تواتيك أحوالك النفسية اليوم وربما استجابت في الغد يقول (الجاحظ): " فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك، ولا تعتريك، ولا تسمح لك عند أول نظرك، وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى قرارها، و إلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل من مركزها، وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إن لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد...فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعاضى عليك بعد إجابة الفكرة، فلا تعجل، ولا تضجر، ودعه بياض يومك، وسواد ليلتك، وعواده عند نشاطك، وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرف"²

المنزلة الثالثة: فمدارها الغرض (مقصدية الكلام) والصناعة التي بينها وبين المتكلم نسب ومشاكلة، إذ ليس كل فن في تناولك طالما انقطع النسب والمشاكلة يقول (الجاحظ):

¹ - المرجع السابق ج 1 ص 129

² - المرجع نفسه الجزء الأول ص 130/131

فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة، إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك فإنك لم تشتهيها، ولم تتنازع إليها، إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما شاكله" ¹ .

ولا يحتاج نص (الجاحظ) الذي يمتد عبر هذه المنازل الثلاث إلى تأويل في دقة توصيف سياقات الكلام ومساقات الخطاب التي تحقق في جملتها اشتراطات اتساق النص وتماسكه، هذا التماسك الذي هو محصلة أسباب متضافرة، منها ما هو مرتبط بالباط، ومنها ما هو مرتبط بالخطاب بمستوياته التركيبية والدلالية والصوتية، والبعض الآخر مرتبط بالمتلقي ودوره التداولي، أما البعض الآخر فوثيق الصلة بالمقام وبيئة الكلام وظروف إنتاج النص .

عبد القاهر الجرجاني

نظرية النظم والعلاقات السياقية

التأسيس على البنية النحوية

تحليل القراءة الواعية لتفاصيل نظرية النظم كما يتمثلها (الجرجاني) إلى تصور متقدم جدا للعلاقات السياقية على أسس نحوية تتجاوز البنية الشكلية المجردة إلى ما يسميه (الجرجاني) بمعاني النحو وفي أكثر من موضع من كتابيه (الدلائل والأسرار) يؤكد (الجرجاني) على أن النحو ليس مجرد قواعد تُقَوَّمُ اللسان _ وإن كان هذا هو الهدف التعليمي منه _ أو أنه وسيلة يتوخى به المتكلم الفصاحة بل إن تحديدات النحو ومقرراته وتفاصيله إنما يراد منها أساساً فهم أسرار انتظام النص واتساقه وإحكامه ولذلك نفهم ارتباط معاني النحو بنظرية النظم عند (الجرجاني) إذ " أنه لا يكفي في علم "الفصاحة" أن تَنْصَبَ لها قياساً ما، وأن تَصِفَها وصفاً مُجَمَّلاً، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً، بل لا تكونُ مِنْ مَعْرِفَتِها في شيءٍ حتى تُفَصِّلَ القولَ وتُحَصِّلَ، وتضعَ اليدَ على

¹ - المرجع السابق الجزء الأول ص 131.

الخصائص التي تَعْرِضُ في نَظْمِ الكَلِمِ وتَعُدُّها واحدةً واحدةً، وتُسَمِّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذف الذي يعلم علم كل خيط من إلا بريسَم الذي في الدِّيَاج، وكلَّ قطعةٍ من القِطْع المنجورة في الباب المقطع، وكل جره من الأجر الذي في البناء البديع.¹

وليست القاعدة النحوية وفق المعيار أو في عدولها عن هذا المعيار (الانزياح التركيبي) بالمستويات المتباينة التقديم والتأخير الحذف الوصل والفصل التي تتواتر إشاراتِها في مصنف الجرجاني، ليست إلا شكلا من أشكال التأكيد على البنية النسقية للنص (النظم بمفهوم الجرجاني) يقول الجرجاني متيقنا غير شاك في فصل - النظم هو توخي معاني الإعراب:

" واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك، أن لا تَظْم في الكَلِم ولا ترتيب، حتى يُعْلَق بعضها ببعض، وَيُبْنَى بعضها على بعض، وتُجْعَل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يَجْهَلُه عاقلٌ ولا يَخْفَى على أحدٍ من الناس."² وأن هذا التماسك والتعلق المنتظم إنما يتحقق بما يقتضيه علم النحو:

" اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهَجَّبُ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها."³

ثم يبين الجرجاني كيف يتم هذا التعلق باعتماد البنية التركيبية أساساً لذلك، مدرجاً أمثلة دالة فيقول:

¹ عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني ج 1 تحق محمود محمد شاكر دار المدني ط 3 بالقاهرة

1413 هـ / 1993 م ص 38

² المرجع نفسه ص 55

³ المرجع نفسه ص 81

"وإذا كَانَ كَذَلِكَ، فَبِنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى التَّعْلِيقِ فِيهَا وَالْبِنَاءِ، وَجَعَلَ الْوَاحِدَةَ مِنْهَا بِسَبَبٍ مِنْ صَاحِبَتَيْهَا، مَا مَعْنَاهُ وَمَا مَحْصُولُهُ؟ وَإِذَا نَظَرْنَا فِي ذَلِكَ، عَلِمْنَا أَنَّ لَا مَحْصُولَ لَهَا غَيْرُ أَنْ تَعْمَدَ إِلَى اسْمٍ فَتَجْعَلَهُ فَاعِلًا لِفِعْلٍ أَوْ مَفْعُولًا، أَوْ تَعْمَدَ إِلَى اسْمَيْنِ فَتَجْعَلَ أَحَدَهُمَا خَبْرًا عَنِ الْآخَرِ أَوْ تُتْبِعَ الْاسْمَ اسْمًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الثَّانِي صِفَةً لِلأَوَّلِ، أَوْ تَأْكِيدَ لَهُ، أَوْ بَدَلًا مِنْهُ أَوْ تَجِيءَ بِاسْمٍ بَعْدَ تَمَامِ كَلَامِكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الثَّانِي صِفَةً أَوْ حَالًا أَوْ تَمْيِيزًا أَوْ تَتَوَخَّى فِي كَلَامٍ هُوَ لِإِثْبَاتِ مَعْنَى، أَنْ يَصِيرَ نَفْيًا أَوْ اسْتِفْهَامًا أَوْ تَمْنِيًا، فَتُدْخِلَ عَلَيْهِ الْحُرُوفَ الْمَوْضُوعَةَ لِذَلِكَ أَوْ تُرِيدَ فِي فَعْلَيْنِ أَنْ تَجْعَلَ أَحَدَهُمَا شَرْطًا فِي الْآخَرِ، فَتَجِيءَ بِهِمَا بَعْدَ الْحَرْفِ الْمَوْضُوعِ لِهَذَا الْمَعْنَى، أَوْ بَعْدَ اسْمٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي صُمِنَتْ مَعْنَى ذَلِكَ الْحَرْفِ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ".¹

وينبهِ (الجرجاني) في أكثر من موضع على أن النظم يكون على مستوى المعاني فيما بين الألفاظ وأن ليس العبرة بنظم الحروف يقول في فصل - الفرق بين "حروف منظومة" و"كلم منظومة":

"ومما يجبُ إحصاءُهُ بِعَقَبِ هَذَا الْفَصْلِ، الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِنَا: "حُرُوفٌ مَنْظُومَةٌ"، وَ "كَلِمٌ مَنْظُومَةٌ". وَذَلِكَ أَنَّ "نَظْمَ الْحُرُوفِ" هُوَ تَوَالِيهَا فِي النَّطْقِ، وَلَيْسَ نَظْمُهَا بِمَقْتَضَى عَنْ مَعْنَى، وَلَا النَّاطِمُ لَهَا بِمُقْتَضَى فِي ذَلِكَ رَسْمًا مِنَ الْعَقْلِ اقْتَضَى أَنْ يَتَحَرَّى فِي نَظْمِهَا لَهَا مَا تَحَرَّاهُ. فَلَوْ أَنَّ وَاضِعَ اللُّغَةِ كَانَ قَدْ قَالَ "رَبَضٌ" مَكَانَ "ضَرْبٌ"، لَمَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُوْدِي إِلَى فَسَادٍ، " ² وهي إشارة مهمة لاعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول في تصور (الجرجاني) في وقت مبكر قبل ما قرره (دي سوسير) .

¹ المرجع السابق 1 ص 55

² المرجع نفسه 49

ثم يوضح نظم الكلم الذي يتوخي ترتيب المعاني في النفس، أن ليس النظم ضم الشيء إلى الشيء
كيفما اتفق:

" وأما "نظمُ الكلم" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تتقي في نظمها آثار المعاني، وتُرتبها على حسب
ترتب المعاني في النفس فهو إذن نظمٌ يعتبَرُ فيه حالُ المنظوم بعضه مع بعضٍ، وليس هو "النظم"
الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. " ¹

ولتوصيف لفكرة بصورة مادية يسوق (الجرجاني) المقارنة التي تنتقل من نسق اللغة إلى أنساق
النسخ والصياغة والبناء والوُشْي والتعبير مع مراعاة علة الوضع الذي كان " ولذلك كان عندهم
نظيراً للنسخ والتأليف والصياغة والبناء والوُشْي والتعبير وما أشبه ذلك، مما يُوجب اعتبار الأجزاء
بعضها مع بعضٍ، حتى يكونَ لوضع كلِّ حيثُ وضع، علةٌ تَقْنُضي كونه هناك، وحتى لو وُضع
في مكان غيره لم يصلح. " ²

ليؤكد أن النظم لا يتحقق بتوالي الألفاظ في النطق بل فيما تتاسقت دلالات تلك الألفاظ مع ما
يصاحب هذا التناسق من شروط يأتي ذكرها

" والفائدة في معرفة هذا الفرق: أنك إذا عرَفْتَه عرَفْتَ أن ليس العَرَضُ بنظم الكلم، أن توالَتْ
ألفاظها في النطق بل أن تتاسقت دلالتهَا " ³

ثم إن هذه الألفاظ التي هي أوضاع اللغة _ كما يقرر الجرجاني _ لا تتضمن معانيها في أنفسها بل
بضم بعضها لبعض " ألفاظ اللغة" لم توضع إلا لضم بعضها إلى بعض، وبضمها تكون الفائدة.
وهذا موضع " الخبر " و"الإسناد:" اعلم أن ههنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة مَنْ يَعْرِفُ مِنْ

¹ المرجع السابق 49

² المرجع نفسه 49

³ المرجع نفسه ج 1 ص 49

جانبٍ ويُكرّر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هو أوضاع اللغة، لم توضح لِتُعرّف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد. وهذا علمٌ شريفٌ، وأصلٌ عظيم " ¹

ويقرر (الجرجاني) أن كفاءة المتكلم إنما تتحدد بمقدار إدراكه لإمكانات اللغة بما يؤهله لمعرفة أوضاع اللغة وما وضعت عليه " لأنه لا يكون متكلماً حتى يَسْتَعْمِلَ أوضاعَ لغةٍ على ما وضعت عليه " ²

وفي هذا الاتجاه ندرك أن الألفاظ من حيث هي أصوات مجردة بمنأى عن ذلك التأليف المخصوص والتركيب المقصود لا تدل يقول (الجرجاني): " والألفاظ لا تُقيد حتى تُؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعَمَدُ بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التركيب والترتيب، فلو أنك عَمَدْتَ إلى بيت شعرٍ أو فَضَّلَ نثرٍ فعددت كلماته عَدّاً كيف جاء واتَّفَقَ، وأبطلت نضدَهُ ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبَسَقَه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في: من الطويل:

قفا نَبْكَ من ذِكْرِي حَبِيبٍ ومنزل منزل قفا ذكري من نبك حبيب،

أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهذيان " ³

ويؤكد (الجرجاني) على مبدأ الترتيب المخصوص والطريقة المعلومة التي تقع على الألفاظ وقد رتبت معانيها قبل ذلك في النفس بمقتضى علاقات عقلية يقول:

¹ المرجع السابق ج 2 ص 539

² المرجع نفسه ج 1 ص 402

³ عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة تحق محمود محمد شاكر ، دار المدني بمصر وجدة السعودية ط1 1991 م ج1 ص4 و 5 أسرار البلاغة

" وفي ثبوت هذا الأصل ما تَعَلَّم به أَنَّ المعنى الذي له كان هذه الكلم بيت شعري أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحُكْم - أعني الاختصاص في الترتيب - يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل، ولا يُتَصَوَّر في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصُّص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَت المراتبُ والمنازلُ في الجمل المركبة " ¹

ويدقق الجرجاني استحالة تعالق معاني الألفاظ مفردة ومجردة ما لم تتعالق معاني هذه الألفاظ وفق ما يسميه معاني النحو، وفي اتجاه التوضيح يسوق أمثلة دالة يقول:

" ومما ينبغي أَنْ يَعْلَمَهُ الإنسانُ ويجعله على ذكرٍ، أنه لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَتَعَلَّقَ الْفَكْرُ بمعاني الكلم أفراداً ومجردةً من معاني النحو، فلا يقوم في وهمٍ ولا يصح في عقلٍ، أَنْ يَتَفَكَّرَ مُتَفَكِّرٌ في معنى "فعلٍ" مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرِيدَ إِعْمَالَهُ في "اسمٍ"، ولا أَنْ يَتَفَكَّرَ في معنى "اسمٍ" مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرِيدَ إِعْمَالِ "فعلٍ" فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد فيه حكماً سوى ذلك من الأحكام، مثل أَنْ يُرِيدَ جَعْلَهُ مبتدأً، أو خبراً، أو صفةً أو حالاً، أو ما شاكل ذلك " ²

وفي سياق البرهنة يضرب مثالا ببيت امرئ القيس

وإنْ أَرَدْتُ أَنْ تَرَى ذَلِكَ عِيَاناً فَاعْمُدْ إِلَى أَيِّ كَلَامٍ شِئْتَ، وَأَزِلْ أَجْزَاءَهُ عَنْ مَوَاضِعِهَا، وَضِعاً يَمْتَنِعُ

معه دخول شيءٍ من معاني النحو يها، فقل في:

قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ

مِنْ نَبْكَ قِفَا حَبِيبٍ ذِكْرِي مَنْزِلٍ"، ثم انظر هل يتعلَّقُ مِنْكَ فَكْرٌ بمعنى كلمة منها؟ " ³

¹ المرجع السابق ج 1 ص 5

² دلائل الإعجاز ج 1 ص 410

³ المرجع نفسه ج 1 ص 410

ثم يسوق بيت بشار شارحا به تفاصيل هذا التعالق النحوي حيث يرصد بنيته التركيبية بمقتضى ما يعبر عنه بمعاني النحو

" وإن أردت مثالا فخذ بيت بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤسنا ... وأسيافنا ليل تهوى كواكبُه

وانظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطَر معاني هذه الكلم بباله أفرادا عارية من معاني النحو التشبيه منه على شيء وأن يكون فكَر في "مثال النقع"، من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني وفكر في "فوق رؤسنا"، من غير أن يكون قد أراد أن يُضيف "فوق" إلى "الرؤوس" وفي "الأسياف" من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على "مثار" وفي "الواو". من دون أن يكون أراد العطف بها وأن يكون كذلك فكَر في "الليل"، من دون أن يكون أراد أن يجعله خبراً "لكأن" وفي تهوى كواكبُه"، من دون أن يكون أراد أن يجعل "تهوى" فعلاً للكواكب¹، ثم يجعل الجملة صفةً لليل، ليتيم الذي أراد من التشبيه؟ أم لم يخطر هذه الأشياء بباله إلا مُراداً فيها هذه الأحكام والمعاني التي نراها فيها؟ " ¹

ويبدو هذا التوصيف الدقيق للترتيبات النحوية التي يعمد إليها منتج النص _ بمنظور الجرجاني _ مرافقا لذلك الفهم الحيوي والناضج للعلاقات النحوية بما يتجاوز مجرد علاقات آلية صارمة وصماء، هو فهم يمد النحو بروح متقدة قل أن ينتبه إليها الكثير.

ويستحضر الجرجاني صورة المتلقي الذي يجب أن يشترك مع المتكلم في المعرفة بمعاني النحو وعلى هذا الأساس يتم تلقي رسالة المتكلم إذ لو اكتفى المتلقي بمعرفة دلالات الألفاظ مجردة دون معرفة أسباب تعالق معانيها لما أدرك مقصود المتكلم

¹ المرجع السابق ج 1 ص 411

"وليت شعري، كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى؟ ومعنى "القصد إلى معاني الكلم"، أن تُعلم السامع بها شيئاً لا يعلمه. ومعلوم أنك، أيها المتكلم، لست تقصد أن تُعلم السامع الكلم المفردة التي تكلمه بها، فلا تقول: "خرج زيد"، لتعلمه معنى "خرج" في اللغة، ومعنى "زيد". كيف؟ ومُحال أن تُكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف. ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم، ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل، كلاماً. وكنت لو قلت: "خرج"، ولم تأت باسم، ولا قدّرت فيه ضمير الشيء، أو قلت: "زيد"، ولم تأت بفعل ولا اسم آخر ولم تُضمّر في نفسك، كان ذلك وصوتاً تصوته سواء، فاعرفه"¹

ويحرص الجرجاني على ربط مزية الكلام وغرضه بإرادة المتكلم:

"لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى، حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبيتها

فإن قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تُفيد تلك، فليستا عبارتين عن معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين قيل لك: إن قولنا "المعنى" في مثل هذا، يُراد به الغرض، والذي أراد المتكلم أن يُنبته أو يُنفيه"²

ويؤكد الجرجاني ككل مرة على أن هذا الترتيب المقصود الذي ينبني على معاني النحو والذي يشترك فيه المتكلم مع المتلقي والذي يبرر اختيارات نحوية معينة كالتقديم والتأخير _ مثلا _ إنما يهدف إلى تحقيق ما يعبر عنه الجرجاني مرار بالنسق أي التماسك النصي

¹ المرجع السابق ج 1 ص 412

² المرجع نفسه ج 1 ص 257

" ونحن إذا تأملنا وجدنا الذي يكون في الألفاظ من تقديم شيء منها على شيء، إنما يقع في النفس أنه "نَسَقٌ"، إذا اعتبرنا ما تُوجِّي من معاني النحو في معانيها، فأما مع ترك اعتبار ذلك، فلا يقع ولا يتصور بحال، أفلا ترى أنك لو فرضت في قوله:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ

أن لا يكون "نَبْكَ" جواباً للأمر، ولا يكون مُعَدَّى "بِمَنْ" إلى "ذِكْرِي" ولا يكون "ذِكْرِي" مضافةً إلى "حبيب"، ولا يكون "منزل" معطوفاً بالواو على "حبيب" ¹ لَخَرَجَ ما ترى فيه من التقديم والتأخير عن أن يكون "نَسَقاً"؟ ذاك لأنه إنما يكون تقديم الشيء على الشيء نَسَقاً وترتيباً، إذا كان ذلك التقديم قد كان لموجبٍ أوجب أن يقدم هذا ويؤخر ذاك، فأما أن يكون مع عدم موجب نَسَقاً، فمحال، لأنه لو كان يكون تقديم اللفظ على اللفظ من غير أن يكون له موجب "نَسَقاً"، لكان ينبغي أن يكون توالي الألفاظ في النطق على أي وجه كان "نَسَقاً"، حتى إنك لو قلت: "نَبْكَ قَفَا حَبِيبٍ ذِكْرِي من"، لم تكن قد أعدمته النسق والنظم وإنما أعدمته الوزن فقط " ¹

فيصبح التقديم والتأخير _ بوصفه انزياحاً تركيبياً _ مبرراً لتحقيق البنية النسقية التي تتواتر في شاهد الجرجاني أكثر من خمس مرات .

ويقدم الجرجاني شاهداً يَجْمَلُ فيه جملة من التحديدات التركيبية، المعجمية، الدلالية، الصوتية التي يتجلى بها النص القرآني المعجز وقد تحققت فيه كل مزايا النظم يقول: " فقلنا أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية، ومقاطعها، ومجاري ألفاظها، ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظمة، وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه، سورة

¹ المرجع السابق ج 1 ص 468

سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك، أو أشبهه أو أخرى وخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتثاما واتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم _ولوحك بيافوخة السماء_ موضع طمع، حتى خرست الألسن على أن تدعي وتقول، وخلدت القروم فلم تملك أن تقول¹ "إن تلك التحديدات التي بسطها الجرجاني في نظريته المتميزة في النظم والتي جاءت في سياق البرهنة على نظرية الإعجاز القرآني تؤكد بكل جدارة وموضوعية نضجا لدى هذا العالم الفذ في الاشتغال على قضايا النص التي يعد السياق والاتساق بعضا من مقولاتها و"أجدني مدفوعاً إلى المبادرة بتأكيد أن دراسة عبد القاهر للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء كتفاً إلى كتفٍ مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب، وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي، هذا مع الفارق الزمني الواسع، الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثّة على جهد عبد القاهر² " مثلما أجدني مؤكداً تلك القراءة التي أفضى إليه نصر حامد أبوزيد من "أن مفهوم "النظم" عند عبد القاهر، يماثل العلاقات السياقية عند علماء اللغة المعاصرين، ومفهومه لـ "المعنى" و "معنى المعنى" يماثل مفهوم العلاقات الاستبدالية..."³

ورغم أن شهادة تمام حسان _ بوصفه مطلعاً على المنجزين التراثي العربي والغربي الحديث في قضايا الدلالة والسياق _ مهمة إلا أنها ليست الشهادة الوحيدة فكثير هم الذين أنصفوا الرجل الذي (يمثل المشهد الأخير من سلسلة الجهود السابقة عليه، في مجال النقد والنحو والبلاغة، كما يمثل

¹ المرجع السابق ج 1 ص 39

² تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص 18 19

³ - نصر حامد أبوزيد مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني مجلة فصول عدد خاص بالأسلوبية المجلد 5

العدد 1- 1984 ص 22.

كمال الإفادة من هذه العلوم الثلاثة، في بلورة مفهوم نحوي جديد يكون - في جوهره - نظرية مكتملة في فهم النص الأدبي، من خلال صياغته¹.

المبحث الثالث: المحددات المعرفية للسياق عند الأصولي

المحددات المعرفية للسياق عند الأصوليين

مدخل

يؤكد الاستقراء في المدونات الأصولية ومصنفات علوم القرآن وكتب التفسير والدراسات التي اشتغلت على النص القرآني بتنوعها أن درس السياق عُدَّ من أهم المباحث التي دار حولها ذلك النقاش المعرفي الرصين عبر مساحات ممتدة من منجزات الأصوليين ومن المعروف أن المحفز الأساسي لهذا الاهتمام الذي وُجد في بيئة الأصوليين وعلماء القرآن والتفسير مرده إلى علاقة هذا الدرس بالنص القرآني في دلالاته ومقاصده وأحكامه، فلم يكن الدافع ترفاً أدبياً أو منزعاً مذهبياً أو مجرد معرفة، وإنما كان الدافع ينبع من معتقد التقرب إلى الله تعالى وبقدر ما عدت هذه المساهمة شكلاً من أشكال العبادة عندهم بقدر ما كانت قيمة مضافة في إثراء الدراسات القرآنية بما يصون هذا الكتاب ويحميه من الطاعنين و المشككين، إن هذا السياق التعبدي والمعرفي الجاد والصارم الذي يتنزل فيه الدرس السياقي _بمنظور علماء الأصول_ مكن من بلورة مقولات السياق ونضجها بشكل واضح أثار انتباه كل مستقرئ لهذه المادة من القدامى والمحدثين يقول (تمام حسان): وحين قال البلاغيون " لكل مقام مقال " و " لكل كلمة مع صاحبها

¹ - محمد عبد المطلب النحو بين عبد القاهر وتشو مسكي مجلة فصول عدد خاص بالأسلوبية المجلد 5 العدد 1 -

مقام" وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء ، ولم يكن (مالينوفسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير (**context of situation**) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها، إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح "المقام" ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح (مالينوفسكي) من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات وبراعة الدعاية الغربية الذائبة ⁽¹⁾

وإذا كان هذا الشاهد ينصف الدرس البلاغي الذي لم يكن عطاؤه _بالتأكيد_ في مستوى عطاء الدرس الأصولي الذي يتجاوزه في هذه المباحث بكثير فما ضنك بالمنجز الأصولي، وفي الاتجاه نفسه يمكن التدليل على أسبقية الدرس الأصولي بما يتواتر في أكثر المؤلفات التراثية من أن (الشافعي) هو أول من أصَلَ للسياق في كتبه وخصوصا في مؤلفه المعروف (الرسالة) والذي يعد _أيضا_ أول مصنف في (أصول الفقه)، فضلا عن حضور المصطلح (السياق) في مدونات الشافعي وغيرها من المدونات فإن تفاصيل المباحث السياقية ومفرداتها كان لها الحضور نفسه. يقول ابن (دقيق العيد) واصفا وظيفة السياق وأهميته في الدرس الأصولي: "فإن السياق طريق لبيان المجملات، وتعيين المحتملات، وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة كبيرة، من قواعد أصول الفقه " ⁽²⁾. وحين يُدرج السياق من قواعد أصول الفقه _ بمنظور ابن دقيق وغيره من الأصوليين _ فذاك يعني أهميته ويبرر حضوره في مدونات أصول الفقه.

(¹) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة ، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص372

(²) انظر: الأمدي الإحكام في أصول الأحكام ج 4 / 82 - 83 .

ويمكن أن نوجز المفردات التي رافقت مباحث السياق عند الأصوليين في: / تحديد الدلالة القرآنية، مباحث مقاصد القرآن، التأصيل للأحكام الشرعية، مباحث القياس واستنباط الأحكام، الفصل في الترجيحات المختلف، مباحث القرائن اللفظية والمقامية، الإشارات غير اللغوية، علم المناسبة، علم أسباب النزول. القراءات، الناسخ والمنسوخ

كما عدّ معرفة السياق بكل مكوناته شرطاً من الشروط التي تؤهل المفسر للاشتغال على القرآن، مثلما ارتبط السياق بأنساق قرآنية معروفة كعلم القراءات، الناسخ والمنسوخ، المكي والمدني، علم معاني القرآن وبيانه، قضايا الأعجاز، علم مشكل القرآن، و علم مصطلح الحديث .

إن هذه الترسيم التي يقيمها السياق مع هذه الأنساق والعلوم تؤكد أمرين في غاية الأهمية: أولهما حضور الدرس السياقي وتجذره في منجزات علماء الأصول، وتتحدد هذا الحضور في الارتباط المحكم لمباحث السياق بالنص القرآني، وثانيهما أن الدرس السياقي بالوصف السابق لم يكن _ مطلقا _ مجرد ظاهرة عابرة لم تكتمل ملامحها مثلما تشير بعض الآراء التي لم تستقرئ تفاصيل الدرس الأصولي ولم تقف على تلك المواد الدقيقة، الناضجة والمتبلورة في الدراسات الدلالية والسياقية في متون أصول الفقه وعلوم القرآن ومدونات تفسير القرآن

الشافعي وبدايات التأصيل:

أجمع علماء الأصول وعلوم القرآن وإعجازه أن الشافعي سبق الجميع في الحديث عن السياق مثلما سبقهم أيضا في وضع قواعد أصول الفقه، يقول الإمام الفخر الرازي في كتابه (مناقب الشافعي) مبينا سبق الشافعي في وضع علم أصول الفقه " كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل من أصول الفقه، ويستدلون، ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة، وفي كيفية معارضتها وترجيحاتها، فاستنبط (الشافعي) علم

أصول الفقه، ووضع للخلق قانونًا كليًا يُرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسبة (الشافعي) إلى علم الشرع كنسبة أرسطو إلى علم العقل⁽¹⁾

أما ما كان منه (رضي الله عنه) من وضع مباحث السياق فقد جاء ذلك في جل مصنفاته وبالأخص كتاب (الرسالة) الذي بوب فيه بابا سماه (باب الصنف الذي يبين سياقه معناه)، وفيه أورد تفسيراً سياقياً حيث قال في تفسير الآية 163 من سورة الأعراف، " قال الله تبارك

وتعالى ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ شُرِعَ الْيَوْمَ لَا

يَسْبِتُونَ ۖ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١١٣) الأعراف: 163 فابتدأ جل ثناؤه ذكر

الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال: إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ دلّ على أنه

إنما أراد أهل القرية، لأن القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره، وأنه إنما

أراد بالعدوان أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون وقال قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ

كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ (١٢)

الأنبياء: 11 - 12 وهذه الآية في مثل معنى الآية قبلها، فذكر قصم القرية، فلما ذكر أنها

ظالمة، بان للسامع أن الظالم إنما هم أهلها، دون منازلها التي لا تظلم، ولما ذكر القوم المنشئين

بعدها، وذكر إحساسهم بالبأس عند القصم، أحاط العلم أنه إنما أحسّ بالبأس، من يعرف بالبأس من

الآدميين " (2)

(1) فخر الدين الرازي مناقب الشافعي ص 57

(2) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (تفسير الإمام الشافعي) ج 2 تحق أحمد بن مصطفى القرآن الناشر:

دار التدمرية ط 1 - المملكة العربية السعودية 1427 هـ - 2006 م ص 1071 و ينظر أيضاً:

الرسالة الشافعي ص 73 - 74 .

وفي شاهد آخر يؤسس (الشافعي) للسياق بإيضاح مقولات أساسية تتبني عليها الدلالة السياقية لتتأملها في هذا النص: " فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يُخاطبَ بالشيء منه عاماً ظاهراً يُراد به العام الظاهر، ويُستغنى بأول هذا منه عن آخره وعاماً ظاهراً يُراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ماخوطف به فيه. وعاماً ظاهراً يُراد به الخاص. وظاهراً يُعرف في سياقه أنه يُراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره. وتبتدئ الشيء من كلامها يُبين أول لفظها منه عن آخره. وتبتدئ الشيء يُبين آخر لفظها منه عن أوله. وتكلم بالشيء تُعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تُعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به، دون أهل جهالتها. وتُسمى الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمى بالاسم الواحد المعاني الكثيرة. ⁽¹⁾ ويتبين لك من هذا الشاهد الإدراك المبكر لدور القرائن اللغوية وغير اللغوية وعلاقات التعالق بين أجزاء الخطاب والظروف المرافقة للنص من ذلك العرف العام ومعهود العرب في كلامها والاتساع الدلالي للملفوظ الواحد ووضع المتكلم بوصفه مقولة مهمة من مقولات السياق، وكل هذه المفردات على أهميتها في تأسيس العلاقات السياقية حاضرة في منجزات الشافعي مثلما قد تبين في الشاهد ثم إنه لم يسبقه في القول بها أحد مطلقاً وهذا هو الأهم. ويوضح (الشافعي) في مدخل للتأسيس للسياق خصوصية اللسان العربي _ولعل هذه هي الحكمة في الاختيار الرباني لهذا اللسان خطاباً للبشرية جمعاء _ فيقول: " وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان

¹ محمد بن إدريس الشافعي الرسالة تحق أحمد شاكر: مكتبة الحلبي، ط 1 مصر 1357 هـ / 1938 م

العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها " (1)

وحقيقة أن اللسان العربي أكثر الألسنة سعة وثراء معجميا ودلاليا ليس منكرًا، بل كثير هم الذين أكدوا هذه الحقيقة من غير العرب وقد نسوق شاهدا واحدا _ على سبيل التذليل _ للعالم اللساني الأمريكي المعروف (فان ديك) الذي فيقول " العربية أكثر لغات الأرض امتيازًا وهذا الامتياز من وجهين؛ الأول: من حيث ثروة معجمها والثاني: من حيث استيعابها آدابها " ² ولا يبتعد (فان ديك) في شاهدته هذا عن ما قرره (الشافعي) في موضع آخر حين قال عن اللسان العربي: "أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، لدرجة أنه لا يُحيط بعلمه إنسان غير نبي، ومع ذلك فلا يذهب منه شيء على عامتها" (3) وفي باب الاستنباط والقياس يشدد (الشافعي) على جملة من الشروط التي ترتبط بالنص القرآني كي يستقيم التأويل وتتحدد الدلالة وبالتأمل في هذه الشروط نقف على جملة من الأنساق التي ترتبط بالدرس السياقي (الناسخ والمنسوخ/ العام والخاص/ علاقة النص القرآني بالنص النبوي / علاقة النص القرآني بالقياس/ علاقة النص القرآني بالإجماع / علاقة النص القرآني بأقوال السلف / علاقة النص القرآني بإجماع الناس واختلافهم / علاقة النص القرآني بلسان العرب...) يقول الشافعي " ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها، وهي العلم بأحكام كتاب الله، فرضه وأدبه، وناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، وإرشاده، ويستدل على ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله ﷺ، فإذا لم يجد سنة فإجماع المسلمين، فإن لم يكن إجماع

¹ المرجع السابق ج 1 ص 50

² - أنور الجبدي الفصحى لغة القرآن ص 308

(³) الشافعي الرسالة ص 42

فبالقياس، ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكونَ عالمًا بما نصَّ قبله من السنن وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب، ولا يكون له أن يقيسَ حتَّى يكون صحيح العقل، وحتى يفرّق بين المشتبه، ولا يعمل بالقول به دون تثبت⁽¹⁾

وهي إشارات تدل على حضور السياق في منجز (الشافعي) وفضلا عن قيمتها العلمية في سياقها التاريخي المبكر فإنها منجزات مكتملة تعرضت لجل مقولات السياق ويكفي لبحث التفاصيل الرجوع إلى مصنفات هذا العلم المتميز الذي قال عنه الإمام أحمد بن حنبل " ما أحدٌ مسَّ محبرة ولا قلمًا، إلا وللشافعي في عنقه منة " وقال عنه آخر⁽²⁾ " ما كان الشافعي إلا ساحرًا، ما كنّا ندري ما يقول إذا قعدنا حوله، كأنّ ألفاظه سكر، وكان قد أوتي عذوبة منطق، وحسن بلاغة، وفرط ذكاء، وسيلان ذهن، وكمال فصاحة، وحضور حجة⁽³⁾

ابن تيمية التأسيس المنهجي للسياق

في الرد على بعض الفرق التي انحرفت في تأويلات النص القرآني وعلى آخرين جهلوا قواعد الاستنباط لتحديد دلالة القرآن ومقاصده يقول (ابن تيمية)

" أحدهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها والثاني: " قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به.⁴ وتحدد هذه المفردات الثلاث: المتكلم بالقرآن / المنزل عليه / والمخاطب: الشروط الأساسية التي توجه الدلالة وهي مقتضيات السياق، فضلا على أنها إشارة

(1) المرجع السابق ص 509

(2) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي سير أعلام النبلاء ج 10 مؤسسة الرسالة: 1422هـ / 2001م ص 47

(3) المرجع نفسه ص ج 10 ص 49

⁴ - ابن تيمية مقدمة في أصول التفسير ص 36. و الفتاوى ج 13 ص 357. 358. 359

مهمة تستوفي كل أركان دورة التخاطب بالمفهوم الحديث، ثم يحدد (ابن تيمية) تفاصيل دقيقة لانحراف هؤلاء، وجهل أولئك :

" فالأولون: راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان، والآخرين راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام، " ¹ وتبدو إشارته مرة ثانية إلى السياق مهمة في سياق الحديث عن علاقة اللفظ بالمعنى، وفي موضع آخر توصيف غاية في الدقة يجمع فيه بين شكلي السياق اللغوي والمقامي، مع إشارة دالة عن مقصدية المتكلم حيث يقول: "وتختلف دلالة الكلام تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وكثير من وجوه اختلافه قد لا يبين بنفس اللفظ بل يرجع فيه إلى قصد المتكلم، وقد يظهر قصده بدلالة الحال" ²

ويواصل تحديداته مبينا موقف الفريقين من اللفظ والمعنى، بحيث أن أحدها ينتصر للمعنى والآخر ينتصر للفظ: " ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن كما يغلط بذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق . " ³

والصواب غير ذلك يوضح (ابن تيمية) في موضع آخر: "ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه، وما يبين معناه من القرائن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع، في باب فهم الكتاب والسنة، والاستدلال بهما مطلقاً، ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب، وطرده الدليل

¹ - المرجع نفسه

² - الفتاوى ج 10 ص 124

³ - ابن تيمية مقدمة في أصول التفسير ص 36 .

ونقضه.. وفي سائر أدلة الخلق ¹ وبالتأمل في هذا الشاهد يقرر (ابن تيمية) كل مقولات السياق بالوصفين اللغوي والمقامي من ذلك: خصوصية فعل التلفظ / السياق / القرائن المرافقة لفعل الكلام. وفي مستوى يعمق ما سبق يكون التعالق بين أجزاء النص ضرورة تحدد الدلالة السياقية " من تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد اللفظ عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط " ²

وعودا على بدء يبين (ابن تيمية) وجه الخطأ لدى الطائفة الأولى : " والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم فيه في الدليل لا في المدلول. فالذين أخطئوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم: تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه... " ³

ويحدد هذا النص فكرة بالغة الأهمية، وهي أن الاختلاف الذي نخر هذه الأمة ونشأت على خلفيته طوائف ومذاهب وامتد بينها الاختلاف إلى الاقتتال إنما مرده أساساً إلى الاختلاف اللغوي وتباين

¹ - مجموع الفتاوى ج 6 / 18

² - تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية تحق محمد السيد الجليلند ج 3 مؤسسة علوم القرآن دمشق ط 2 1404 هـ 1984 م ص 249

³ - ابن تيمية مقدمة في أصول التفسير ص 36 .

تلقي دلالات النص القرآني، وهي فكرة بقدر ما تعكس المخرجات السلبية لذلك الاختلاف اللغوي داخل الأمة من جهة بقدر ما تمدنا بأهم دواعي ذلك الاهتمام الكبير لهؤلاء العلماء بالبحث اللغوي في دائرة النص القرآني بدرجة أولى والنص النبوي بدرجة ثانية، وهي دواعي تؤكد أنهم كانوا على وعي واضح بامتدادات هذا الاختلاف الذي يحيل بالضرورة إلى اختلاف في الرأي الذي يكون مبررا للخلاف والاقتتال، ومن ثمة انخرط هؤلاء العلماء الربانيون في حركة علمية، منهجية، موضوعية، فذة، وصادقة تناولت النصين الكريمين القرآن والحديث في أدق التفاصيل وأفصت إلى مخرجات مذهلة ربما تجاوزت عصرهم، مثلما حفظت لهذه الأمة أسباب وحدتها حين صانت هذين النصين من التحريف والقراءة المنحرفة .

وبالرجوع إلى الشاهد السابق فبعد أن رد (ابن تيمية) اللفظ والمعنى إلى السياق يؤكد في موضع آخر حدود العلاقة بين اللفظ والمعنى وأول هذه العلاقات الحال التي تقيد اللفظ فتصرفه عن إطلاقه " اللفظ وإن كان في نفسه مطلقا، فإنه إذا كان جوابا عن سؤال، أو عقب حكاية ونحو ذلك فإنه كثيرا ما يكون مقيدا بمثل حال المخاطب كما قال المريض للطبيب: إن به حرارة قال له الطبيب لا تأكل الدسم، فإنه يعلم أن النهي مقيد بتلك الحال " ¹

ويحدد (ابن تيمية) بصورة دقيقة ومحددة الأوضاع التي تأخذها الألفاظ حتى تحقق الدلالة وهي أوضاع تتباين بتباين السياقات التي تنتزل فيها هذا الألفاظ مع تأكيده على ما يحكم هذه السياقات من قرائن نصية (طبيعة البنية التركيبية) وأخرى مقامية حالية، فضلا على الملابس المرافقة للنص من أعراف وأوضاع متبانية إضافة إلى الاعتبار التداولي بحضور المتكلم الذي تختلف _ أيضا _ أوضاع وحالات تلقيه للخطاب يقول (ابن تيمية) "واعلم أن من لم يحكم دلالات اللفظ ويعلم أن

ظهور المعنى من اللفظ: تارة يكون بالوضع اللغوي ؛ أو العرفي ؛ أو الشرعي ؛ إما في الألفاظ المفردة وإما في المركبة. وتارة بما اقترن باللفظ المفرد من التركيب الذي تتغير به دلالاته في نفسه. وتارة بما اقترن به من القرائن اللفظية التي تجعله مجازا. وتارة بما يدل عليه حال المتكلم والمخاطب والمتكلم فيه. وسيأتي الكلام الذي يعين أحد احتمالات اللفظ أو يبين أن المراد به هو مجازة إلى غير ذلك من الأسباب التي تعطي اللفظ صفة الظهور ؛ وإلا فقد يتخبط في هذه المواضع.¹

ويبدو (ابن تيمية) مدركا بعمق لعلاقة اللفظ بالمعنى في الاتجاه يجعل من المعاني تصورات سابقة في الوجود قبل الألفاظ التي هي مجرد إشارات ذلك أن المعاني هي خبرات سابقة بحسب اللفظ أن يشير إليه فقط " واللفظ لا يدل المستمع على معناه، إن لم يكن قد تصور مفردات اللفظ بغير اللفظ، لأن اللفظ المفرد لا يدل المستمع على معناه، إن لم يعلم أن اللفظ موضوع للمعنى، ولا يعرف ذلك حتى يعرف المعنى، فتصور المعاني المفردة يجب أن يكون سابقا على فهم المراد بالألفاظ² مما يعني _ وفق تصور ابن تيمية دائما _ أن إدراك المعنى، مقصد تعجز دونه الألفاظ ذلك أن المعنى هو نتاج نشاط روحي، وخبرات سالفة، وليست الألفاظ إلا منبهات لإثارة ذلك النشاط الباطني الفطري، وتداعي الخبرات، يدقق (ابن تيمية) الصورة أكثر فيضيف: " الأسماء النطقية سمعية/ صوتية أما نفس تصور المعاني ففطري، يحصل بالحس الباطن، والظاهر، وبإدراك الحس وشهوده، يبصر الإنسان بباطنه وبظاهره وبسمعه، يعلم أسماءها وبفؤاده يعقل الصفات

¹ - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية التسعينية ج 1 تحق محمد بن إبراهيم العجلان مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض 1420 هـ 1999 م ج 1 ص 566 والفتاوى ج 33 ص 81
² - تقي أحمد بن عبد الحليم بن تيمية نقض المنطق حقق الأصل المخطوط وصححه محمد بن عبد الرزاق حمزة، سليمان بن عبد الرحمان الصنيع، صححه محمد حامد العقي تقديم عبد الرحمان الوكيل/ طبع مكتبة السنة المحمدية القاهرة ص 187

المشتركة والمختصة، والله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة" ¹ ومن لم يكتسب هذه الخبرات الروحية التي ترتبط بالفطرة وبعض المدارك العقلية لم ينفعه الحد القولي أي الإشارة الصوتية يقول (ابن تيمية): " فالمقصود أن الحقيقة إن تصورها بباطنه وظاهره، استغنى عن الحد القولي، وإن لم يتصورها بذلك، امتنع أن يتصور حقيقتها بالحد القولي، وهذا أمر محسوس يجده الانسان في نفسه " ويسوق ابن تيمية _كعادته في النقاش _ أمثلة دقيقة في التوصيف فيقول: "، فإن من عرف المحسوسات المذوقة - مثلاً - كالعسل، لم يفده الحد تصورهما، ومن لم يذق ذلك، كمن أخبر عن السكر وهو لم يذقه، لم يمكن أن يتصور حقيقته بالكلام والحد، بل يمثل له ويقرب إليه، ويقال له طعمه شبه كذا، أو شبه كذا وكذا... وكذلك المحسوسات الباطنة، مثل الغضب، والفرح، والحزن، والغم، والعلم، ونحو ذلك، من وجدها فقد تصورهما، ومن لم يمكن أن يتصورها بالحد، ولهذا لا يتصور الأكمل الألوان بالحد " ². تبدو الصورة جلية في أن تصور ابن تيمية للغة يتجاوز مجرد التبليغ والتواصل وإفهام السامع وإن كانت هذه هي الوظائف الأساسية لها ولكن اللغة بمنظور ابن تيمية هي بعد كل هذه الوظائف هي أفعال تتجز فنحن حينما نتكلم إنما ننجز بالكلمات أفعالاً .

ويذهب (ابن تيمية) بعيداً في فهمه لدلالة اللفظ حين يعمد إلى استقراء ينقل فيه مقتضيات الأحوال بالنظر إلى حال المتكلم من لغة القرآن إلى غيرها من اللغات، فكون الدلالة لا تتحدد باختلاف الناطقين في اللغة الواحدة رغم أن المعنى المدلول عليه باسم واحد فكيف يمكن أن نتصور اتحاد هذه الدلالة في لغات مختلفة يقول (ابن تيمية) " بل الناطقان بالاسم الواحد باللغة الواحدة يتصور أحدهما منه ما لم يتصور الآخر حقيقته وكميته وكيفيته وغير ذلك، فإذا كان المعنى المدلول عليه

¹ - المرجع السابق ص 194

² - المرجع نفسه ص 185 - 186

بالاسم الواحد لا يتحد من كل وجه في قلب الناطقين، بل ولا في قلب الناطق الواحد في الوقتين، فكيف يقال إنه يجب اتحاده في اللغات المتعددة¹

ويعد هذا النقاش الذي يديره (ابن تيمية) عينة من أمثلة تتواتر في مصنفاته، ويبدو فيها على درجة عالية من فقه اللغة وأسرارها ودلالاتها، ولعلها قرائن تدل على خطأ القراءة المعاصرة لهذا الرجل الفذ الذي تصنفه بشكل غير مبرر مرجعا في قضايا الفقه فحسب دون أن تتجاوز هذا الحد إلى هذه المنجزات المتميزة في الدرس اللغوي اللساني بكل تفاصيله الدقيقة التي نعتقد أنها قيمة مضافة في الشخصية العلمية لهذا الرجل المتميز في تاريخ أمتنا .

القرينة في علاقتها بالسياق والنص

في تحديد مفاهيم القرينة

الظاهر باستقراء المادة التي تناولت الدلالات الاصطلاحية للقرينة عند علماء الأصول² أنهم لم يقفوا مطولا عند توصيف هذه المادة والخوض في تعريفاتها وتحدياتها بقدر وقوفهم على أشكال القرينة و تجلياتها في الخطاب ووظائفها في توجيه الدلالة بمقتضى السياق وفهم الدلالات المتباعدة للنص، كما تحيلنا معاينة تصنيفات الأصوليين للقرينة إلى أشكال كثيرة مما يؤكد تنوع فهمهم، ويمكن أن نوجز أشكال القرائن في هذه المقولات: (لفظية أو مقالية وحالية أو مقامية /سياقية وخارجية / حسية وعقلية وشرعية) وقد يتفق عند بعض المفسرين _ وهم قلة قليلة _ الفهم بين القرينة بنوعها اللفظي والمقامي وبين السياق لكن الأمر عند الأصوليين يختلف من حيث أنهم يفرقون بشكل واضح بين القرائن والسياق .

وفي اتجاه التحديد الاصطلاحي لمقولة القرائن نسوق هذه العينات المركزة:

¹ - ابن تيمية مجموع الفتاوى. ج 6 ص 64

² - لم يشر البحث إلى القرينة عند النحويين واللغويين والمناطقية والفلاسفة

يقول الشيرازي في تعريف القرينة " ما يبين معنى اللفظ ويفسره "¹

وهو مفهوم عام لا تحدده مفردات تبين مستويات هذا البيان ويبدو تعريف (القرافي) واصفا القرينة المقالية أو اللفظية أكثر دقة يقول " هي الأمانة المرشدة للسامع أن المتكلم أراد المجاز "² ورغم أن هذا التعريف يضيف مقولة الأمانة المرشدة دون تحديد طبيعتها _ وهو أمر مهم لاعتبار أن هذه الأمارات تتنوع وتتباين_ إلا أن هذا التعريف ينحصر في تأويل الدلالة التي تعدل عن مقتضى الحقيقة إلى ما يسميه (القرافي) إرادة المتكلم إلى المجاز ، أما تعريف صاحب منهاج الوصول فهو أكثر دقة حين يقول " هي دلالة أو أمانة تفيد أن المخاطب لم يرد بخطابه ظاهره، وهذا كاف مانع لمعناها، فالدلالة نحو ما نعلم به أن الله سبحانه وتعالى لم يرد بخطابه بـ: (أيها الناس) خطاب الأطفال والمجانين مع المكلفين " ³ مما يقتضى أن القرينة هي التي تؤول ما وراء الظاهر من القول، وينقلنا (أبو الحسين البصري) إلى توصيف القرينة الحالية بأنها " هي الأحوال التي تعدل بالخطاب من معنى إلى معنى مع كونه متردد بينهما "⁴ ولا يزول هذا التردد إلا باعتماد القرينة الحالية بتباين أشكالها، ويضيف (أبو الحسين) في توصيف القرينة العقلية بأنها تلك " الأدلة العقلية التي دلت على خلاف ظاهر الكلام "⁵ ويمدنا (الرازي) بتعريف للقرينة الشرعية التي تحكمها قواعد التخصيص والعموم والنسخ والقياس يقول " هي الأدلة التي تقتضي تخصيص العموم في الأعيان

¹ - الشيرازي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: التبصرة تحقق محمد حسن هيتو، دار الفكر ط 1 دمشق 1403 هـ ص 39

² - القرافي شهاب الدين أحمد بن إدريس تنقيح الفصول في اختصار المحصول في علم الأصول ج2، دار الفكر ط 1 بيروت، 1418 هـ / 1997 م، ص 893

³ - المهدي لدين رب العالمين أحمد بن يحيى المرتضي منهاج الوصول إلى معاني معيار العقول في علم الأصول تحقق محمود سعد ، دار مؤسسة الإخلاص نبها مصر 2006 م ص 872

⁴ - محمد بن علي الطيب أبو الحسين البصري المعتمد في أصول الفقه تحقق خليل الميس دار الكتب العلمية -

ط: 1 بيروت ، 1403 ج 2 ص 346

⁵ - المرجع نفسه ج2 ص 358

وهو المسمى بالتخصيص أو في الأزمان وهو النسخ والذي يقتضي تعميم الخاص وهو القياس¹ أما الإحالة الخارجية فهي بتوصيف (التلمساني) ما تتحدد فيه الدلالة بدليل من نص أو قياس أو عمل يقول " هي موافقة أحد المعنيين لدليل منفصل من نص أو قياس أو عمل " ² ويبدو صاحب الفصول اللؤلؤية أكثر دقة حين يوجب في توجه الدلالة شرطاً صارفاً أو مخصصاً أو مكماً يقول " ما أوجب صرفاً أو تخصيصاً أو تكميلاً"³

القرائن السياقية في الدرس الأصولي:

ويبدو حرص علماء الأصول على القرائن بنوعها اللغوي والمقامي التي ترافق إنتاج النص وتلقيه واضحاً من خلال إشارات كثيرة، متنوعة ودقيقة من ذلك "إيراد ما كان في السياق من غير الألفاظ في الكلام من أحاديث رسول ﷺ، مثل و وكان متكئاً فجلس، ظهر في وجهه الشريف الغضب، انفرجت أساريره عليه الصلاة والسلام... إلى آخر ما هناك مما روعي في هذا الشأن، ومما يسهل العثور على كثير منه في كتب الحديث"⁴ ومما له سند مهم في تحديد الدلالة في أكثر من موضع وهو ما يسمى بالقرائن المعنوية والحالية ويدخل ضمنها حتى طريقة الأداء الصوتي من تمطيط الكلمات وشد على الحروف أو السكوت وهي بالجملة " القرائن المعنوية الحالية، كأنواع الانفعالات وتقطيبات الوجه، وطريقة الأداء الصوتي والإشارات الخارجية أو ما يسمى حديثاً (Contexte of situation) وهي الظروف التي صاحبت إنتاج النص ومنها أسباب

¹ - الرازي المحصول ج2 ص 497

² - التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول تحقق عبد الوهاب عبد اللطيف دار الكتب العلمية بيروت 1403 هـ 1983 م ص 52

³ - صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير، الفُصولُ اللؤلؤية في أصول فقه العترة الزكية، وأعلام الأمة المحمدية تحقق محمد يحيى سالم عزان مركز التراث والبحوث اليمني ص 110

⁴ - محمود محمد أبو الفرج المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة والحديث دار النهضة العربية للطباعة والنشر مصر ص 98.

النزول" ¹ وقد يدخل في تلك القرائن حتى الصمت، ذلك أنه في سياقات معينة يكون الصمت أبلغ من التلطف، وهو ما يعرف عند الأصوليين بـ(دلالة المسكوت عنه) و (الإجماع السكوتي) ذلك أن السكوت لا يعني العي أو عدم القدرة على البيان بل إن السكوت بتعريف الجرجاني " السكوت هو ترك الكلام مع القدرة عليه " ² وإنما كان الترك لدلالة معينة فيكون السكوت قرينة توجه الدلالة بمقتضى السياق الذي كان فيه هذا السكوت، وقد " يكون السكوت في معرض الحاجة بيان " ³ والأمثلة في ذلك أكثر من أن تحصى ⁴ وطالما كان السكوت في موضع يجب الكلام فيه، فذاك يعني أن السكوت _هنا_ أدل من الكلام، ولعل هذه الإشارة المهمة تعد فارقة في تراث الأصوليين تحتاج استقراءً في جزئياتها.

ويسوق (الجاحظ) شاهدا مهما يؤكد أن الدلالة لا تتحقق بفعل الكلام في كل الأحوال بل هناك صامت ناطق من جهة الدلالة متى اقتضى السياق الصمت دالا على ما لم تدلل عليه الألفاظ يقول الجاحظ: " الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير يد...وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص فالدلالة

¹ ينظر اللغة و النقد الأدبي تمام حسان/ مجلة فصول وللاستزادة أكثر ارجع الى كتاب اللغة العربية معناها ومبناها للمؤلف نفسه ص 191.

² علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني: التعريفات، المحقق : جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان الطبعة :الأولى 1403 هـ -1983م ص/120

³ الكوز الحصارى، (محمد الخادمي) مصطفى بن السيد محمد، منافع الدقائق شرح مجامع الحقائق، غير محقق دمشق، ص321 (نقلا عن المكتبة الرقمية العربية)

⁴ من ذلك قول النبي ﷺ عن البكر وقد استأذنت في نكاحها " إِنَّهَا صُمَاتُهَا رواه البخاري في النكاح 2556/6 ، برقم 6570 وحديث الأعرابي الذي رواه مسلم في صحيحه رقم الحديث: 2388 ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: " أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا " ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟، فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: دَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ. "

التي في الموات الجامد، كالدلالة في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، و العجماء معربة من جهة البرهان...¹ ومن عجيب اهتمامهم بالقرائن غير اللغوية المقتضية للدلالة إشارة يوردها (ابن الاثير) في سياق حديثه عن الظروف المرافقة لإنتاج النص وملابسات البيئة وما تعارف عليه القوم بوصفها قرائن تساعد على إدراك الدلالة يقول (ابن الاثير) و" يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة عند جلوة العرس، و إلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة، فما ضنك فوق ذلك؟"² وهي إشارة قاطعة بوعي القدامى بأجل التفاصيل وأدقها التي تصنع سياق المقام فما ضنك بما هو واضح وجلي ؟ ويضعنا القاضي (الجرجاني) أمام توصيف يتجاوز عصره حين يربط الدلالة بأوضاع نفسية وطبائع في الخلقة ومظاهر فيزيولوجية توجه الدلالة حيث تغدو سلامة الطبع محفزا لسلامة اللفظ لنتأمل هذا النص " يرقّ شعُرُ أحدهم، ويصلب ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعّر منطق غيره، وإنّما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فإنّ سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودمائة الكلام بمقدار دمائه الخلقة. وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك، وأبناء زمانك، وترى الجافي منهم كزّ الألفاظ، معقّد الكلام، وعِر الخطاب، حتى أنّك ربّما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك " ³

ويعمق (السكاكي) هذا التصور حين يعقد للخطاب مقامات تتنوع حسب الأحوال ولكنها تقضي في نهاية المطاف إلى مقتضى الحال " يقول: " لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة ؛ فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الهزل،

¹ - الجاحظ البيان والتبيين الجزء الأول ص 81.

² - ابن الأثير ضياء الدين المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر الجزء 1 تحق أحمد الحوفي وبدوي طبانة دار نهضة مصر القاهرة 1973 ص 73.

³ - القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، 187 .

وكذا مقام الكلام ابتداء يغير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار. ومقام البناء على السؤال يغير مقام البناء على الإنكار. وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال " ¹

و(الغزالي) إشارات مهمة يدقق فيها مفردات السياق في ارتباطه مع القرائن الدالة حيث يعدد مراتب تحقق الدلالة: " طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة " ⁽²⁾ فإذا تعرض وضع اللغة إلى الاحتمال حينئذ لابد من قرينة وهي نوعان: " وإن تطرق إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة أما لفظ مكشوف مثاله قوله تعالى واتوا حقه يوم حساده وحقه العشر، وإما إحالة على دليل العقل: كقوله تعالى والسموات مطويات بيمينه وقوله ﷺ: قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن " ⁽³⁾ أما القرائن غير اللفظية فهي قرائن الأحوال: " وأما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها، ⁽⁴⁾. ويدقق (الغزالي) وضع القرائن بأنها " كل ما ليس له عبارة موضوعة في اللغة يتعين فيه القرائن " ⁽⁵⁾... وتبدو هذه الإشارات جامعة لقرائن عدة ترافق فعل المخاطبة _ كما يقول الغزالي _ من ذلك إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق، يقرر (الغزالي) أنها فوق الحصر لكثرتها وتنوعها

¹ - يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي مفتاح العلوم ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت - لبنان 1407 هـ - 1987 م ص 168
⁽²⁾ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المستصفى في علم الأصول طرق الاستنباط ج 3 تحق حمزة بن زهير حافظ: الناشر: شركة المدينة المنورة للطباعة المدينة المنورة السعودية ص 29

(3) المرجع نفسه ص 29

(4) المرجع نفسه ص 30

(5) المرجع نفسه ص 30

ورغم أن هذه العينات تدلل على القرينة المقامية إلا أنه من المهم جدا أن نؤكد أنه لا يمكن حصر هذه الإشارات في مفردات محددة بل إنها من التنوع والكثرة بحيث تفتح للمستنبط أفقا رحبا وقد تكون إشارة الزمخشري للدلالة اللون في النص القرآني عينة أخرى حيث يبدو فيه قارئاً للون الأزرق الذي يقترن بالإجرام وسوء العاقبة يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ سورة طه الآية 102 فينسجم تأويل دلالة اللون الأزرق مع السياق الثقافي للبيئة العربية التي تستهجن هذا اللون، ذلك " أن الزرقة أبغض شيء من الألوان إلى العرب لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في العدو أسود الكبد، أصهب السبال، وأزرق العينين" ¹. فيبدو تفسير استهجان الزرقة مستندا لهذه المعطيات السياقية الثقافية بمكوناتها وملابس البيئة إلى أبعد حد ممكن بدلالة قرينة اللون.

هذه إشارات متنوعة تؤصل لوعي المنجز التراثي وتحديد الأصول منه بالقرائن بنوعيتها اللفظية والمقامية بوصفها مكونات مهمة للسياق، مع التأكيد أن المبحث اقتصر على القليل منها، قياسا بما هو متواتر في مدوناتهم إلا أنها دالة وجازمة بحضور السياق في تراثنا القديم .

أسباب النزول إجراء سياقي في تفسير القرآن

ومن أهم القرائن التي يُجمع علماء الأصول ومفسرو القرآن على ضرورتها (مقولة أسباب النزول) فعلى المفسر بلا بد تمثل علم المناسبات إذ " لا يمكن _ يقول (الواحدي): تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها" ² بل إن علوم القرآن وفهم مقاصده يرتبط بالضرورة بمعرفة أسباب النزول ويدلل (الشاطبي) على ذلك بأن: " معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم

¹ - جار الله محمود بن عمر الزمخشري تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج 4 تحقيق وتعليق محمد مرسي عامر مراجعة شعبان محمد إسماعيل دار المصحف شارع الصناديق القاهرة ص 45

² - السيوطي الإتقان في علوم القرآن ج 1 ص 107

القرآن والدليل على ذلك أمران: أحدهما أن فهم المعاني والبيان، الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال¹ ويورد (النيسابوري) شاهدا مجملا ودقيقا يبين فيه مستويات أسباب النزول ومحددات ظروف نزول النص القرآني ضمن نسق علوم القرآن مما يتوجب على المشتغل بتفسير القرآن أن يتمثلها بشكل جيد يقول " : من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ; ابتداء ووسطا وانتهاء، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكّي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكّي، ثم ما نزل بالجحفة، وما نزل بببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، ثم ما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا، ثم الآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملا، وما نزل مفسرا، وما نزل مرموزا، ثم ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدني. هذه خمسة وعشرون وجها، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى " ²

وأسابب النزول أهم مقتضيات الأحوال التي ترتبط بالدلالة القرآنية، ذلك أن سبب النزول يعد مرجعا لتوثيق الدلالة أوللفصل في التنازع الدلالي أو في تبين المشكل من القرآن. ويحدد (الشاطبي) مقتضيات الأحوال في: " حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطب، أو المخاطب، أو الجميع " ³ وهي المكونات الأساسية التي ينبني عليه السياق بمظهره اللغوي و

¹ - الشاطبي الموافقات ١ ج 4 ص 146

² - الزركشي البرهان في علوم القرآن ج 1 ص 192

³ - الشاطبي الموافقات ج 4 ص 146

المقامي مثلما تؤسس هذه المقولات للمنحى التداولي للخطاب. ويفصل (الشاطبي) هذا المنحى بقوله " الكلام الواحد، يختلف فهمه، بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك " ¹، ثم يمثل تدليلاً على السياق اللغوي بالاستفهام والأمر اللذان يخرجان من مستوى الحقيقة إلى معان كثيرة، تلك المعاني التي لا تحددها إلا مقتضيات الأحوال بما في ذلك الرجوع إلى ملابسات النزول: "كالاستفهام: لفظه واحد ويدخله معان أخرى من تقرير، وتوبيخ، وغير ذلك، وكالأمر، يدخله معنى الإباحة، والتهديد، والتعجيز ومعرفة أشباهها، ولا يدل على معناهما المراد، إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال " ² ثم يحذر (الشاطبي) من عدم معرفة القرائن الدالة _ والتي من أهمها قرينة أسباب النزول، _ فمن فاته العلم بها فاته إدراك مقصود الكلام " وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة، فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه " ³ ومعرفة أسباب النزول _ في هذا الباب _ هي الجامع لكل القرائن الرافع لكل مشكل ومعرفة السبب هي معرفة مقتضى الحال، يقول (الشاطبي): " ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب، هو معرفة مقتضى الحال " ⁴ ومع هذا التحديد يضيف (الشاطبي) أن أهم ما يميز الأحوال هو تنوعها وتباينها بالنظر إلى الحوادث والنوازل والأوقات، ولذلك وجب في تلقي الخطاب النظر إلى مقصود الشارع بحسب القضية التي اقتضاه الحال الذي قد يكون الاستناد إلى إجراء أسباب النزول فاصلاً فيها يقول الشاطبي: " إن المساقات تختلف باختلاف الأحوال، والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال

¹ - المرجع نفسه ج 4 ص 146

² - المرجع نفسه ج 4 ص 146

³ - المرجع نفسه ج 4 ص 146

⁴ - المرجع نفسه ج 4 ص 146

المستمع والمتفهم، الالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية التي اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخره، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق ببعض لأنها قضية واحدة، نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف¹ وفي المنحى نفسه يرى (العز بن عبد السلام) أن الفاصل في ترجيح المعنى بعد صريح النص هو سياق الكلام بما في ذلك ظروف النزول ومقتضيات الأحوال، يقول: "وقد يتردد معنى الآية بين محامل يتساوى بعضها مع بعض، ويترجح بعضها على بعض، وأولى الأقوال ما دلّ عليه الكتاب في موضع آخر أو السنة، أو إجماع الأمة، أو سياق الكلام، وإذا احتمل الكلام معنيين، وكان حمله على أحدهما أوضح وأشدّ موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى²."

والسياق بنوعيه (اللغوي والحالي) الذي أشار إليه (العز بن عبد السلام) يحدد (ابن القيم الجوزية) مساقاته بالنظر إلى المتكلم والمخاطب والزمان والمكان الذي نتج فيهما الخطاب، وليس الزمان والمكان غير ذلك الإطار الذي يحدد أسباب النزول: "فكون اللفظ صريحا أو كناية، أمر يختلف باختلاف عرف المتكلم، والمخاطب، والزمان، والمكان، فكم من لفظ صريح عند قوم، وليس بصريح عند آخرين، وفي مكان دون مكان وزمان دون زمان، فلا يلزم في كونه صريحا في خطاب الشارع، أن يكون صريحا عند كل متكلم وهذا ظاهر"³.

¹ - المرجع السابق ج 4 ص 266

² - العز بن عبد السلام الإشارة إلى الإيجاز ص 220.

³ - ابن القيم الجوزية أعلام الموقعين عن رب العالمين ج 1 دار الحديث القاهرة ص 354

وكثيرا ما تتحدد هذه المعطيات السياقية التي أشارت لها الشواهد السابقة من (الزمان، المكان، أعراف التلقي والظروف المرافقة للتنزيل ...) بالاستناد إلى أسباب ومقتضيات نزول الآيات من القرآن .

هذه بعض من المقولات التي تتأسس لفهم ناضج لقضايا السياق في المدونات الأصولية بكل التحديدات والجزئيات رافقت ذلك الاشتغال المتميز لهؤلاء الأعلام على النص القرآن الكريم في بنيته الدلالية الكبرى كان الدافع فيها حرصهم الصادق على صيانة النص القرآني من عبث المغامرين بفعل الجهل أو المأجورين بفعل العداء المتمكن لهذه الأمة وميراثها الرائع .

الفصل الرابع:

التنافس بين المنجز الغربي والممارسة التراثية

العربية

الفصل الرابع: التناص بين المنجز الغربي والممارسة التراثية العربية

المبحث الأول: التناص منجز غربي

(intertextualité)

مدخل

في مفهومه الواضح والمحدد _دون الخوض في التعقيدات_ يُفهم التناص بأنه هو التداخل بين نصين أو أكثر، بمعنى وجود علاقة ما بين هذه النصوص بفعل الاستحضار داخل نص أكبر أو هو شكل من أشكال الاستدعاء لنصوص سابقة تداعت في نص مائل / قائم من خلال علاقات محددة كالاستشهاد، الاحتجاج، التوضيح، الشرح، أو التمثيل وغيرها من العلاقات التي لا يمكن حصرها بل يملئها ويحددها النص الأكبر (المائل /القائم) الذي يكون مساحة لتلاقي هذه النصوص .

وإدراك حضور هذه النصوص تتم بالضرورة بفعل قراءة نموذجية للمتلقي الذي يحتاج إلى كفاءة تمكنه من ملاحظة تداخل هذه النصوص وفهم مبررات حضورها ووظائفها داخل النص الحامل لها مما يعني أن هذا المتلقي يجب أن يكون على درجة عالية من الثقافة، المعرفة، القدرة والاطلاع على متعلقات النص الحامل كي يتأت له إدراك هذه التفاصيل . وفهم هذه العلاقات الممكنة

التناص قبل البدء :

دون القفز على إشارات مهمة للفيلسوف الألماني (فريدريك نيشة) حين شكك في أصالة أي نص أدبي ودون تجاوز لما قرره الشكلائي الروسي (شلكوفسكي) من أنه لا يمكن تصور استقلالية النص الأدبي عن غيره من النصوص السابقة له فإن الملهم الفعلي لكل النقاد الذين نظّروا للتناص هو النبعداقد والمنظر الروسي (ميخائيل باختين) **Mikhaïl Bakhtine** (إلا أن قلة هم أولئك الذين كانوا أوفياء لفكرة باختين بلامحها المستعصية ،على الرغم من أن مبدأ الحوارية بمنظور (باختين) كان هو المحضن الوثير لمقولة التناص بتوصيفاته المختلفة مع (جوليا كريستيفا)أو (تودوروف)

أو (رولان بارت) أو (جيرار جينات) أو الذين جاؤوا من هم إلا أن هذا المبدأ الباختياني ما كان ليكون مقولة تكتسح الخطاب النقدي المعاصر ويمتد تأثيرها إلى كل قارات العالم لو لم يقدر لهذا المبدأ أن تتلقفه اجتهادات هؤلاء النقاد بدءا (بكريستيفا) مرورا بأسماء أخرى من نقاد معاصرين أمثال (ميشال ريفارتار) (جيرار جينات) و(رولان بارت) (وغريماس).... ولعل السبب الأساسي في استعصاء الفكر الباختياني يعود إلى جملة من العوامل أهمها المنزع الفلسفي المجرد الذي كان ينطلق منه (باختين) ثم عدم وضوح الفكرة ربما لتفرق معالمها في كتاباته الكثيرة أما العامل الثالث فهو يرتبط أساسا بتلك الحياة المعقدة التي عاشها (باختين) وعدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي. كلها عوامل حالت دون نضج حوارية على يده، على أن ذلك لا ينفي عدم تأثير هذا الفكر في تلاميذه من بعده، ثم في توجهات الكثير من النقاد والدارسين من مختلف الجنسيات الذين أنضجوا هذا الفكر الباختياني وطوروه إلى مستوى تولدت منه الكثير من المفردات

النقدية أهمها التناص الذي نعاينه في هذه المقاربة

التناص في سياقه الفكري

من المؤكد أن هذا المفهوم الجديد يتحدد بمرحلة ما بعد البنيوية التي راجعت جل مقولات النظرية الأدبية الحديثة بما في ذلك مفهوم الإنتاجية النصية التي نهبت إلى الإستراتيجية التي تنشأ بها النصوص وتتعلق فيما بينها في مسار يتحول النص الأكبر/المائل الذي يستقبل كما هائلا من النصوص إلى فضاء ممتد تعبر عنه (كريستيفا) بالفيسفاء (Mosaïque) ،ويدل ملفوظ الفيسفاء على مبدأ التنوع والتخالف داخل نص لا تتماهى فيه النصوص فحسب بقدر ما تذوب وتفقد تميزها ضمن بناء نصي عام يقوم على التفاعل والتبادل والاستحضار بين النصوص التي تكونه ورغم أن هذا المكون النصي هو بالأساس مكون لغوي إلا أن الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ذات ملامح مهيمنة في هذا المكون اللغوي النصي بما يثري تلك الفيسفاء .

بدايات التناص

يجمع الدارسون أن أول استعمال لمصطلح التناص (intertextualité) كان من ابتكار الناقدة البلغارية (جوليا كريستفا) (Julia Kristeva) بداية من 1965 إلى أواخر الستينات ولقد كان هذا الابتكار مرتبطا جدليا ببحثها في نظرية النص وقت انتقالها إلى باريس واحتكاكها بالاتجاهات النقدية المتحررة آنذاك من بنيوية وسمائية وتفكيكية كما أنها كانت متأثرة على المستوى الأيدلوجي بالماركسية وهو ما يبرر اعتبارها الأدب إجمالا شكلا من أشكال الإنتاج على غرار الإنتاج الاقتصادي مثلما كان واضحا أنها كانت شديدة التأثير بفكر (ميخائيل باختين) بل إنها استلهمت مصطلح التناص من حوارية النصوص Dialogisme

لباختين التي استقرأها على إثر دراسته المعروفة لأعمال (دستويفسكي) (Dostoïevski F) في كتابه المشهور (شعرية دستويفسكي) ويمكن اختزال هذه الحوارية في مقولته الشهيرة ؛: " الوقوف

علي حقيقة التفاعل الواقع في النصوص في استعادتها أو محاكاتها لنصوص أو لأجزاء من نصوص سابقة عليها " ¹ حيث يرى أن كل نص يبنني على مجموعة من النصوص السابقة بفعل الاستعمال المتوارث بمعنى _ على حد تعبيره _ لا توجد لغة بكر عدا لغة آدم بوصفه أول متكلم أما من جاء بعده فكل متكلم أخذ عن سابقه وهكذا دواليك، ومثلها النصوص فهناك تداخل بينها بفعل التأثير والاستعمال وما نعتقد أنه صوتنا هو في حقيقة الأمر صوت الآخرين قبلنا ناطق فينا وعليه فكل نص هو بهذا الوصف فسيفساء (Mosaïque) تتماهى فيها مجموعة من النصوص تعبر عن نفسها بالاستشهاد أو التمثيل أو... وما يقوم به النص هو امتصاص هذه الاستشهادات وتحويلها إلى مادة في النص الحالي أو قد تحول إلى نص جديد.

وظيفة التناص

تتحدد وظيفة التناص كظاهرة نصية في أنه يشكل ذاكرة النص المتوارية عبر مساقات تاريخية ممتدة بفعل الأخذ عن السابق والتفاعل معه باستحضار تراكمات إبداعية ضاربة في العراقة والقدم تطفو على سطح النص الراهن / المائل، وسيان شاء مبدعه أم لم يشأ، وعى أم لم يع فإن تلك النصوص تفرض نفسها بمساحات نصية مختلفة على نصه وقد لا ينجو أي مبدع مهما كانت أصالة إنتاجه وقدرته على الابتكار من أثر السابقين فيه إلى الحد الذي يمكن أن نقول فيه أنه لا توجد لغة أصيلة تنبع من مكوناتها الذاتية الصرفة دون العبور على مرفأ السابق في الوجود ورغم أن هذا التصور بكل هذه التحديدات يمكن نسبياً قبوله _ على المستوى النظري _ إلا أنه على المستوى العملي من الصعب أن نتمثل فهما يلغي دور الكاتب في إبداع نصه حين نجرده من

¹ شريل داغر، التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد

أصالة اللغة ونُعد ما أنتجها مجرد صدى لمقولات سابقة، ومع التسليم بذلك التفاعل والتداخل وحضور السابق في اللاحق إلا أن هذا لا يعني مطلقاً أن تذوب لغة المبدع _ على وجه الإطلاق _ في غيرها من اللغات مهما كان تأثير هذه اللغات، رغم التسليم بأن التناص يعد جسر عبور بين الثقافات والحضارات مع احتفاظ كل حضارة بخصوصيتها، ولذلك "يعد التناص من أهم المفاتيح الإجرائية لفهم الأدب المقارن، ورصد عملية التثاقف والحوار بين الحضارات والثقافات الإنسانية في شتى المجالات الفكرية والفنية والأدبية، ويعتبر كذلك أداة ناجعة لمقاربة النص الأدبي، واستتطاق سننه اللغوي وبنيته العميقة، والدخول إلى أغوار النص، واستكناه دلالاته وتفاعلاته الخارجية والداخلية. لأن النص مهما كان، فهو شبكة من التفاعلات الذهنية، ونسق من المصادر المضمره والظاهرة التي تتوارى خلف الأسطر، وتتمدد في ذاكرة المتلقي عبر آليات، مثل: المعرفة الخلفية، وترسبات الذاكرة، والخطاطات النصية، والسيناريوهات التصويرية، والتداخل النصي، وتعدد الأصوات، والأسلبة، والباروديا، والتهجين..¹

جوليا كريستيفا التناص ومبدأ الهدم والتقويض

في كتابها (علم النص) تحت عنوان النص المغلق، وهي تقرأ ذلك الحوار بين النصوص الشعرية لدى الشاعر (لوتري مون) (Lautréamont) تقرر (جوليا كريستيفا) أن التناص هو "نصوص تتم صناعتها عبر امتصاص وفي نفس الآن عبر هدم النصوص الأخرى للفضاء المتداخل نصياً..² ومعنى الهدم والتقويض يحيل _ لاحقاً _ إلى نقض أصالة النص وانتمائه حين يبيح نفسه لمجموعة من النصوص السابقة له عبر فعل الامتصاص والتماهي وهي فكرة

¹ - نظريات النقد الأدبي في مرحلة مابعد الحداثة جميل حمداوي منشورات موقع الألوكة

² - جوليا كريستيفا علم النص تر: فريد الزاهي مراجعة عبد الجليل ناظم دار توبقال للنشر ط 2 الدار البيضاء المغرب 1997 ص 79

ستتعمق أكثر عند (رولان بارت) حين تقضي بتجريد النص من هويته الشكلية مثلما تقضي إلى قطع صلته بمؤلف الذي يوقع شهادة وفاته في اللحظة التي ينتهي فيها من كتابة نصه.

إن هذا الهدم هو أيضا بمنظور (كريستيفا) فضاء للتنافي بين مجموعة من النصوص تتقاطع في نص واحد "ففي فضاء معين تتقاطع وتتنافي ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى" ¹ إن هذا التنافي بين النصوص وهذا الهدم لبعضها هو الذي يحقق للنص المعايين / المائل ما تسميه (جوليا كريستيفا) بالفسيفساء التي لا تتضح فيها الألوان بالكيفية التي تحدد هوية كل نص، بل إنها تصر على مبدأ التماهي والترحال ذلك " أن كل نص هو امتصاص وتحويل وإثبات ونفي لنصوص أخرى" ² وتعاين (كريستيفا) وهي تقارب نصوص الشاعر الفرنسي (لوتريامون) مظاهر النفي عبر أنماط ثلاثة: " النفي الكلي: وفيه يكون المقطع الدخيل منفياً كلياً ، ومعنى النص المرجعي مقلوباً" ³ وتورد مثالا من مقطع لـ(باسكال) "وأنا أكتب خواطري، تنفلت مني أحيانا، إلا أن هذا يذكرني بضعفي الذي أسهو عنه طوال الوقت، الشئ الذي يلقني درسا بالقدر الذي يلقني إياه ضعفي المنسي، ذلك أنني لا أتوق سوى إلى معرفة عدي" ⁴ ثم تضع هذا النص حيال نص يتماهى فيه (لوتريامون) حيث يقول

" حين أكتب خواطري فإنها لا تنفلت مني، هذا الفعل يذكرني بقوتي التي أسهو عنها طوال الوقت، فأنا أعلم بمقدار ما يتيح لي فكري المقيد، ولا أتوق إلا إلى معرفة تناقض روحي مع العدم" ⁵ أما النمط الثاني فهو "النفي المتوازي: حيث يظل المعنى المنطقي

¹ - المرجع نفسه ص 21

² - المرجع نفسه ص 79

³ - المرجع نفسه الصفحة نفسها

⁴ - المرجع نفسه الصفحة نفسها

⁵ - المرجع نفسه الصفحة نفسها

للمقطعين هو نفسه إلا أن هذا لا يمنع من أن يمنح اقتباس (لوتريامون) للنص المرجعي معنى جديداً معادياً للأنسية والعاطفية والرومانسية التي تطبع الأول¹ وتسوق (جوليا كريستيفا) مثالا للتوضيح: " هذا المقطع للأروشفوكو: "إنه لدليل على وهن الصداقة عدم الانتباه لانطفاء صداقة أصدقائنا

والحال أنه يصبح عند لوتريامون: "إنه لدليل على الصداقة عدم الانتباه لتنامي صداقة أصدقائنا"² ثم تعلق على هذه الوضعية بالقول " هكذا نفترض القراءة الاقتباسية من جديد تجميعاً غير تركيبى للمعنيين معا "³ أما النمط الثالث فهو " النفي الجزئي: حيث يكون جزء واحد فقط من النص المرجعي منفيًا "⁴ وتورد مثالا مقطعا لباسكال:

" نحن نضيع حياتنا، فقط لو نتحدث عن ذلك

ويقول (لوتريامون)

"نحن نضيع حياتنا ببهجة المهم ألا نتحدث عن ذلك قط"⁵

ثم تعلق (جوليا كريستيفا):

" هكذا يفترض المعنى الاقتباسي القراءة المتزامنة للجملتين معا "⁶

ودون الخوض في تفاصيل هذا التماثل بين نصي (باسكال) (ولوتريامون) والأمثلة الأخرى التي

تسوقها جوليا كريستيفا

1 - المرجع نفسه الصفحة 79

2 - المرجع نفسه الصفحة نفسها

3 - المرجع نفسه الصفحة نفسها

4 - المرجع نفسه الصفحة نفسها

5 - المرجع نفسه الصفحة نفسها

6 - المرجع السابق الصفحة نفسها

في قراءتها التكنولوجية لمسار الأدباء من ذلك (إدغار الان بو) و (بودلير) و (مالارمي) فإنه لا يمكن تعميم هذه الظاهرة على كل النصوص الشعرية أو على غالبيتها ورغم أن هذه الظاهرة لها نظائر في كل الأشعار في كل عصر ومصر، بما في ذلك الشعر العربي فيما عرف بالسرقات الأدبية مثلا إلا أنها لا تؤسس لمبدأ نفى أصالة النص وهدر هويته الصرفة واعتبار " أن كل نص هو امتصاص وتحويل وإثبات ونفي لنصوص أخرى ¹ فهذا الإطلاق يفقد النص أهم ما يميزه عن غيره من النصوص وهو انتمائه لمؤلفه، الذي سنقطع الصلة بينه وبين نصه بما يقرره (رولان بارت) بموت المؤلف كمرحلة أخيرة لتجريد النص من أواصره التي أوجدته بالضرورة.

مابعد جوليا كريستيفا :

لم يتوقف الدرس الذي تناول التناص بالبحث عند حدود ما قرره (جوليا كريستيفا) بوصفها التلميذة الوفية لباختين، بل تطورت الدراسات بوتيرة جد متسارعة إلى درجة أنه لم يبق من مضمون التناص إلا المصطلح بفعل الإضافات بل إن المصطلح نفسه قد تعرض للتحوير والتعديل " و أدى تمييع المفهوم المرتبط بهذا الانتشار إلى أن (كريستيفا) لم تعد تستعمله منذ السبعينات " ² ولعل هذا هو الذي حدا بها إلى أن تثور على هؤلاء النقاد حيث رأت أن المصطلح أفرغ من مضمونه وذلك ما يفسر استعمالها مصطلحا بديلا هو إعادة التوضع (Transposition) لكن لم يكتب لهذا المصطلح الانتشار وظل مصطلح التناص متداولاً مع ما لحقه من تغييرات على مستوى المدلول.

¹ - المرجع نفسه ص 79

² مجموعة من المؤلفين علم لغة النص نحو أفاق جديدة تر سعيد حسن بحيري مكتبة زهراء الشرق ط 1 القاهرة، 2007 ص 81

وقد اشتغل على التناص الكثير من النقاد المعروفين أبرزهم: (تزننت تودروف)، (Tzvetan Todorov) ميشال اريفي (بلوم H. Bloom)، (شنايدر M. Schneider) (رولان بارت R. Barthes)، (غريماس)، (جاك دريدا J. Derrida) (ميشال ريفاتير M. Riffaterre) و جيرار جينيت G. Genette وأسماء أخرى... مع التأكيد أن لكل واحد من هؤلاء بصماته التي قد تختلف في جزئيات بسيطة عن غيره ومع التأكيد - أيضا - أن استغراق هؤلاء الأعلام في هذه التفاصيل والجزئيات قد أخرج الدرس النقدي المتعلق بالتناص - أحيانا - عن جوهره إلى قضايا أخرى تتزاحم، ولا تتقاطع مع أنساق أخرى وهذا - في تقدير الشخصي - هو ما برر نفور (جوليا كريستيفا) من تلك الممارسة النقدية التي ربما خرجت بالتناص خارج النص .

رولان بارت تأصيل التناص بإعدام المؤلف:

لعل إيمان (رولان بارت) (R. Barthes) بأن التناص هو قدر كل نص كيفما كانت هويته يؤصل لأسبقية التناص على النص ويفسر هذا التأصيل كون إنتاج النص لا يعدو أن يكون تراكما لمجموعة من النصوص عبر مسار تاريخي متحول وهو ما يعبر عنه بقوله: " كل نص هو تناص، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال ليست عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى." ¹ وهو المبرر الذي يجعل " التناصية قدر كل نص، مهما كان جنسه، لا تقتصر حتماً على قضية المنبع أو التأثير " ² وقدر النص أن يكون تابعا للتناص يتأسس على اعتبار "التناص مجال عام للصيغ المجهولة التي يندر معرفة أصلها، استجابات لا شعورية عفوية ومُتصوّر التناص هو الذي يعطي - أصولياً - نظرية النص جانبها الاجتماعي. فالكلام كله سالفه

¹ - رولان بارت نظرية النص: " بحث مترجم ضمن كتاب " آفاق التناصية... المفهوم والمنظور " - ترجمة

محمد خير البقاعي، 30، الهيئة المصرية العام للكتاب . ص 42

² - المرجع السابق الصفحة نفسها

وحاضره يصب في النص، ولكن ليس وفق طريق متدرجة معلومة، ولا بمحاكاة إرادية وإنما - وفق

طرق متشعبة - تمنح النص وضع الإنتاجية، وليس إعادة الإنتاج.¹

وعلى الرغم مما يقرره (بارت) من أن قدرة النص على الإنتاجية وما يمارسه النص من فعل لجمع تلك الاستشهادات والاستجابات اللاشعورية فإن قدرة التناص - بمنظوره - هي أكبر من قدرة النص ذلك " أن الكلام موجود قبل النص"² والتناص هو الذي يستحضر المكتوب من قبل وبالتالي يتمكن النص من أن " يرجعنا بطريقة مختلفة إلى بحر لانهائي هو المكتوب من قبل " ³

ولعل ذلك هو ما حدا ب(لوتمان) إلى نفي إمكانية تصور نص خارج فاعلية التناص بوصف الأخير منشأ للأول وبهذا الاعتبار يكون هو " المدخل الصحيح، لتناول موضوع التناص من ناحية، ولطرح مفهوم جدلي وحركي للنص، يجعل من العسير تصور وجوده وفاعليته (أي النص)، خارج إطار هذا المفهوم الشامل للتناص"⁴

ويبرر (بارت) هذا الوصف الذي يجعل النص دون التناص فاعلية وسلطة والذي يعكس جدلية العبد والسيد بأن الكلام أسبق من النص وأن فعل التوزيع وإعادة التوزيع الذي تمارسه اللغة هو واحد من المبررات التي تجعل التناص هو النص بالإضافة إلى فعل التفكك والإنشاء كلها عوامل تجعل من التناص فضاءً تتراءى فيه مجموعة من النصوص والاستشهادات السابقة "

¹ - المرجع نفسه ص 43

² - المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ - رمان سلدن النظرية الأدبية المعاصرة تر جابر عصفور الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة 1996 ص 148

⁴ - صبري حافظ أفق الخطاب النقدي دراسات نظرية وقرءات تطبيقية دار شرقيات للنشر ط 1 القاهرة

النص يعيد توزيع اللغة (وهو حقل إعادة التوزيع هذه). إن تبادل النصوص أشلاء نصوص دارت أو تدور في فلك نص يعتبر مركزاً، وفي النهاية تتحد معه، هو واحدة من سبل ذلك التفكك والإنبناء، ... فكل نص ليس إلا نسيجاً جديداً من استشهادات سابقة، وتعرض موزعةً - في النص - قطع مدونات، صيغ، نماذج إيقاعية، ونبذ من الكلام الاجتماعي - إلخ، لأن الكلام موجود قبل النص وحوله ¹

وفي هذا السياق يكون النص بما يملكه من لذة وممتعة هو مجرد عملية استحضر أو ذكرى ترتحل فيها التجارب أولنقل تتداخل فيها هذه التجارب مع مصادر أخرى ويفقد المؤلف فيها تلك السلطة التي كانت تجعل منه مبدعاً و مرجعاً مثلما اعتاد أن يتوهم القارئ يقول (بارت) "أذوق سيطرة الصيغ، وانقلاب الأصول، والاستخفاف الذي يستحضر النص السابق من الحاضر وما أدركه هو أن أعمال (بروست) هي بالنسبة إليّ، وفي الأقل، من مرتبة المراجع، وهي أيضاً المعرفة العلمية والخارطة الكونية لنشأة الكون الأدبي برمته وهذا لا يعني أنني "مختص" ببروست: إن (بروست) هو الذي يحضرني ولست الذي أناديه، إنه ليس مرجعاً حتمياً، وإنما مجرد ذكرى دائرية محتومة²

تلك سلطة التناص التي تصنع النص اللامتناهي وسواء كان هذا النص (بروست) أو صحيفة أو شاشة تلفزيون فإن ذلك سيات عند (بارت) "وهذا هو بالضبط التناص: استحالة العيش خارج النص اللامتناهي، سواء كان هذا النص بروست أو الصحيفة اليومية، أو شاشة التلفزيون"³

¹ رولان بارت: نظرية النص . ص 42

² رولان بارت: " لذة النص "تر: د محمد خير البقاعي . تقديم عبد الله الغدامي منشورات المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة ط 2 القاهرة 1988 ص 42

³ المرجع السابق

التناص شهادة وفاة المؤلف

إن سلطة التناص _ بمنظور بارت _ ليست إلا الوصفة القاتلة التي أذنت بموت المؤلف ذلك ما يبدو من حرص (بارت) على تجريد النص من أصالته بحيث أصبح مجرد تراكمات لمقولات مختلفة ومتنوعة وسابقة للنص تنتظم بفعل تناصات متوالية عبر سياقات اجتماعية وتاريخية وثقافية، وهي في مستوى ثانٍ ليست إلا امتداداً طبيعياً (لموت الإله) بمنظور (نيتشه) "إننا لنعرف الآن أن النص ليس سطراً من الكلمات ينتج عنه معنى أحادي أو ينتج عنه معنى لاهوتي لرسالة جاءت من قبل الله ولكنه فضاء لأبعاد متعددة تتزواج فيها كتابات مختلفة وتتنازع دون أن يكون أي منها أصلاً: فالنص نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤر الثقافة " ¹ إن هذا التوصيف الذي يجعل النص بدون أصل ممثلاً لفعل التناص والذي يجعل من النص مفعولاً فيه و التناص فاعلاً إنما هو في مستوى آخر _ وهو المهم بالنسبة لبارت _ يجعل من المؤلف فاقداً للفعل معدم الإرادة يوقع شهادة وفاته في اللحظة التي ينتهي فيها من كتابة النص " فحين يمحو الموت توقيع الكاتب فإنه يؤسس حقيقة الكتاب " ² وكأن حقيقة الكتابة نفي لحقيقة المؤلف !! وفي أحسن الأحوال فالمؤلف ليس إلا آلة صماء تحاكي الأشياء دون وعي وانتباه، ذلك تقدير بارت إذ يقول " المؤلف لا يستطيع إلا أن يحاكي حركة سابقة له على الدوام دون أن تكون هذه الحركة أصلية " ³ وليس للمؤلف من فضل سوى أنه ناسخ مضحك _ هكذا يتهم بارت من (بوفار) و(بيكوشيه) _ يقول " وإنه ليشبه (أي المؤلف) في هذا بوفار و بيكوشيه فهذان

¹ رولان بارت نقد وحقيقة تر منذر العياشي مركز الإنماء الحضاري ط 1 حلب سوريا 1994 ص 21

² _المرجع نفسه ص 95

³ _المرجع السابق ص 21

الناسخان الأبديان الرائعان والمضحكان في الوقت نفسه يشير عمقهما التافه إلى حقيقة الكتابة " ¹ ويؤسس بارت هذا التهمك أولنقل هذا النفي السمع للمؤلف على شهادة بعض الكتاب أنفسهم "إنه على الرغم من أن إمبرطورية المؤلف لا تزال عظيمة السطوة فمن البديهي أن بعض الكتاب قد حاول منذ أمد بعيد أن يزلزلها ولقد كان (مالا رمية) هو أول من رأى في فرنسا وتنبأ بضرورة وضع اللغة نفسها مكان ذاك الذي اعتبر إلى وقت مالكا لها (يقصد المؤلف) فاللغة بالنسبة إليه (يقصد مالا رمية) كما هي الحال بالنسبة لي هي التي تتكلم وليس المؤلف " ²

إن هذا التصور الذي يلغي المؤلف حين ألغى النص مقابل سلطة التناص كفعل هدم وتقويض هو الذي يحدد معنى الكتابة التي لن تكون بالتأكيد _ وفق هذا التصور _ فعل بناء وتوجيه " لأن الكتابة هدم لكل صوت ولكل أصل فالكتابة هي هذا الحياد وهذا المركب وهذا الانحراف الذي تهرب فيه ذواتنا الكتابة هي السواد والبياض الذي تتيه فيه كل هوية بدءا بهوية الجسد الذي يكتب " ³ إذن تنتهي الكتابة التي نقتني من الألوان السواد والبياض فحسب بأن تجهز على المؤلف ثم على النص وتستبقي أشلاء من النصوص فاقدة للهوية، يعبر عنها (بارت) باللغة، وعلى الرغم من تلك المسوغات التي يسوقها (بارت) إلا أنه لا يمكن _ مطلقا _ فهم قدرة اللغة وحدها دون مُنشئ لها وهو الكاتب الذي يصير (بارت) في جدله أن يلغيه ف " يصبح معنى الكتابة هو بلوغ نقطة تتحرك فيها اللغة وحدها وليس الأنا وفيها تتجز الكلام ⁴ وحين تصبح الكتابة فعلا معزولا يغيب فيه الفاعل / المؤلف وتُتجز اللغة نفسها بنفسها _ في ممارسة غير متاحة على وجه الحقيقة _ يصبح

¹ _ المرجع نفسه ص 21

² _ المرجع نفسه ص 17

³ _ المرجع نفسه ص 15

⁴ _ المرجع السابق ص 17

للنص معنى آخر أهم محدداته هو إلغاء المؤلف " إن النص ليصنع منذ الآن فصاعدا ويقرأ بطريقة تجعل المؤلف غائبا على كل المستويات " ¹ وتكفي جملة بارت (على كل المستويات) للدلالة على الإلغاء والنفي الكلي للمؤلف بكل وظائفه، بدءا بوظيفة الإبداع والإنجاز مروراً بمقصديته في التأليف ورسائل خطابه ورؤيته التي يُفصح عنها _ بالضرورة _ نصّه المنجز، وصولاً إلى مرحلة يفقد فيها النص أصله فيصبح بلا انتماء ولا هوية .

وقد يبدو أن ظاهر هذا النفي للمؤلف هو تمكين للقارئ " ويكون هذا كما سنرى بإعطاء القارئ مكان المؤلف " ² إلا أن هذه السلطة التي توهب للقارئ ليست له _ بفعل الواقع _ ومآلها حتما النفي والإلغاء _ في مرحلة قادمة _ مقابل سلطة للنص تتنازل عنها في مرحلة لاحقة للتناص ، وهي بالتأكيد أفكار تخلط المقدمات بالنتائج وتغير ببادق لعبة الشطرنج في الاتجاه الذي يبيح الملك سلطته للمجنون الذي لا يعي حكمة فيجئح إلى العبث.

إن هذه النزعة التي تلغي فعل الإنسان /المؤلف مقابل فعل النسق / البنية إن هي إلا امتداد لفكر منحرف يقول بموت الإله قبل موت المؤلف ومهما كانت مبرراتها ومسوغاتها _ وهي معروفة _ فإنها نقيض الحقيقة فضلا على أنها تصطدم مع الفطرة والمنطق.

جيرار جينات ومراجعة الجزئيات

من المفيد ونحن نعاين محددات التناص عند **Genette Gérard** (جيرار جينات) أن نعتمد آخر تحديث له وهو ما جاء في كتابه (طروس) الذي يختلف بالتأكيد عن سابق ما قرره في

¹ _ المرجع نفسه ص 20

² _ المرجع نفسه

كتاب (مدخل إلى جامع النص) حيث يعد جهده في الكتاب الأخير بمثابة المراجعات التي تم بمقتضاه تعديل بعضا من المفاهيم وقد اعتمد البحث في هذه المعاينة متن المؤلف (جيرار جينات) بترجمة الأستاذ (محمد خير البقاعي) الذي يصرح في مقدمة ترجمته بـ " أنها تعديل لما كان عرضه المؤلف في كتاب آخر "مدخل إلى جامع النص" وتُرجم هذا الكتاب إلى العربية وصار ما فيه عمدة بعض الذين عرضوا لموضوع النص والتناصية دون الانتباه إلى التعديل الجوهرى الذي أجراه المؤلف في عمق نظريته لهذا الموضوع.¹

عرض التفاصيل

يبدأ (جيرار جينات) بإشارة مهمة قبل عرض التفاصيل وهي " إنَّ موضوع الشاعرية ليس النص في حالته الانفرادية (لأنَّ هذه هي بالأحرى مهمة النقد) بل إنَّ موضوعها هو جامع النص **Larchitexte**، أو إن كُنَّا نُفَضِّل الجامعة النصية للنص "كما نقول عادة،"² ثم يضيف (جينات) أن هذا " يكاد يكون ذلك نفسه، أدبية الأدب"، ويعني ذلك مجموع المقولات العامة، أو المفارقة -أنماط الخطابات، صيغ الأداء، الأجناس الأدبية، الخ- التي ينتسب إليها أي نص فرد "³ ثم يدقق أكثر موضوع هذه الشاعرية بحصرها في ما يسميه التعدية النصية "وأقول اليوم، وبتوسع أكثر: إنَّ موضوع الشاعرية هو التعدية النصية **Transtextualite** أوالتنعالي النصي للنص **Transcendance Textuelle Du Texte**⁴ الذي كان قد عرفه سابقا تعريفا كليا بـ:

¹ جيرار جينات طروس الأدب على الأدب تر محمد خير البقاعي ضمن كتاب النص والتناصية مركز الإنماء الحضاري ط 1 حلب سوريا 1998 ص 124
² المرجع نفسه ص 124 و 125
³ المرجع نفسه ص 125
⁴ المرجع السابق

"إنّه كل ما يضع النص في علاقة ظاهرة أو خفيّة مع نصوص أخرى".¹ مع التأكيد بوضوح " إنّ التعديّة النصيّة تتجاوز جامع النّص وتتضمّن مع أنماط أخرى من علاقات التعديّة النصيّة التي نهتمّ هنا بواحدة منها".² ولتوضيح ما اصطلح على تسميته بالتعديّة النصيّة يؤطر (جينات) هذا المفهوم بخمسة أنماط من علاقات التعديّة النصيّة:

النمط الأول

أول هذه العلاقات: التناصية **Intertextualite**، ومع إشارته إلى أن (جوليا كريستيفا) هي أول من سبر هذه العلاقة وسمتها بهذا الاسم يقدم (جينات) تعريفا لهذه العلاقة " إنّها علاقة حضور مشترك بين نصّين أو عدد من النصوص بطريقة استحضارية **Eidetiquement** وهي في أغلب الأحيان الحضور الفعلي لنصّ في نصّ آخر".³ ثم يورد درجات حضور هذه العلاقة بين الوضوح والضمور فيقول " إنّ أكثر أشكال هذه العلاقة وضوحاً وحرفية هي الممارسة العادية للاستشهاد **Citation** (بين قوسين، مع الإحالة أو عدم الإحالة إلى مرجع محدّد)؛ وإنّ أقلّ أشكالها وضوحاً وشرعية هي السرقة **Plagiat** (عند لوتريامون) مثلاً وهي اقتراض غير معلن ولكنّه حرفي. وإنّ أقلّ أشكالها وضوحاً وحرفية هي الإلماع **Allusion**،"⁴

ثم يورد جينات عينات في سياق الاستشهاد ...⁵

أما النمط الثاني :

¹ المرجع نفسه الصفحة نفسها

² المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ المرجع نفسه

⁴ المرجع نفسه ص 126

⁵ المرجع السابق

فهي ما يسميه (جينات) بالملحق النصي أو النص الموازي (Paratext): وهي إجمالاً: "العنوان، العنوان الصغير، العناوين المشتركة، المدخل، الملحق، التنبيه، تمهيد، الخ؛ الهوامش في أسفل الصفحة أو في النهاية، الخطوط، التزيينات والرسوم، نرجو الإلحاق، الشريطة، القميص، وأنواع أخرى من الإشارات الكمالية الكتابية أو غيرها"¹ وتتحدد مهمتها في أنها هي " التي توفر للنص وسطاً (متنوعاً) وفي بعض الأحيان شرحاً رسمياً أو شبه رسمي لا يستطيع أكثر القراء نزوعاً للصفاء، وأقلهم اهتماماً بالمعرفة الخارجية أن يتصرف به على الدوام بالسهولة التي يريدها ولا يمكن أن يزعم ذلك."² أما النمط الثالث فيسميه جينات ب:

"أسميه الماورائية النصية (Metatextualite) وهي العلاقة التي شاعت تسميتها با "شرح" الذي يجمع نصاً ما بنص آخر يتحدث عنه دون أن يذكره بالضرورة (يستدعيه) بل، دون أن يُسميه: "³ ويورد مثالا على ذلك " وتلك هي حال "هيغل" في كتابه "ظواهرية الروح" الذي يذكر بالماع وبما يشبه الصمت رواية "ابن أخ رامو".⁴ وتحديدا لهذه العلاقة بشكل أكثر وضوح يرى جينات " إنها في أسمى صورها العلاقة النقدية"⁵

أما النمط الرابع

من علاقات التعدية النصية فهو ما يسميه جينات " إنه ما أسميه من الآن فصاعداً "الاتساعية

النصية Hypertextualite

¹ المرجع نفسه ص 127

² المرجع نفسه

³ المرجع نفسه ص 128

⁴ المرجع نفسه

⁵ المرجع نفسه

وأقصد بهذا كل علاقة توحد نصاً B (أسميه النص المتسع) بنص سابق A (أسميه طبعاً، النص المنحسر)¹ ودون أن يضبط (جينات) مفهوماً واضحاً لهذا النمط يكفي بتلك الاستعارة كتعريف مؤقت حيث يقول " والنص المتسع يُنشَب أظفاره في النص المنحسر دون أن تكون العلاقة ضرباً من الشرح. وكما نرى من الاستعارة «ينشب أظفاره» ومن التحديد السلبي فإنّ هذا التعريف مؤقت. ² لكنه يخص هذا النمط بمجموعة من الملامح المؤقتة _ برأيه دائماً _ في هذا التوصيف " أن نصاً مشتقاً من نصٍ آخر موجود من قبل. ويمكن أن يكون ذلك الاشتقاق من نسق وصفي وثقافي... ويمكن أن يكون من نسق آخر مثل أن B لا يتحدث أبداً عن A ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يوجد كما هو دون A وهو ينتج في آخر عملية أسمها مؤقتاً أيضاً التحويل Transformation فهو في النتيجة يذكره ظاهرياً قليلاً أو كثيراً دون أن يتحدث عنه بالضرورة، أو يستشهد به. " ³ وتوضيحاً لبعض هذه الملامح يضرب (جينات) هذا المثال: "فالإلياذة وعولس هما بلا شك، وبدرجات مختلفة، بالتأكيد وباعتبارات مختلفة، نصّان متسعان (من نصوص أخرى) للنص المنحسر نفسه: الأدويصة طبعاً. " ⁴

أما النمط الخامس

الذي يسميه (جينات) بالنمط الأخرس ربما لأنه أكثر الأنماط تجريداً وضمنية " **إنّه الجامعية النصية** Architextualite التي عرّفها فيما سبق. والمقصود هنا أنّها علاقة خرساء تماماً، ولا تظهر في أحسن حالاتها إلاّ عبّر ملحق نصي Paratextuelle مثبت: كما في، شعر،

¹ المرجع السابق ص 130

² المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ المرجع نفسه الصفحة نفسها

⁴ المرجع نفسه الصفحة نفسها

محاولات، رواية الوردية، الخ. أو هو في غالب الأحيان مثبت جزئياً: كما في التسميات: رواية، قص، قصائد، الخ، التي ترافق العنوان على الغلاف) وإنّ كلّ ذلك كما نرى ذو انتماء تصنيفي خالص.¹ ثم يبرر وسم هذا النمط بالأخرس " وربما كان أخرس لأنّه يرفض أن يدل على أمر بديهي، أو لأنّه بالعكس يرفض أي انتماء ويتملص منه ² ذلك أن هذه الوظيفة _ بمنظور جينات _ فيها الكثير من الاحتيال والمخاتلة: " فالرواية لا تحدّد نفسها صراحة على أنّها رواية، ولا القصيدة على أنّها قصيدة وربما بدرجة أقل البيت الشعري على أنه بيت شعري، والنثر على أنّه نثر والقصّ على أنه قص، الخ." ³ إنّما الذي يحدّد نوع النص ويحكم عليه إنّما هو القارئ " فليس مهمة النص في نهاية الأمر أن يحدّد وضعه النوعي ولكّنها مهمة القارئ والناقد والجمهور الذين يستطيعون تماماً أن يرفضوا الوضع الذي تمّ تبنيه عبر جامع النص" ⁴ .

تلك أهمّ التحديدات التي تشكل فهم (جيرار جينات) للتناص، مع التأكيد على أن ما ميز جهده هو تلك التغيرات الواضحة في المصطلحات وما اعتمده من تنويع في ترسيمته القائمة على الأنماط الخمسة رغم أنه من الواضح أن الكثير من هذه المفاهيم تكاد تتقاطع مع قررته (جوليا كريستيفا) وغيرها من المشتغلين على مباحث التناصية وإن تنوعت المصطلحات وتفرعت الجزئيات .

خلاصة في المحددات العامة

¹ المرجع السابق ص 129

² المرجع نفسه الصفحة نفسها

³ المرجع نفسه الصفحة نفسها

⁴ المرجع نفسه الصفحة نفسها

لعله قد تبين من خلال هذه المقاربات السريعة التي لم يكن المحفز الأساس فيها حديثاً عن التناس بشكل مباشر وإنما لارتباط التناس بالممارسة النصية على اعتبار أن التناس معيار أساسي من معايير النصية وبالتالي فهو أهم مظاهر الاشتغال على النص وفي هذا الاتجاه كانت معايينتنا لهذه العينات للذين اشتغلوا على التناس في البيئة الغربية بوصفهم هم الذين أوجدوا هذا النسق وهم الذين طوروه في دراساتهم المتعاقبة ومع أننا اقتصرنا في هذا التناول على باختين وكريستيفا وبارت وجينات كعينات دالة وهامة فإنه بحكم الاستقراء في عينات أخرى من الدارسين تكاد المقولات الواصفة للتناس تتفق جميعها في أهم النتائج التي سنسوغها في هذه المفردات :

1 التناس هو بحث في العلاقات الماثلة داخل نص ما، بين نصوص ومقولات وأمثلة وشواهد وإشارات دالة يربطها فيما بينها منطق النص الذي يجمعها في مساحة محددة موصوفة بأنها قصيدة أو رواية أو محاضرة أو خطبة أو أي كلام بما في ذلك الخطابات العادية إلى غير ذلك من الخطابات اللغوية الدالة شريطة أن تتسم هذه الخطابات والنصوص بصفة النصية

2 التناس عملية هدم للنصوص وإعادة تشكيلها من جديد بفعل حضور النصوص السابقة فيها التي يشكل حضورها لوحة فسيفساء يحكمها التنوع والتباين داخل النص المائل

3 يمكن اختزال التناس بمنظور سابق في كلمة (انجليكا لينكه و ماركوس نوسباومر) وهي " يُقدّم التناس في شكله الرديكالي تحت كلمة مختصرة إزالة الحدود أو الذوبان ..ذوبان النص في نص تام، ذوبان الدال في المدلول، ذوبان ذوات المؤلف والقارئ .. إلخ"¹.

¹ مجموعة من المؤلفين علم لغة النص نحو أفاق جديدة تر سعيد حسن بحيري مكتبة زهراء الشرق ط 1، القاهرة 2007 ص 81

4 التناص هو نفي لأصالة النص بحيث أن كل نص مهما كانت كفاءته وجودته فهو في حقيقة الأمر ليس إلا صدى للنصوص سابقة وتلك النصوص السابقة تفقد هي الأخرى أصالتها لارتباطها هي أيضا بنصوص سابقة لها ومثلها النصوص اللاحقة تغدو مؤثرة بالكيفية نفسها فيما يأتي بعدها من نصوص وبالتالي تفقد النصوص كلها مهما كان اتجاهها ومصدرها _ بهذا الوصف _ انتماءها وهويتها وتصبح مجرد نسخ يعاد تشكيلها بفعل الزمن والحاجة الراهنة

5 و تأسيسا على ما سبق يفقد المؤلف دوره مقابل سلطة النص الذي يغدو هو الحقيقة المطلقة وليس الكاتب إلا سرايا بل هو في أحسن الأحوال مجرد ناسخ لا يختلف عن تلك الآلة التي تكتب ولا تبدع

6 حين يفقد المؤلف دوره في مقابل دور غير مفهوم للقارئ الذي يتجاوز وظيفته كقارئ إلى وظيفة المنتج للنص ومع إمكانية فهم دور القارئ في تأويل النص في دائرة القراءة المفتوحة إلا أنه لا يمكن فهم سلطة القارئ في إنتاج النص إنتاجا واقعيا مثلما لا يمكن فهم حقيقة سلطته التي تعلو سلطة المؤلف .

7 تتحدد وظيفة التناص في أنه يعيد بناء النص القائم على أساس علاقاته بالنصوص السابقة له وهي وظيفة تقتضي أولا عدم النظر إلى هذا النص بمنظور التنزيه والأصالة وبالتالي يتوجب هدم هذا النص مقابل إعادة البناء وعلى هذا الأساس يكون الفعل التناصي فعلا نقديا يهدف بالأساس فهم العلاقات بين مجموع النصوص الحاضرة في نص قائم بما في ذلك الكيفيات التي تم بها هذا اللقاء بين هذه النصوص. وتُمكن إعادة البناء من إعادة التوضع وتكاد تكون هذه الوظيفة هي المهيمنة من جملة الوظائف التي يقوم بها التناص ويتجلى هذا التصور في تلك المراجعة التي

قامت بها (جوليا كريستيفا) حين رأت أن التناص في فترة لاحقة بدأ يفقد وظيفته الحقيقية فنادت بما

يسمى بإعادة التوضع **transposition**.

إن هذه المحددات التي تم استقراءها من خلال معاناة مفهوم التناص منجزا غربيا لا يمكن _بأي حال من الأحوال_ إسقاطها على النص القرآني _بهذه الماهية_ واعتبار الخطاب الكريم مساحة نصية للهدم والتقويض وإعادة التشكيل مع نفي أصالة النص القرآني وتعريضه لأوضاع التأثر بخطابات أخرى كالكتب المقدسة السابقة له .

ورغم خطورة تصور إمكانية إخضاع النص القرآني الكريم لإجراءات التناص بالمفاهيم الغربية الصرفة أو اجتهدات النقاد والمنظرين العرب الذين تمثلوا منجز التناص _في جزئياته الدقيقة_ وفق النسخ الغربية فإنه لا يمكن نفي وجود التناص كممارسة مفارقة في محدداتها للمنجز الغربي في المدونات التراثية، مثلما أن النص القرآني الكريم يؤسس لعلاقات نصية غاية في الروعة والدقة تربط بين أجزاء الخطاب الكريم يأتي ذكرها لاحقا، ومع التأكيد على الاختلاف بين المفردات التي تحدد ماهية التناص في المنجز الغربي بتلك التي يقترحها المنجز التراثي¹ بمدوناتها الكثيرة وبما تجلى في النص القرآني، مما سنتعرض له في المبحث الثاني الموسوم بـ: التناص ممارسة تراثية عربية

¹ (مع التأكيد على أن هناك أشكال من التقاطع بين المنجزين الغربي والتراثي العربي في درس التناص تتحدد في ذلك الاستدعاء بين النصوص داخل النص المائل والإشارة إلى السرقات الأدبية والمعارضات الاستشهادات الإلماع وهي المساحة التي تسوغ لنا اعتماد مصطلح التناص دون اعتماد حملته الدالة على الهدم والتنافي والتماهي والتفكيك .

المبحث الثاني: التناس في الممارسة التراثية العربية

التناس في الممارسة في التراث العربي

مدخل:

شأن ظواهر نصية كثيرة تعبر عن نفسها واقعا لغويا في مدوناتنا التراثية، وإن لم تأخذ المصطلح نفسه، يعبر التناص أيضا عن نفسه ممارسة نصية متميزة تختلف في محدداتها ومضمونها عن المنجز الغربي، فلا تعني الهدم ولا النفي ولا هدر انتماء النص ولا قطع أوصاله بجعله قطعا من نصوص سابقة مثلما لا يعني التناص في مدوناتنا التراثية القطيعة المقيتة مع المؤلف، كل هذه التحديدات تجعل من التناص في المنظومة التراثية مظهرا من مظاهر تماسك النص ومؤشر من مؤشرات قدرة صاحبه وقرينة دالة على ثرائه وكثافته وحمولته الدلالية والتأويلية، ولذلك يحرص الباحث وهو يحدد هذه الفوارق بين مفهوم التناص في المنجز الغربي ومفهوم التناص ممارسة تراثية على أن الخلفية المعرفية التي تمد مضمون التناص في التراث العربي وتحديدًا في منجز علماء الأصول هي التي صاغت هذا المفهوم البناء المحكم والمتسق، وفي انتظار أن يمدنا اجتهاد بعض أعلامنا المحدثين بمصطلح بديل عن التناص يكون حاملا لهذه المضامين البناءة التي سبق الإشارة إليها نوظف مصطلح التناص بدلالة التعالق والتماصك النصي لا بدلالة الهدم والذوبان، والقطيعة مع المؤلف، مع التأكيد في كل مرة على حضور مضامين التناص في مصنفات القدامى كظاهرة واضحة وإن لم توسم بمصطلح التناص. ولا مشاحة في الاصطلاح طالما كان المحتوى دالا، بل ربما كان أكثر عمقا وتميزا قياس بالمضمون الغربي الحديث

إننا يمكن أن ندرك بفحص ظواهر نصية تراثية كثيرة _في الشعر أو النثر على حد سواء_ أوضاعا يكون فيها ذلك التعالق النصي واستحضار مجموعة من النصوص داخل نص واحد وهي أوضاع نصية بالتأكيد تُشكل ما أسسه الخطاب النقدي المعاصر حول مباحث التناص. ويكفي للدلالة على ذلك أن نقف على كم كبير من المصطلحات والمفاهيم التي تُعبر عن ظواهر التداخل

بين النصوص بما يقترب من مفهوم التناص بالتوصيف الغربي الحديث من ذلك السرقات الشعرية، الاستشهاد، النقائض، المعارضات، الاحتذاء، الاقتباس والتضمين وغيرها من المصطلحات التي تترجم ذلك التداخل بين النصوص ومثلما عبرت هذه المصطلحات بمضامينها التي تقترب من مضمون التناص عن ذلك التداخل بين النصوص عبرت أيضا عن وعي الشعراء والأدباء والنقاد بضرورة هذا التداخل النصي وجماليته، وهو المبرر الذي حفزهم بالضرورة إلى احتذاء هذه الأنماط من النظم والكتابة

ومن عجيب ما أشار إليه (جيرار جينيت) عبارة مشهورة ومتداولة بين النقاد - مع التأكيد على أنه واحد من أبرز المنظرين للتناص - تدل على أن الاستشهاد والسرقات الأدبية من أهم أشكال العلاقات التناصية، حيث يقول " أكثر أشكال هذه العلاقة وضوحاً وحرفية، هي الممارسة العادية للاستشهاد، وأن أقل أشكالها وضوحاً وشرعية هي السرقة، وهي اقتراض غير معلن ولكنه حرفي"¹ وتبدو هذه الإشارة شكلاً من أشكال الإنصاف بأن التناص حاضر في التراث العربي باعتبار أن السرقات الأدبية والاستشهاد عدتا من أبرز الظواهر النصية في التراث العربي ناهيك عن ظواهر آخر أكثر قدرة على الدلالة على مضمون التناص، من ذلك ما " أرشدنا بحث الوجوه والنظائر إلى مجموعة من الحقائق التي تتعلق ببلاغة القرآن الكريم وإعجازه اللغوي والبلاغي والجمالي وما فيه من سبك وحبك ومقصدية وإعلامية وغيرها من المعايير المعينة على تحقق نصية النص، فضلا عن المعيار الأساس الذي توصلنا به هو معيار التناص أو التعالق النصي وهو تعالق داخلي يتم بين الآيات القرآنية الكريمة التي استخدمت فيها دوال الوجوه والنظائر مكونا

(¹) جيرار جينيت طروس الأدب على الأدب تر محمد خير البقاعي الموقف الأدبي ع 333، كانون الثاني 1999

مظهرها من مظاهر الوحدة البنائية والعضوية في القرآن الكريم" ¹ ومع التأكيد على ذلك التعالق بين أجزاء النص القرآني الذي تحكمه قوانين دقيقة فإن ما ينتجه هذا التعالق وإن كانت تجلياته مشاكلة للتناص إلا أنه لا يمكن أن يأخذ المفهوم الغربي حين يتعلق الأمر بعملية الهدم وإعادة البناء أو ما يسمى بالفسيفاء بمنظور (جوليا كريستيفا) فكلام الله عز وجل أجل وأعظم من أن يكون عرضة للهدم وإعادة البناء أو أن يكون فسيفاء تتداخل فيها نصوص ليست من كلام الله عز وجل. نعم إن في القرآن الكريم بوصفه نصا لغويا معجزا ومحكما من الظواهر النصية ما يتشاكل ويتجاوب مع بعض ما قرره الدرس اللساني الغربي الحديث على أن ذلك لا يبيح قراءة مفتوحة غير مؤصلة ومؤسسة على ما قرره سلفنا من علماء القرآن والأصول وهم أدري منا بالحدود التي توطر مقارنة النص القرآني لاعتبار بسيط هو أنهم أوعى بما يجب وما لا يجب مع كلام الله تعالى تنزيها وتقديسا ودرءا لمسالك قد تقضي إلى الطعن في هذا النص المقدس، المنزه والمتعالي.

وفي سياق هذه التحديدات يمكن القول أن هذه الظاهرة النصية لم تكن غائبة في النص القرآني الكريم مع تلك التحديدات والمحاذير التي أشرنا إلى بعضها سابقا ومن الضروري أن نشير إلى بعضها الآخر لاحقا، ومثلما كان هذا الحضور في النص القرآني لم تكن الدراسة غائبة مع الذين اشتغلوا على المتن القرآني دراسة وتفسيرا وقد تبين بعضها سابقا، وسيعمق البحث مفردات أخرى لاحقا .

وتبدو متابعة كل هذه المصطلحات (السراقات الشعرية، الاستشهاد، النقائض، المعارضات، الاحتذاء، الاقتباس، والتضمين، الاقتصاص...) بالاستقصاء والدراسة والتحليل - في مساق هذا

(¹) ياسر رضوان التناص القرآني دراسة في أشكال العلاقة بين الآيات القرآنية دار افريقيا الشرق المغرب

البحث - مسلوكا بالغ الامتداد يتطلب مشروعا قائما بذاته وهو ما لا يتأتى لنا في هذا المبحث ولذلك سنقتصر على الإشارات التي ترتبط بالنص القرآني فحسب تلك الدالة على أشكال هذا التعالق النصي كما فهمه علماء الأصول استنباطا من النص القرآني الكريم .

إشارات في نصوص شعرية

مع أولى أشكال النظم في الشعر الجاهلي كان الشاعر العربي القديم على وعي بحضور السابقين فيه يسكنون مخياله ويلهمونه ويحفزون قدرته على النظم، إننا نجد إشارات واضحة في نصوصهم تدل على ذلك الإدراك البين بأن القديم حاضر في الراهن:

فهذا امرؤ القيس وقد تأذن بالبكاء يستحضر بكاء ابن حذام فيقول:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام¹

وهذا عنتره يقف أمام الديار في لحظة يستذكر فيها _بمرارة_ من عبروا قبله، فيقول:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم²

أما كعب بن زهير فيعترف بنبرة صادقة بأنه ليس إلا رجع الصدى، وقولا مكررا، فيقول :

ما أرانا نقول إلا رجيعاً ومعاداً من قولنا مكروراً³

ورغم بساطة هذا التصور للشاعر الجاهلي وعفويته إلا أنه يعكس إدراكا عميقا لتأثير السابقين فيه وهو ما يعني أن مبدأ التعالق بين أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم وخطاباتهم هو حقيقة يستحضرونها لحظة إبداعهم .

2- ديوان امرئ القيس، تح: مصطفى عبد الشافي منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 5 1425 هـ 2004 م :ص 156

3- ديوان عنتره، دراسة وتحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، القاهرة، 1970 ص 182 .

4- ديوان كعب بن زهير، تح علي فاعور ، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1417 هـ / 1997 م ص 26

ومع أن هذه الإشارات لا يمكن التأسيس عليها في التأصيل لظاهرة التناص لبساطتها فثمة إشارات أخرى أكثر وضوحاً وعمقا قد نؤسس عليها بما يقترب من فهم العلاقات بين النصوص الشعرية في مدوناتنا التراثية .

فحين يقول الجاحظ مشيدا بالفرزدق : " إن الفرزدق راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم " (1) ويضيف يونس بن حبيب " لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس " (2) فمعنى ذلك أن الفرزدق _بلغة عصرنا_ موسوعة من الأشعار والأخبار والأقوال ودراية بأدق تفاصيل السابقين إن هذا المعنى يعبر عنه الفرزدق شعرا فيقول عن نفسه:

وهب القصائد لي النوابع إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرو

والفحل علقمة الذي كانت له حل الملوكة، كلامه لا ينحل
وأخو بني قيس وهن قتلنه ومهلل الشعراء ذاك الأول
والأعشيان كلاهما ومركش وأخو قضاة قوله يتمثل
وأخو بني أسد عبيد إذ مضى وأبو دوايد قوله يتحل
وابنا أبي سلمى زهير وابنه وابن الفريعة حين جد المقول
والجعفري وكان بشر قبله لي من قصائده الكتاب المجل
ولقد ورثت لآل أوس منطقاً كاسم خالط جانبيه الحنظل " 3

4- البيان والتبيين ج1: ص 322

5- ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلي دار المعارف بمصر ط 7 1988 ص 229

54- المرجع السابق ص 129

وتبدو القصيدة على امتدادها جرّداً لمآثر الفرزدق لكن المثير في هذه المآثر أنها مأخوذة عن سابقه " فإن ما فيها من تعداد لشعراء الجاهلية، ولمح من أخبارهم، ونقدات سريعة لشعرهم، دالّ أبغ الدلالة على معرفته بهؤلاء الشعراء وبشعرهم معرفة واضحة المعالم." ⁽¹⁾ وإن مآثر يأخذها الفرزدق عن سابقه هي شهادة للسابقين بالتفوق والريادة قبل أن تكون شهادة له، وذلك تأكيد آخر في سياق التدليل على حضور السابقين في اللاحقين نوره لنرصد وعي شعراء صدر الإسلام بارتباط نبوغهم بنبوغ السابقين وتعلق نصوصهم بنصوص من سبقوهم وحسبها هذه الإشارات السريعة أن تفتح مسلكاً لتقصي مظاهر التعلق بين النصوص في الشعر العربي وهي كثيرة جداً أشار البحث إلى مفردات بعضها، مما تعج به مدونات النقاد القدامى دون أن يخوض في التفاصيل، لينقل الجهد إلى رصد الظاهرة في الدرس الذي اشتغل على القرآن .

قواعد أصولية في تحديد التعلق النصي:

إن مساقات تماسك النص القرآني التي أشار (الشاطبي) إليها سابقاً بقوله " المدني في السورة ينبغي أن يكون منزلاً على المكي وكذلك المكي بعضه مع بعض و المدني بعضه على بعض، حسب ترتيبه في التنزيل و إلا لم يصح و الدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على مقدمه - دل على ذلك الاستقراء - ذلك إنما يكون ببيان مجمل أو تخصيص عموم أو تقييد مطلق أو تفصيل ما لم يفصل أو تكميل ما لم يظهر تكميله " ² وهي تحدد تماسك النص حتى كأنه كلمة واحدة من جهة، من جهة ثانية تحدد ظاهرة التناص بوضوح، ومثلما عبر عنها (الشاطبي) فإن كذا عالم كالمسيوطي، مثلاً يشير _ بدقة متناهية، إلى الظاهرة، من ذلك قوله " قال العلماء: من أراد تفسير

55- المرجع نفسه

² - الشاطبي، الموافقات ج 4 ص 256

الكتاب العزيز، طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر¹ واستهلال السيوطي كلامه بقال العلماء إشارة مهمة بأن هذه القاعدة هي أصل بالاتفاق، وهو ما تجده في حال تصفحك مصنفات الكثير من الأعلام²، وتمتد معاينة السيوطي إلى مستوى آخر، وهو تلك العلاقة بين الخطابين القرآني والنبوي إذ يقول متحدثا بلسان كل من: (ابن تيمية)، (ابن القيم) و(الشافعي) " فإن أعياء ذلك طلبه من السنة ؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، وقد قال الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَا اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (سورة النساء: 105) في آيات أخر، وقال رحمه الله: " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، يعنى السنة " ³ وقد تمتد العلاقة بين النص القرآني الكريم، وبين خطابات الصحابة رضي الله عنهم لقراءة عهدهم بالنزول ولمعرفتهم بدلالة النص الكريم، أكثر من غيرهم بفعل المعاشية لحظة النزول، يضيف السيوطي " فإن لم يجده في السنة رجع إلي أقوال الصحابة رضي الله عنهم فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، وقد قال (الحاكم) في 'المستدرک' : "إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع"⁴ فإن لم يُوجد ذلك يُرجع إلى النَّظَرِ والاستنباط بالشَّرْطِ السَّابِقِ⁵

دائرة قراءة النص القرآني ومراتب المقروئية :

-
- ¹ - الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الإتيان في علوم القرآن ج 2 ص 1197
 - ² - يرجع إلى مصنفات ابن تيمية ابن القيم، الرازي، الأمدى
 - ³ - الإتيان في علوم القرآن ج 2 ص 1197
 - ⁽⁴⁾ ينظر الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ج 2 ص 976 و: البرهان في علوم القرآن للزركشي ج 2 / 175، 176.
 - ⁵ - المرجع نفسه

وتحتاج هذه الإشارات التي أثارها (الشاطبي) و(السيوطي) إلى قراءة عميقة ملمة تستنبط الأدوات المؤسسة للممارسة النصية التي وظفها علماؤنا والشاهد هاهنا وإن كان للشاطبي والسيوطي علي سبيل التدليل لا الحصر فإن ما يحيلنا إليه هذان العلمان نجده عند غيرهما من الأعلام، الذين تواتر عندهم هذا الفهم، وعودا على شاهدي (الشاطبي) و(السيوطي) تتجلى لنا جملة من المحددات المنهجية في قراءة النص القرآني عندهما على النحو التالي :

1: علاقة القرآن بالقرآن

وهي العلاقة التي تعد المستوى المرجعي انطلاقاً من استراتيجية القرآن يفسر بعضه بعضا وفق علاقات كثيرة ومتنوعة أشار إليها جل علماء القرآن والأصول من ذلك علاقة المتقدم بالمتأخر والمجمل بالمفصل والجزء بالكل والمكي بالمدني وغير ذلك من العلاقات وهي كثيرة جدا أشرنا إلى بعضها، إنها استراتيجية الفعل القرآني تحدد امتداده وترابط أجزائه بما يفضي إلى اتساقه وانسجامه من جهة، وبما يؤصل لضرورة الرجوع إلى القرآن في فهم دلالاته بالدرجة الأولى، وإذا تعذر ذلك كان المستوى الثاني الذي هو مرجعية الخطاب النبوي كمفسر للنص القرآني، في الحالين معا، علاقة القرآن بالقرآن وعلاقة القرآن بالحديث النبوي تتأكد ظاهر التعالق النصي من خلال فعل الاستحضار وإنزال الخطاب على الخطاب. وهو ما يعبر عنه بالتناص .

2 علاقة النص القرآني بالنص النبوي:

فالنص النبوي هو خطاب على الخطاب القرآني ليس موازيا له ولا منقطعا عنه بل هو مفسر له، وهنا نتحدد أهمية النص النبوي ووظيفته المعرفية في أنه الشارح الدقيق للنص القرآني من جهة

ومن جهة ثانية تتحدد وظيفته المرجعية بأنه القول الفصل والمرجع الأساس في اختلاف القراءة بين كل المتلقين للنص القرآني حال التباين فالنبي ﷺ بهذا الوصف هو متلق من الدرجة الأولى وهو قارئٌ نموذجيٌّ متعال أعلم من كل القراءات البشرية الأخرى مهما كانت كفاءتها وأهمية هذه الفكرة تتحدد في تحقيق أعلى درجات الوضوح والبيان لمقاصد النص القرآني الكريم بما يحقق انسجامه الدلالي مثلما تحدد هذه الفكرة الإطار المنظم لقراءة القرآن قراءة ناجحة وذلك الذي قصده النبي ﷺ حين قال: «ألا إني أوتيْتُ القرآنَ ومثله معه». يَعْني: السُّنة.، على أن هذه القراءة الأصل لا تصدر القراءات الأخرى بقدر ما توجهها في حالات الاختلاف كما سبق الذكر ومقتضى عدم المصادرة يحيلنا إلى المستوى الثالث من القراءة وهي قراءة الصحابة رضي الله عنهم

يقول مؤلف إمعان النظر في نظام الآي والسور واصفا هذه العلاقة بين الخطابين القرآني والنبوي: "فإذا تأمل الباحث نظام الآيات ورباط معانيها، ثم وصل إلى ما يجد له تأييداً في كلام النبوة وآثارها - ازداد بذلك ثقة وارتياحاً إلى ما فتح الله عليه من خزائن حكمته، كما ازداد انشراحاً واقتناعاً بصحة ذلك الحديث الذي وجد له أصلاً في تنزيله"¹. وكثيرة هي الأحاديث التي جاءت لتفصيل مجمل أو تخصيص عام في القرآن الكريم أو لشرح ما توقف القرآن دون تفصيله، خاصة في أبواب الأحكام والتشريع وسيأتي بيان ذلك لاحقاً من خلال أمثلة، بما يعمق ظاهرة التعالق النصي بين النصين القرآني والنبوي.

3- علاقة النص القرآني بأقوال الصحابة رضي الله عنهم:

حيث ينفّث النص الكريم على قراءات ذلك الجيل الذي يعد قارئاً تاريخياً مقدماً ومؤهلاً بميزة أنه رافق ظروف التنزيل وشاهد الوقائع وتابع الأحداث التي اقترنت بالنزول، وبصرف النظر

¹ إمعان النظر في نظام الآي والسور؛ للدكتور محمد عناية الله سبجاني، دار عمار ص 258.

عن الكفاءة اللغوية العالية التي يمتلكها ذلك الجيل الذي نزل القرآن بلسانهم وهو أمر مؤكد لا شك فيه وله أهميته في القراءة الدقيقة للنص القرآني، فإن معاشتهم للحياة التي كان يوجهها القرآن الكريم ومحفزات الأوامر والنواهي التي كانوا يتلقونها من وحي السماء، كل هذه المسوغات جعلت من الصحابي ﷺ مفسراً للقرآن ومرجعاً مهما تحتكم إليه الأجيال اللاحقة، وذروة هذه الأهمية تتحدد في قول ابن مسعود ﷺ مثلاً: فيما رواه عنه البخاري: (والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.¹ " إن هذه الإحاطة بالنص الكريم التي يمتلكها الصحابي ﷺ تجعل منه قارئاً مثاليا لا يمتلك القدرة على التلقي والفهم فحسب بل إنه يمتلك أدوات التفسير والاستنباط والجزم في مواطن الاختلاف مثلما يمتلك أحقية وجادة تأويل النص الكريم بما يخرج به عن ظاهر الخطاب .

4 علاقة النص القرآني بالمستنبط:

أما العلاقة الرابعة التي يقيمها النص القرآني فهي مع المتلقي المستنبط، علاقة تؤسس لتفاعل منتج ينبني على مشروع قرائي لا يصادر فهما له محدداته ومرجعياته بل يدفع إلى ضرورة إعمال النظر والاستنباط كي يكتشف عوالم الفعل القرآني التي لا يصل إليها إلا فكرٌ حصيفٌ متقدٌ لعله ذاك الذي أشار إليه الصحابي الجليل حبر الأمة عبد الله

¹ - صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبي ص حديث رقم ٤٧١٦ ج/ ٤ ص ١٩١٢.

بن مسعود رضي الله عنه حين قال قولته المشهورة: (من أرد العلم فليثور القرآن؛ فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ

وَالْآخِرِينَ)¹ ويكأن القرآن بمقتضى مقولة حبر الأمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوة كامنة

دافعة تحتاج فقط إلى فكر نير وفعل مثير يُثَوِّرُها فتتمتد الينابيع جارية بماء عذب زلال .

إن هذه المستويات الدقيقة التي أشار إليها (الشاطبي) و(السيوطي) تكتنف النص

الكريم وتحدد قراءته بدءا من مستوى النص الكريم في علاقته بنفسه مروراً بعلاقة النص

بالحديث النبوي الشريف، فعلاقة النص بأقوال الصحابة وصولاً بالمتلقي الذي يمتلك القدرة

على الاستنباط تحدد التأسيس المنهجي الذي يقترحه المنجز التراثي الأصولي في

الممارسة النصية التي تقارب النص القرآني الكريم مثلما يشير إلى جملة من المعايير

النصية التي لا تخرج في كل الأحوال عن الاشتغال على النص متجاوزة الجملة من ذلك

خاصية التناص، وتعالق أجزاء النص، وتقدير البعد التداولي في تحديد مستويات التلقي،

فضلا عن الإشارة المهمة للقارئ النصية التي ترافق نزول النص الكريم، وكذا المعالجة

المنهجية للبنية الكلية للنص، ومع التذكير بأن إشارة (السيوطي) ليست إلا صدى

لمقولات غيره من الأعلام وهم كثر.

التعالق النصي ظاهرة قرآنية

ولا يحتاج النظر في عمق التراث إلى تأكيد أن ما قرره العلماء في هذا الشاهد _ والشاطبي

والسيوطي عينة فحسب _ من حضور ذلك الاستدعاء لنصوص القرآنية داخل نصوص قرآنية

¹ - سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم ، المعجم الكبير تحق حمدي عبد المجيد السلفي مكتبة ابن تيمية

القاهرة ج 9 ص 146

أخرجه الطبراني في " الكبير " الرقم 8666

أخرى، هو نفسه ما قرره الخطاب النقدي المعاصر في التأصيل لظاهرة التناص، التي ليست إلا استحضار مجموعة من النصوص داخل نص أكبر بمقتضى علاقة التابع والتداخل **Intertexte** _ كما قد تبين سابقا في مبحث التناص منجز غربي _ وتبدو عبارة الشاطبي السابقة (فكثير منه لا يفهم معناه حق الفهم، إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى) تحديدا دقيقا للتناص من حيث أنه يربط بين نصوص قد يتباين موقعها في النص القرآني فكثيرة هي النصوص التي لا يفهم معناها إلا بالرجوع إلى موضع آخر يفسرها، ويكون هذا الاستدعاء لذلك النص شكلا من أشكال التناص .من خلال آليات كثيرة سبق الإشارة إليها من ذلك علاقات: ((المتقدم/ بالمتأخر) (تبيين/ المجمل) (تخصيص/ العموم) (تقييد/ المطلق) (تفصيل/ ما لم يفصل) (تكميل/ ما لم يكمل))

مثلا تبدو عبارة (السيوطي) " .. فإن لم يجده في السنة رجع إلي أقوال الصحابةؓ: فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله... " فكرة بالغة الأهمية تحتاج إلى وقفة نقاش، يبدأ بأن ما يقرره الصحابةؓ في تأويل النص الكريم في ترتيب ثالث بعد القرآن، ثم كلام النبي ﷺ إنما هو فهم انطبع في ملكاتهم ﷺ بفعل ملازمتهم للنبي ﷺ وبما تعلموه منه، لفظا ومعنا، وقد قال (ابن تيمية) " يجب أن يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَّ لِأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿لَسِيْنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل 44 يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا ¹ " والدليل على ذلك ما قرره الصحابةؓ أنفسهم "وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرَأُونَ الْقُرْآنَ: كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّى

(¹)ابن تيمية مقدمة في أصول التفسير ص 31

يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا وَلِهَذَا كَانُوا يَنْقُضُونَ مُدَّةَ فِي حِفْظِ السُّورَةِ¹

سُقْنَا هذه الفكرة مع هذا الشاهد لتأكيد أن مساحة الاجتهاد في تأويل النص الكريم لم تكن فعلا مشاعا دون تأسيس، فهاهم الصحابة رضي الله عنهم على مكانتهم ومعرفتهم بالعربية وقرابتهم من النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعتهم لملايسات النزول ،وهي عوامل كلها تبيح لهم قراءة النص الكريم في هذا الإطار المفاهيمي دون حرج وتردد، لكنهم رغم تلك المسوغات كلها لم يعطوا لأنفسهم هذا الحق على إطلاقه، إلا في الحدود التي تمنعهم من الزلل، بمقتضى ما كانوا يتلقونه عن أعرف الخلق بكتاب الله ﷺ وهو النبي ﷺ ولذلك نفهم سر قلة الخلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في تفسير القرآن، قياسا بالتابعين الذين كانوا أكثر خلاف فيما بينهم، وأقل خلافا قياسا بالذين جاءوا من بعدهم .

وبتجاوز ما تقرره تلك العبارة من وعي ناضج بظاهرة التناص ك ممارسة نصية في النص القرآني وما تشير إليه من مستويات القراءة التي تمر عبر مسارات ثلاثة تبدأ من القرآن في علاقته بالقرآن ،فالقرآن في علاقته بالخطاب النبوي ،ثم القرآن في علاقته بخطاب الصحابة رضي الله عنهم وإن لم توسم بالمصطلح المعاصر فإن هذه العبارة تكرر أيضا بنية الانسجام النصي بمنظور لسانيات النص ،من حيث أنها تشترط لفهم النص القرينة المقامية متمثلة في ملايسات وظروف إنتاج النص ،والسياقات المرافقة لتنزل النص القرآني الكريم وبعبارة أدق إن " من خصائص الأسلوب القرآني ما يشير إليه القول المأثور (القرآن يفسر بعضه بعضًا) وهو ما يتفق مع الدراسة الحديثة للنصوص من حيث مبدأ التناص فإذا كان التفسير شرحا للقرآن فبينه وبينه التناص وإذا أعانت آية علي شرح (أي تفسير) آية أخرى فبين الآيتين تناص وإذا كان القرآن يفسر بعضه بعضًا فبين بعضه وبعض تناص

(¹) ابن تيمية مجموع فتاوى مجمع الملك فهد 1416 هـ 1995 م

"¹⁾ إن الذي عناه (تمام حسان) بوصفه عالما لغويا أحاط معرفة دقيقة بالتراث العربي القديم، وتمثل المنجز الغربي الحديث تمثلا جيدا بأن مبدأ التناص هو واقع لغوي في النص القرآني الكريم، تعكسه إستراتيجية التفسير حين يعتمد مسارا منتظما تكون فيه النصوص القرآنية مرتبط ب بعضها ببعض عبر بنية متسقة تتخذ التناص آلية أخرى، وتلك قيمة أخرى تبرهن على قصب السبق لتراثنا الثري في كثير من مفردات الممارسة النصية، وتحديدًا في حقل لسانيات النص. مع التأكيد في أكثر من موضع على أن ظاهرة التناص هي معيار من أهم معايير النصية بمنظور لسانيات النص

محددات ممارسة التناص في منجز علماء الأصول

في أكثر من موضع _ كما قد تقدم _ يؤكد المشتغلون بالقرآن الكريم عامة وعلماء أصول الفقه خاصة عبر مساقات مختلفة على ثابت معرفي راسخ هو أن النص القرآني الكريم كلمة واحدة مرتبط أوله بآخره، ومقدمه بمؤخره، ومجمله بمبينه، وعامه بخاصة، ومحكمه بمفصله، ومكيه بمدنيه، وناسخه بمنسوخه، وأن هذه العلاقات وغيرها تُختزل في كلمة طالما ردها أعلامنا القدامى (القرآن يفسر بعضه بعضا) وليس ذلك إلا في القرآن، وارتباط القرآن ببعضه ببعض يستدعي بالضرورة انتقالا بين نصوصه يستحضر بعضها بعضا، ويحيل بعضها على بعض وإن تباعدت المسافات النصية بين تلك النصوص، فلا يمنع أن نجد سؤالا في سورة يكون جوابه في سورة أخرى قد تتأى عن أختها مسافة كبيرة مثلما أنه قد يرد حكم في موضع من الخطاب الكريم يأتي تفصيله في موضع آخر من الخطاب وقد يُشكّل معنى في موضع فيدل عليه في موضع آخر، وهي كما يبدو أنماط من التعالق النصي وعلاقات تترجم تماسك أجزاء الخطاب القرآني

(¹⁾ تمام حسان البيان في روائع القرآن دراسة لغوية و أسلوبية للنص القرآني دار عالم الكتب القاهرة ط2 يناير 1993، ص 457 .

...وهذه ليست كل العلاقات التي تحكم أجزاء النص الكريم بل ثمة علاقات كثيرة تمدنا بها المدونات التراثية التي اشتغلت على القرآن الكريم، وما يهمنا _ها هنا_ هو التأكيد مرة ثانية أن مقصد البحث هو التدليل على أن هذه العلاقات تكرر ظاهرة نصية مهمة هي الترابط النصي وأشكال التعالق بين نصوص القرآن مما يسوغ القول بأن هذه العلاقات هي مظهر للممارسة التناسلية مع التأكيد _في كل مرة_ على مبدأ الاختلاف بين مفهوم التناسل في المنجز الغربي وبين التناسل كممارسة تراثية أصولية تحددها إجراءات محددة.

الدلالة ومبدأ التعالق :

يعدد (ابن القيم الجوزية) في إدراك دلالة النص القرآني بالنظر إلى المتلقي مراتب متدرجة هي على هذا النحو: "منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته وتنبهه واعتباره"⁽¹⁾ وكلها مدلولات مقبولة طالما تأسست على قرائن دالة مثلما أنها تكرر إمكانات التأويل خارج حدود الدلالة اللفظية الظاهرة، بيد أن ما هو ممكن أكثر هو إمكانية تجاوز هذه الحدود بربط هذا النص بغيره من النصوص من خلال عملية استحضار خارج هذا السياق لتتأمل قول ابن القيم: "وأخص من هذا وألطف ضمه إلي نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم ؛ فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ الأحقاف: 15 مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾

(1) شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي (ابن قيم الجوزية) أعلام الموقعين عن رب العالمين ج 1 تحقق محمد عبد السلام إبراهيم ، دار الكتب العلمية ط 1 1411هـ/1991م / ص 267

البقرة: 233 أن المرأة قد تلد لسته أشهر... ⁽¹⁾ وحُق لابن القيم أن ينتابه العجب فذاك مسلك

عجيب في تفسير النصوص ليس إلا في القرآن. والعجب العجاب هو أن هذا الإدراك لا يتأت

لكل ناظر بل لا ينتبه له إلا النادر من أهل العلم كما قرر ابن القيم !!!

وفي السياق نفسه يورد (الزركشي) إضافة رائعة في باب سماه (اللفظ محتملا لمعنيين) مع

التأكيد على الاستراتيجية نفسها من ربط نص ماثل في سورة البقرة بنص غائب في سورة الجاثية

على سبيل الاستحضار: يقول: " وقد يكون اللفظ محتملا لمعنيين، وفي موضع آخر ما يعينه

لأحدهما ؛ كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ خَمَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ ٧ ﴾

البقرة: 7. فيحتمل أن يكون السمع معطوفاً على (ختم) ويحتمل الوقف على (قلوبهم) لأن الختم

إنما يكون على القلب ؛ وهذا أولى، لقوله في الجاثية: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ

عَلَى سَمْعِهِ وَفَلَّيْهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً ٢٣ ﴾ الجاثية: **23**. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا

يُؤْمِنُونَ ٣٠ ﴾ **الأنبياء 30**. فقد قيل: إن حياة كل شيء إنما هو بالماء، قال ابن درستويه: وهذا

غير جائز في العربية ؛ لأنه لو كان المعنى كذلك لم يكن (حي) مجروراً، ولكان منصوباً، وإنما (

حي) صفة شيء، ومعنى الآية: خلق الخلق من الماء، ويدل له قوله في موضع آخر ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ

كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ ٤٥ ﴾ **النور: 45**. " ⁽²⁾.

ولا تختلف إشارة (الزركشي) عن إشارة (ابن القيم) بما تثيران معا لدى المتلقي من إعجاب

في القدرة التي يستبطنها الفعل القرآني. مع التأكيد على أن المسلك الذي اعتمده هؤلاء العلماء في

⁽¹⁾ المرجع السابق

⁽²⁾ البرهان في علوم القرآن للزركشي ج 2 / ص 197، 198.

تأويل دلالة النصين السابقين على مستوى لفظي (الغشاوة) و (حي) هو الربط بين موضعين متباعدين لنصين قرآنيين باستدعاء نص حيال نص آخر، والعينات في هذا الاتجاه كثيرة جدا وغاية في العجب _على حد تعبير ابن القيم الجوزية_ يقف المعايين عليها في كتب أصول الفقه وعلوم القرآن والتفسير،

إن ظاهرة التعالق واستحضار نص غائب لتفسير نص ماثل التي رصدناها في الشواهد السابقة هي أهم مقولات التناص وتتأكد هذه الظاهرة في النص القرآني من خلال تلك القواعد التي استتبطنها علماء الأصول وهو ما سيأتي بيانه.

قواعد علماء الأصول

في قراءة النص القرآني وتحديد التعالقات النصية:

في سياق الرد على بعض القائلين بخلق القرآن يورد (الشاطبي) نصا دقيقا يضع تصورا عام لتناول المقاصد الشرعية ينبنى على مبدأ الصورة الواحدة التي تكتمل ملامحها بترابط جزئياتها وضم أطرافها بعضها ببعض يقول في كتاب الاعتصام: " ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها ببعض ؛ فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بينها...إلى ما سوى ذلك من مناحيها، فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام ؛ فذلك الذي نظمت حين استتبطنت " (1)

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي الاعتصام تح سليم الهلالي. دار ابن عفان: 1412هـ / 1992م ج 1 ص 311هـ

ومعلوم أن حديث علماء الأصول عن الشريعة مناط بحديثهم عن القرآن وجهان لعمله واحدة، فالمضمون نفسه، هنا يتواتر في تحديد أحكام الشريعة، وهناك يتحدث عن النص القرآني، حيث يقول (الشاطبي) في كتاب الموافقات: المدني في السورة ينبغي أن يكون منزلاً على المكي وكذلك المكي بعضه مع بعض و المدني بعضه على بعض، حسب ترتيبه في التنزيل و إلا لم يصح و الدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه - دل على ذلك الاستقراء - ذلك إنما يكون ببيان مجمل أو تخصيص عموم أو تقييد مطلق أو تفصيل ما لم يفصل أو تكميل ما لم يظهر تكميله⁽¹⁾

وتطابق الشاهدان ينم عن تصور واحد وواضح في تلقي النص القرآني وكذا أحكام الشريعة برؤية موحدة لا تُقرأ من خلال الجزئيات إلا بقدر ما تحيل إلى الكل، على أن هذا الكل محكوم بتلك العلاقات التي يشير إليها الشاهدان وهي: / الكل مع الجزء / العام مع الخاص / المطلق مع المقيد / المجمل مع المفسر / المدني مع المكي / المتأخر مع المتقدم .

إن استقراء هذه المقولات في النص الكريم يحيل إلى إدراك مبدأ التعالق النصي بين النصوص القرآنية فيما بينها في المستوى الأولى ثم بينها وبين الخطاب النبوي الشريف في المستوى الثاني وهي بهذا الوصف تكرر ما يمكن أن نسميه الممارسة التناسية بمنظورنا _ أقصد تراثاً_ لا بمنظور غربي

إن ظاهرة التعالق النصي واستحضار نص غائب لتفسير نص ماثل التي رصدناها في شاهدي ابن القيم والزرکشي السابقين هي أهم مقولات التناس وتؤكد هذه الظاهرة في النص القرآني من خلال تلك القواعد التي استنبطها علماء الأصول، وإشارة (الشاطبي) عينة دالة، تلك المعبر عنها

(1) الشاطبي الموافقات

بـ: / الكل مع الجزء / العام مع الخاص / المطلق مع المقيد / المجمل مع المفسر / المدني مع المكي / المتأخر مع المتقدم .

وسنحاول في هذه الأسطر أن نقف على أمثلة بسيطة ومحددة تبين الكيفيات التي يتم بها هذا التعالق واستحضار النصوص فيما بينها _فحسب_ وهو ما ينسجم مع بحثنا، دون أن نسهب في التحديدات الجزئية لمفاهيم هذه القواعد وعلاقاتها بالأحكام الشرعية وتباين مذاهب علماء الأصول ونقاشاتهم وهي مباحث شيقة ممتعة لكنها متشعبة وتنتزل في سياق درس الأحكام وأصول الفقه التي خاض فيها هؤلاء الأعلام بدقة وعمق جدارة.

إن هذه القواعد التي يستعرضها البحث _إيجازا وتركيزا_ مقصدها بالأساس كشف تلك العلاقات التناسية بين نصوص القرآن الكريم من جهة وبين النص القرآني والنص النبوي من جهة ثانية وهي محاولة للبرهنة على وعي أعلامنا بتلك التعالقات النصية ودورها في اتساق النص وانتظام مكوناته الشكلية والدلالية حتى لكأن السورة على امتدادها وفي ارتباطها مع غيرها من السور تعد كلمة واحدة بتعبير جل علماء الأصول.

قواعد أصولية في تحديد علاقات التناس:

أولاً: العام والخاص

يعرف (ابن فارس) العام بقوله: " العام الذي يأتي على الجملة لا يغادر منها شيئاً " ¹ أما في الاصطلاح فهو " لفظ ينتظم جمعا من الأسماء لفظاً ومعنى "، هكذا عند البزدوي ² والسرخسي ³ أو " هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له، وبحسب وضع واحد كقولنا الرجال فإنه مستغرق لجميع ما يصلح له " ⁴

وعند (الأمدي) هو: اللفظ الدال على مسميين فصاعداً مطلقاً أبداً ⁵

الخاص في اللغة: المنفرد، يقال فلان خاص بفلان، أي منفرد به، واختص فلان بكذا أي انفرد به وخصه واختصه: فرد به دون غيره ⁽⁶⁾.

أما في الاصطلاح فهو: هو " اللفظ الدال على مسمى واحد ... وقيل ما دل على كثرة مخصوصة، وقيل قصر العام على بعض أفرادها... " ⁽⁷⁾

أما (السرخسي) فقد عرفه بأنه " كل لفظ موضوع لمعنى معلوم على الانفراد، وكل اسم لمسمى معلوم على الانفراد ومعنى الخصوص في الحاصل الانفراد وقطع الاشتراك " ⁽⁸⁾

(¹) صاحبى في فقه اللغة لابن فارس ص 178، 179

(²) البزدوي كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام ج 1 دار سعادت طبعة تركية قديمة جدا بدون تاريخ / ص 33 م 1 / ص 33

(³) أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي أصول السرخس ج 1 تحق أبو الوفاء الأفغاني نشر لجنة إحياء المعارف الإنمائية، حيدر آباد الهند طبعة قديمة بدون تاريخ ص / 125

(⁴) فخر الدين محمد بن عمر الرازي المحصول في علم أصول الفقه ج 2 ، تحق طه جابر العلواني مؤسسة الرسالة / ص 309

(⁵) الأمدي الإحكام في أصول الأحكام ج 2 ص 241

(6)

(⁷)، محمد بن علي بن محمد الشوكاني إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ج 1 تحق شعبان محمد إسماعيل دار السلام للطباعة والنشر ط 1414 هـ 1998 م / ص 406: 407

(⁸) اصول السرخسي: ج 1 / ص 124-125.

فالخاص في مفهوم (السرخسي): " هو المنفرد عما هو أعم منه، فإذا أريد به خصوص الجنس قيل إنسان، وإذا أريد به خصوص النوع قيل رجل وإذا أريد به خصوص العين قيل زيد" (1).

وعلاقة العام بالخاص هو أن الخاص يصرف العام عن عمومته بمقتضى قرائن تفهم من سياق الكلام أو بمقتضى علاقات تربط بين أجزاء الكلام تحقق هذا التخصيص، وهذه العلاقات تتنوع فيما بين النصوص القرآنية وقد تمتد في علاقة النص القرآني مع الحديث النبوي

مثال أول: قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ (المائدة 9) عام في كل ميتة خصصه نص آخر في قوله تعالى: ﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ ﴾ المائدة 96 بأن أخرج ما في البحر من الميتة المحرمة .فالذي يبدو هنا أن نص الآية 09 من سورة المائدة استدعى نص الآية 96 من السورة نفسها في علاقة تناص

وثمة مثال آخر: في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة:228)، ترتبط بقوله سبحانه: في سورة الطلاق ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق:4) من حيث أن الثانية تخصيص للأولى، فالعلاقة بينهما علاقة تناص إذ استدعى النص الأولى في أية سورة البقرة النص الثاني في أية سورة الطلاق وقد تمتد هذه العلاقة إلى موضع آخر ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ (الأحزاب: 49). فعلاقة هذه الآية بآية البقرة أنها تخصيص غير المدخول بهن من النساء بعدم العدة، وتلك أيضا علاقة تناص بين النصين، وفي هذا المستوى تسمى هذه العلاقة بتخصيص القرآن بالقرآن والأمثلة كثيرة جدا .

(1) المرجع نفسه: 1 ج/ ص 125.

أما المستوى الثاني فهو علاقة النص القرآني بالنص النبوي حيث يستدعي الأول الثاني في علاقة تخصيص والأمثلة كثيرة نورد بعضها منها

قوله تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ) **المائدة:3**

يقول النبي ﷺ

" أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال"¹

فالنص النبوي الشريف هو تتاص مع النص السابق من سورة المائدة من حيث أن الحديث النبوي جاء لصرف عموم الآية الدالة على تحريم الميتة والدم وتخصيص السمك والجراد والطحال والكبد بعدم التحريم.

وفي مثال ثان قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ ﴾ (المائدة: 38) عام في كل سارق وسارقة، وقد خصصه قول النبي ﷺ: " تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً " ⁽²⁾ فعلاقة التتاص بين النصين النبوي والقرآني واضحة، وفي مثال ثالث يستحضر النص القرآني في الآية 32 من سورة الأعراف في قول الله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) نصا نبويا في قوله ﷺ "عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولفظه: "إن النبي ﷺ أخذ حريرا فجعله في يمينه وأخذ ذهبا فجعله في شماله ثم قال: "إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإنائهم " ⁽³⁾ فهناك تتاص بين النص النبوي والنص القرآني .

⁽¹⁾ رواه أحمد وابن ماجه. رواه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال (2/1102)، برقم: (3314)، وأحمد (2/97)، برقم: (5723)

⁽²⁾ أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب قوله تعالى: " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما " وفي كم يقطع ؟ رقم الحديث (6789).

⁽³⁾ تقي الدين ابن تيمية شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية تحق خالد بن أحمد بن محمد المشيخ دار العاصمة الرياض ط 1418 هـ / 1998 م ص 288 (والحديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه)

ومثال رابع في قول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ﴾ (النساء:

11)، مع قول النبي ﷺ (القاتل لا يرث)¹ فاستثنى النص النبوي القاتل من الميراث ولو كان

ولدا، فهناك علاقة تناص بين النصين النبوي والقرآني ويمتد هذا التناص مع نص نبوي آخر في

قول النبي ﷺ (لَا نُورُثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ)² . فاستثنى النص

النبوي، ذرية الأنبياء من عموم النص القرآني والعلاقة أيضا علاقة تناص .

في مستوى ثالث تتمظهر بين النص النبوي و النص القرآني علاقة تناص بالعلاقة العكسية

حين يستحضر نص نبوي في قوله ﷺ (مَا قُطِعَ مِنَ الْبَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ مَيْتَةٌ)⁽³⁾، نصا

قرآنيا في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَشُعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (النحل: 80).

فيكون النص القرآني صارفا لعموم ما جاء في النص النبوي فالعلاقة تناص بين النصين القرآني

والنبوي

نكتفي في هذا الباب بهذه العلاقات دون أن نتحدث عن علاقات أخرى من ذلك تخصيص

القرآن بالإجماع وبالقياس وتخصيص الحديث بالحديث وهي علاقات كثيرة و متواترة في كتب

أصول الفقه وتترجم أيضا تلك التعالقات النصية .

ثانيا: المطلق والمقيد

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الفرائض، باب: ما جاء في إبطال ميراث القاتل (2255) والدارمي من كتاب

الفرائض، باب: ميراث القاتل (3142)، والبيهقي في كتاب الفرائض، باب: لا يرث القاتل (12605).

(2) أخرجه البخاري كتاب الفرائض، باب: قول النبي ﷺ «لا نورث ما تركنا صدقة» (6726)، ومسلم كتاب الجهاد

والسير، باب: قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» (4679)

(3) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد، باب في صيد قطع منه قطعة (2858)، والترمذي في كتاب الصيد

الذبائح، باب ما جاء ما قطع من الحي فهو ميت (1508)، وابن ماجه في كتاب الصيد، باب ما قطع من البهيمة

وهي حية (3216).

المطلق لغة هو ضد المقيد أو المرسل

اصطلاحاً تتفق الاصطلاحات في الدلالة على الحقيقة بلا قيد كالقول أعظم به من فتى .

أو " هو اللفظ الدال على معنى شائع في جنسه " ¹

" وقيل في حده: هو ما دل على الماهية بلا قيد من حيث هي هي " ²

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: 185).

فكلمة أيام أخر تفيد الإطلاق دون تحديد أو قيد .

تعريف المقيد لغة

هو ما وجد فيه قيد .

اصطلاحاً: هو ما دلّ على الحقيقة بقيد، كقولنا: أعظم به فتى دمث الخلق

مثال ذلك من النص القرآني: «متتابعين» في قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾. النساء 92

فالصيام هاهنا مشروط أو مقيد بالتتابع. عكس الوضع في الآية السابقة

" كلفظ "رقبة" في كفارة اليمين (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) سورة المائدة: الآية 89

فلم يحدد النص القرآني طبيعة هذا العبد المملوك هل هو مؤمن أو كافر وهو ما تم تقييده في سور

النساء بالرقبة المؤمنة (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) فوجب حمل المطلق على المقيد وإن اختلف السبب

وكما هو ظاهر فالعلاقة بين النصين علاقة تناسل من حيث أن النص المطلق استحضر النص

المقيد.

(1) الإحكام للآمدي - ج 3 / ص 5

(2) الشوكاني إرشاد الفحول ج 2 / ص 477

مثال ثان: في قوله عز وجل في الآية من سورة المائدة 3 (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ..)
 وقوله في آية من سورة الأنعام 145 (قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ
 يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا) .

ففي النص الأولي التحريم مطلق على مستوى لفظ "الدّم"، أما في النص الثاني فيُبد هذا
 الإطلاق بلفظ مسفوحا، واشتركا النّصان في الحكم وهو التّحريم، وفي السّبب - وهو أكل الدّم -
 ، فوجب حمل النصّ المطلق على النصّ المقيّد والعامّ على الخاصّ، فالقول بتحريم الدّم المسفوح
 دون غيره. وتم ذلك من خلال علاقة الاستحضار أوالتعالق بين النصين فالممارسة هنا تناصية

المطلق والمقيد في النص النبوي

وتتجلى علاقة استدعاء النص النبوي لنص نبوي آخر (تناس) على مستوى قاعدة المطلق
 والمقيد في أمثلة كثيرة جدا نورد مثالا، للتوضيح:
 عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ: قال: " ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي
 النار " ¹. يبدو التحريم هاهنا مطلقا دون قيد دل على ذلك صريح نص الحديث النبوي الذي توعّد
 من أطلق ثوبه تحت الكعبين، لكن بربط هذا النص النبوي بنص آخر من خلال علاقة تعالق
 النصين يتم تقييد هذا الإطلاق بلفظ (من جر إزاره بطرا)، لنتأمل النص الثاني الذي يتعالق مع
 النص الأول:

(1) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار، رقم الحديث (5787)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: " لا ينظر الله يوم القيامة إلي من جر إزاره

بطراً " ¹ والمثال يكرس تناسبا بين النصين النبويين من خلال قاعدة المطلق والمقيد. والأمثلة في

هذا الباب كثيرة جدا

ثالثا: المجمل و المبين

تعريف المجمل لغة هو جمع الشيء على غير تفصيل

وأورد صاحب مختصر الروضة " لغة: ما جعل جملة واحدة، لا ينفرد بعض آحادها عن بعض،

واصطلاحا: اللفظ المتردد بين محتملين فصاعدا على السواء. وقيل: ما لا يفهم منه عند الإطلاق

معنى. " ²

وسمي المجمل بذلك: لأنه اختلط فيه المراد بغير المراد فسمي مجملا

وهو الذي لا يتضح المقصود منه لتردده بين معانٍ متساوية في الاحتمال.

اصطلاحا: عرفه (الأمدي): بقوله: " ماله دلالة على أحد أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر

بالنسبة إليه " ³

- وعرفه (ابن الحاجب): بقوله: " ما لم تتضح دلالاته وقيل، اللفظ الذي لا يفهم منه عند الإطلاق

شيء " ⁴.

(1) المرجع السابق رقم الحديث (5788)

(2) نجم الدين ابن سعيد الطوسي شرح مختصر الروضة ج 2 تحق عبد الله بن المحسن التركي مؤسسة الرسالة 1470 هـ 1987 م / ص 647

(3) الإحكام للآمدي - 7-6/3.

(4) أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأصبهاني بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب ج 2

تحق محمد مظهر بقا دار المدني سوريا 1406 هـ 1986 م / ص 358

تعريفه المبين لغة: المُبَيَّن لغة: " الْمُظْهَرُ وَالْمَوْضَح ...بَانَ الْأَمْرُ يَبِينُ فَهُوَ بَيِّنٌ وَجَاءَ بَائِنٌ

عَلَى الْأَصْلِ وَأَبَانَ إِبَانَةً وَتَبَيَّنَ وَاسْتَبَانَ كُلُّهَا بِمَعْنَى الْوُضُوحِ وَالْإِنْكَشَافِ وَالْإِسْمُ الْبَيِّنُ"¹

فالبيان هو الإيضاح، وهو إخراج اللفظ من حالة الإجمال والخفاء إلى حالة الظهور والانتضاح.

اصطلاحاً: " المبين ما نص على معنى معين من غير إبهام. وإن قلت: المجمل ما لا يفهم منه

عند الإطلاق معنى معين، فقل: المبين ما فهم منه عند الإطلاق معنى معين من نص، أو ظهور

بالوضع، أو بعد البيان"²

وهو نوعان مبين بنفسه ومبين بغيره، ونتجاوز المبين بنفسه إلى المبين بغيره وهو ما يحتاج في

فهم معناه الاستناد على غيره، بما يحقق له البيان ويسمى مبيّناً (بكسر الياء).

وتوضيح ذلك أن يكون اللفظ مجملاً في غير بيان، فينكشف معناه بغيره من لفظ أو قرينة .

علاقة المجمل بالمبين:

تتضح هذه العلاقة من خلال هذه الأمثلة

على مستوى علاقة النص القرآني بنفسه

- قوله تعالى: (أَوْ يَغْفُورَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) البقرة 237 فالنص هنا مجمل بمعنى من هو

الذي بيده عقد النكاح هل هو الزوج أو ولي الزوجة فيأتي نص (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

البقرة 237، ليبين أن المقصود به هو الزوج امتثالاً لسياق النص فيكون التبيين بهذا الوصف

من خلال التعالق بين النصين

على مستوى النص القرآني في علاقته بالنص النبوي:

(1) المنياوي أبو المنذر محمود بن محمد مصطفى الشرح الكبير لمختصر الأصول في علم الأصول المكتبة

الشاملة مصر ط1 1432 هـ / 2011 ص 315 وينظر مادة (ب ي ن) في الصحاح، ولسان العرب،

(2) المرجع نفسه ص 316،

مثال أول قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: 43) فهذا النص مجمل من حيث أن خطاب التكليف بالصلاة والزكاة يحتاج إلى بيان، فجاء النص النبوي في أحاديث كثيرة تبين صفة الصلاة والزكاة من ذلك مثلاً: حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)¹

مثال ثان: في النص القرآني الفاض بالالتزام بوقت الصلاة الذي ورد مجملاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء: 103) إذ لم يحدد هذا النص مواقيت الصلاة فجاء النص النبوي الذي تعالق مع هذا النص القرآني كي يبين ما أجمل في النص القرآني، في الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "وَقْتُ الظُّهْرِ إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ، وَكَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ كَطُولِهِ، مَا لَمْ يَحْضُرِ الْعَصْرُ، وَوَقْتُ الْعَصْرِ، مَا لَمْ تَصْفَرَّ الشَّمْسُ، وَوَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ، وَوَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ الْأَوْسَطِ، وَوَقْتُ صَلَاةِ الصُّبْحِ، مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ، مَا لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَأَمْسِكْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ"²

خلاصة

-
- (1) صحيح البخاري باب الصلاة رقم الحديث 637
وينظر أيضاً أحمد بن حجر العسقلاني فتح الباري في صحيح البخاري ج 1 دار الريان للتراث 1407 هـ /
1987 م باب التسليم ص 376
(2) رواه مسلم في صحيحه كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ « بَابُ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ » رقم الحديث

نكتفي بهذه القواعد على سبيل التوضيح والتدليل على علاقات التعالق والتناص بين النص القرآني في علاقته بنفسه ثم في تعالقه مع النص النبوي وقد توخينا الإيجاز والتركيز دون الخوض في التفاصيل والجزئيات مثلما لم نتعرض لعلاقات النص القرآني بالإجماع والقياس وهي مستويات تحدد أيضا علاقات التناص والتعالق مثلما أننا لم نتناول الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني وكلها أبواب تتجلى فيها علاقات التناص والتعالق، ذلك أن مقصد البحث هو الإحالة إلى هذه القواعد الأصولية في عمومها بوصفها تحدد هذه الممارسة النصية الموسومة بالتعالق النصي دون استقراء كل الجزئيات لأن هذا المقصد يحتاج إلى دراسة مستفيضة وممتدة تتجاوز مساحة هذا المبحث، وتمتد في نسق آخر هو علم أصول الفقه .

خاتمة البحث

خاتمة البحث

هذه بعض من المحاولات لقراءة المدونة التراثية يراد بها تلقي فهم القدامى _ وتحديد أولئك الذين اشتغلوا على النص القرآني الكريم _ لظاهرة الاتساق في الخطاب القرآني الكريم كممارسة رغم غياب المصطلحات التي تتطابق من المنجز الغربي الحديث، وقد تبين لنا باستقراء المقولات التي اشتغل عليها البحث (التناسب، السياق، التناسل مستويات التعالق بين أجزاء النص) أن ثمة إمكانية التأسيس لمفردات الاتساق والتماسك النصي وهو فهم يحفز الخوض بعمق وإسهاب في إثراء هذه المفردات بكل الأبعاد والمستويات المتاحة، وهذا هو الدافع الأول لبناء هذا المشروع، يضاف إليه دافع الإنصاف و محاولة البرهنة على أن في تراثنا العريق مادة خصبة يمكن استثمارها قصد التأسيس لمنظومة إجرائية في تحليل الخطاب، و ليس ذلك ضرباً من النرجسية، لأن تراثنا غنيٌ حد التشبع بالمباحث النصية، وقضايا اللغة بمستوياتها المتباينة التركيبية، الدلالية، الصوتية، السياقية، والتداولية، دل على ذلك الاستقراء في متون، ومصنفات هذا التراث العظيم

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً القرآن الكريم

ثانياً: قائمة المصادر والمراجع

- (1) ابن الأثير ضياء الدين المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة دار نهضة مصر القاهرة 1973
- (2) ابن تيمية تقي الدين أحمد اقتضاء السراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم تحق ناصر عبد الكريم العقل مكتبة الرشد الرياض
- (3) ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم التسعينية تحق محمد بن ابراهيم العجلان مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض 1420 هـ 1999 م
- (4) ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية تح محمد السيد الجليلند ج 3 مؤسسة علوم القرآن دمشق ط 2 1404 هـ 1984 م
- (5) ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم مقدمة في أصول التفسير شرح د: مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار ر دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية
- (6) ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم نقض المنطق حقق الأصل المخطوط وصححه محمد بن عبد الرزاق حمزة، سليمان بن عبد الرحمان الصنيع، صححه محمد حامد العقي تقديم عبد الرحمان الوكيل/ طبع مكتبة السنة المحمدية القاهرة

(7) ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية تحق

خالد بن أحمد بن محمد المشيخ دار العاصمة الرياض ط 1418 هـ / 1998 م

(8) ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم مجموع فتاوى مجمع الملك فهد 1416 هـ

1995

(9) ابن جني أبو الفتح عثمان الموصلي. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة

المصرية للكتاب ط4

(10) ابن رشيق أبو علي الحسين الأزدي القيرواني العمدة في محاسن الشعر وآدابه

تحق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجبل ط 5 1401 هـ / 1981 م

(11) ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الحسني العلوي عيار

الشعر تج عبد العزيز بن ناصر المانع الخانجي - القاهرة

(12) ابن قتيبة بو محمد عبد الله مسلم الدنيوري أدب الكاتب تحق محمد الدالي مؤسسة

الرسالة

(13) ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي أعلام الموقعين عن رب

العالمين تح محمد عبد السلام إبراهيم دار الكتب العلمية 1411هـ/1991م ط 1

(14) أبو الحسين محمد بن علي الطيب البصري المعتمد في أصول الفقه تح خليل

الميس دار الكتب العلمية - بيروت ط: 1، 1403

(15) أبو الفرج محمود محمد المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة والحديث دار

النهضة العربية للطباعة والنشر مصر

(16) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي شذرات الذهب في أخبار من ذهب ؛

231 دار الفكر بيروت ط 2

(17) أحمد أبوزيد التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي

منشورات كلية الآداب بالرباط المغرب مطبعة النجاح الجديدة

(18) أحمد جمال العمري المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها

وتطورها حتى القرن السابع هجري، مكتبة الخانجي القاهرة 1410 هـ 1990م

(19) الأصبهاني أبو الثناء محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بيان المختصر شرح مختصر ابن

الحاجب تحقق محمد مظهر بقا دار المدني سوريا 1406 هـ 1986 م

(20) الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود روح المعاني في تفسير القرآن

العظيم و السبع المثاني. إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

(21) الأُمدي علي بن محمد الإحكام في أصول الأحكام تح عبد الرزاق عفيفي دار

الصميعي للنشر الرياض ط 1، 1424هـ / 2003 م

(22) الباقلاني أبو بكر بن الطيب الانتصار للقرآن القاضي تح محمد عصام القضاة دار

الفتح للنشر والتوزيع عمان دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت ط 1 1422هـ 2001

م م

(23) البزدوي كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام دار سعادات طبعة تركية قديمة

جدا بدون تاريخ

(24) البقاعي برهان الدين إبراهيم بن عمر مصاعد النظر في مقاصد السور

- (25) البقاعي برهان الدين إبراهيم بن عمر ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،
دار الكتاب الإسلامي مصر
- (26) تامر سلوم نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر والتوزيع
اللانقية سوريا ط 1 1983
- (27) التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول
تح عبد الوهاب عبد اللطيف دار الكتب العلمية بيروت 1403 هـ 1983 م
- (28) تمام حسان اجتهادات لغوية عالم الفكر مصر ط 1 2007
- (29) تمام حسان البيان في روائع القرآن دراسة لغوية و أسلوبية للنص القرآني دار
عالم الكتب القاهرة ط 2 يناير 1993
- (30) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة ، الدار البيضاء،
المغرب، 1994،
- (31) التتوخي زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمرو الأقصى القريب في علم
مطبعة السعادة مصر ط 1 1327 هـ
- (32) الجاحظ البيان والتبيين تحق عبد السلام هارون
- (33) الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، البيان والتبيين
الناشر :دار ومكتبة الهلال، بيروت عام النشر 1423 : 3هـ :
- (34) الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، كتاب الحيوان
- (35) الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، أبو عثمان، رسائل الجاحظ
جمعها ونشرها حسن السندوبي ط 1 1352 هـ / 1933م المطبعة الرحمانية مصر

- (36) الجرجاني القاضي، الوساطة بين المتنبي وخصومه
- (37) الجرجاني عبد القاهر دلائل الإعجاز أسرار البلاغة
- (38) الجرجاني عبد القاهر دلائل الإعجاز في علم المعاني تح محمود محمد شاكر
دار المدني بالقاهرة ط 3 1413 هـ / 1993
- (39) الجرجاني عبد القاهر دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ط 2
الخانجي، القاهرة 1989م ،
- (40) جميل حمداوي نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة
- (41) الجندي أنور، اللغة العربية بين وخصومها وحماتها مطبعة الرسالة شارع
عابدين مصر القاهرة
- (42) الجندي أنور الفصحى لغة القرآن دار الكتاب اللبناني بيروت 1402 هـ
1982 م
- (43) الجوّاري عبد الستار نحو القرآن مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد
1394 هـ 1974م ط 1
- (44) الحافظ ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق دار الفكر دمشق
- (45) الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي غريب الحديث،
تحقيق عبد الكريم العزباوي، ج 1 جامعة أم القرى بمكة المكرمة ط 2 1402 هـ 1982م
،
- (46) الخفاجي أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الحلبي سر الفصاحة دار
الكتب العلمية بيروت ط 1 1402 هـ 1982 م

- (47) الخولي أمين .دراسات إسلامية . دار الكتب المصرية، القاهرة 1996
- (48) الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان سیر أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة 1422 هـ / 2001م
- (49) الرازي فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين المحصول في علم أصول الفقه، تح طه جابر العلواني مؤسسة الرسالة
- (50) الرازي فخر الدين محمد بن عمر مناقب الشافعي
- (51) الرازي محمد فخر الدين ابن ضياء الدين التفسير الكبير ومفاتيح الغيب دار الفكر للطباعة والنشر لبنان بيروت (ج 11 ص 236) ط 1 1401 هـ 1917 م
- (52) الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ط 3 دارالكتاب المغرب، ط 3 بيروت لبنان
- (53) الزحيلي وهبة أصول الفقه الإسلامي دار الفكر للطباعة والنشر دمشق ط 1 140 6 هـ 1986 م
- (54) الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن ج1 دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ط 3، 1400 هـ 1980 م
- (55) الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن تحق يوسف عبد الرحمان المرعشلي ج، 1 دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ط 3، 1400 هـ 1980
- (56) الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله المفصل في صنعة الإعراب تحق علي أبو ملحم مكتبة الهلال بيروت ط 1 1993

(57) الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد، الزمخشري الخوارزمي النحوي:

الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ج 1، دار
المعرفة لبنان ط 2 1971م،

(58) الزمخشري جار الله محمود بن عمر تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقاويل في وجوه التأويل تحقيق وتعليق محمد مرسي عامر مراجعة د. شعبان محمد إسماعيل
دار المصحف شارع الصناديقية القاهرة

(59) سبحاني محمد عناية الله إمعان النظر في نظام الآي والسور ، دار عمار ص
258.

(60) السجل ماسي أبو محمد القاسم المنزوع البديع في تجنيس أساليب البديع تح علال

الغازي ط 1 1401 هـ 1980 م مكتبة المعارف الرباط المغرب

(61) السرخسي أبو بكر محمد بن أحمد أصول السرخس تح أبو الوفا الأفغاني نشر

لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الهند طبعة قديمة بدون تاريخ

(62) سعيد حوى الأساس

(63) السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي مفتاح العلوم ضبطه وكتب هوامشه

وعلق عليه :نعيم زرزور الناشر :دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط 2، 1407 هـ -
1987

(64) سيبويه أبو بشر بن عثمان قنبر الكتاب تح عبد السلام هارون ط 3 1408 هـ

1988 م مكتبة الخانجي

(65) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: تناسق الدرر في تناسب السور، دراسة تحق

عبد القادر أحمد عطا (مقدمة التحقيق)، دار الكتب العلمية، بيروت

(66) السيوطي الحافظ جلال الدين عبد الرحمن الإيتقان في علوم القرآن تقديم

مصطفى ديب البغا دار ابن كثير للطباعة والنشر دمشق ط 5، 1422 هـ 2002 م

(67) السيوطي جلال الدين المزهري في علوم اللغة وأنواعها ط دار الكتب العلمية

بيروت تحق فؤاد علي منصور ط 1، 1998، ج 2

(68) السيوطي: الحافظ جلال الدين تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، طبعة

جديدة ومنقحة ج 1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ط 1،

بيروت 1426 هـ 2005 م

(69) الشاطبي الاعتصام، تحق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان مكتبة

التوحيد البحرين ط 1 2000 م ج 3

(70) الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الاعتصام تحق سليم

الهلاي. دار ابن عفان: 1412 هـ / 1992 م

(71) الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الموافقات في أصول الشريعة، تقديم

الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد دار ابن القيم ، دار ابن عفان مصر، ط

(72) الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس الرسالة تحقيق أحمد شاكر: مكتبه

الحلبي، مصر 1357 هـ / 1938 م ط 1

(73) الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس (تفسير الإمام الشافعي) تحقيق أحمد بن

مصطفى القرآن الناشر: دار التدمرية - المملكة العربية السعودية ط 1 1427 هـ -

2006 م

(74) شاهين عبد الصبور ، عربية القرآن، مكتبة الشباب القاهرة

(75) الشوكاني محمد بن علي بن محمد ا فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من

علم التفسير تح يوسف الغوش دار المعرفة بيروت لبنان ط 4 1428 هـ 2007 م

(76) الشوكاني محمد بن علي بن محمد إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول

تح شعبان محمد إسماعيل دار السلام للطباعة والنشر ط 1414 هـ 1998 م

(77) الشيرازي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: التبصرة تحق محمد حسن هيتو، دار الفكر

دمشق ط 1 1403 هـ

(78) صارم الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير، الفُصولُ اللؤلؤية في

أصول فقه العترة الزكية، وأعلام الأمة المحمية تحق محمد يحيى سالم عزان مركز التراث

والبحوث اليمني

(79) الصباغ: محمد التصوير الفني في الحديث النبوي، المكتب الإسلامي بيروت

م 1988 ط

(80) صبري حافظ أفق الخطاب النقدي دراسات نظرية وقراءات تطبيقية

(81) صلاح فضل علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ط 2 الهيئة المصرية للكتاب 1985

مصر

- (82) الطوسي نجم الدين ابن سعيد شرح مختصر الروضة تح عبد الله بن المحسن التركي مؤسسة الرسالة 1470 هـ 1987 م
- (83) الطوفي سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين شرح مختصر الروضة تحق عبد الله بن عبد المحسن التركي ط 1 مؤسسة الرسالة السعودية 1407 هـ / 1987 م
- (84) عبد الله دراز، النبأ العظيم مطبعة السعادة مصر. 1379 هـ 1960
- (85) -عبد الله صولة الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية دار الفارابي بيروت لبنان ط2
- (86) العز بن عبد السلام الإشارة إلى الإيجاز
- (87) العسقلاني أحمد بن علي بن حجر فتح الباري بشرح صحيح البخاري .تح محمد فؤاد عبد الباقي و محب الدين الخطيب دار الريان للتراث، 140 هـ 1986 م
- (88) العسقلاني أحمد بن علي محمد الكناني ، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير .مؤسسة قرطبة ط 1 1416 هـ/1995م
- (89) العلواني طه جابر ، نحو منهجية معرفية قرآنية محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة سلسلة كتاب دوري يصدرها مركز فلسفة الدين والكلام الجديد في بغداد، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط1 2004م
- (90) الغزالي محمد بن محمد أبو حامد المستصفى في علم الأصول، تحق محمد عبد السلام عبد الشافي: دار الكتب العلمية - بيروت ط 1 1413 هـ

- (91) الغزالي أبو حامد محمد بن محمد المستصفي في علم الأصول ج 3 طرق الاستنباط
تح حمزة بن زهير حافظ: الناشر: شركة المدينة المنورة للطباعة المدينة المنورة السعودية
- (92) الفارسي علاء الدين بن بلبان الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الأمير تح
شعيب الأرنؤوط مجلد 16 مؤسسة الرسالة بيروت ط 1 1412 هـ 1991
- (93) الفراهي، عبد الحميد تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ، طبع ونشر
الدائرة الحميدية _ الهند ط 1 2008 م
- (94) الفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام ،الدائرة الحميدية ومكتبتها، الهند، 1388هـ.
- (95) القرافي شهاب الدين أحمد بن محمد بن إدريس، شرح تنقيح الفصول في اختصار
المحصل في الأصول،اعتناء مكتب البحوث والدراسات لدار الفكر، طبع ونشر دار الفكر
بيروت لبنان ط 1424 هـ 2004 م
- (96) القرافي شهاب الدين أحمد بن إدريس تنقيح الفصول في اختصار المحصول في
علم الأصول، دار الفكر بيروت ط 1، 1418هـ / 1997 م،
- (97) القرطاجني أبو الحسن حازم ا ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء تح محمد الحبيب ابن
خوجة الدار العربية للكتاب ط 3 تونس 2008
- (98) القرطاجني أبو حسن حازم منهاج البلغاء وسراج الأدباء تقديم وتحقيق محمد
الحبيب بن الخوجة دار الغرب الاسلامي بيروت 1981
- (99) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبين
لما تضمنه من السنة وأي الفرقان تحق عبد الله بن عبد المحسن التركي ج 1

(100) القزويني الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمان ، التلخيص في علوم

البلاغة تح 24 عبد الرحمان البرقوقي دار الفكر العربي ط 2 1350 هـ 1932

(101) الكوز الحصارى، (محمد الخادمي) مصطفى بن السيد محمد، منافع الدقائق شرح

مجامع الحقائق، غير محقق دمشق،

(102) محمد حسين علي الصغير نظرات معاصرة في القرآن الكريم دار المؤرخ لبنان

بيروت

(103) محمد مفتاح ، دينامية النص - تنظيم و إنجاز - المركز الثقافي العربي ط 2 -

الدار البيضاء المغرب

(104) المصري ابن أبي الإصبع بديع القرآن تح حفني محمد شرف دار نهضة مصر

للطباعة والنشر ط 1

(105) المنياوي أبو المنذر محمود بن محمد مصطفى الشرح الكبير لمختصر الأصول في

علم الأصول المكتبة الشاملة مصر ط 1 1432 هـ / 2011

(106) منير وليد. النص القرآني من الجملة إلى العالم، (أمريكا: المعهد العالمي للفكر

⁽¹⁰⁷⁾ المهدي لدين رب العالمين أحمد بن يحيى المرتضى منهاج الوصول إلى معاني معيار

العقول في علم الأصول تحق محمود سعد ، دار مؤسسة الإخلاص نبها مصر 2006

م

(108) ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلي دار المعارف بمصر ط 7 1988

ص 229

(109) نهاد الموسى نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث دار

البشير ومكتبة وسام الأردن ط2 1987

(110) ياسر رضوان التناص القرآني دراسة في أشكال العلاقة بين الآيات القرآنية دار

افريقيا الشرق المغرب ط2013

(111) يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ط(1) دار الثقة للنشر

والتوزيع، مكة المكرمة 1410هـ

كتب الحديث النبوي

112 ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه تحقيق: محمد

فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية

113 أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني أبو داود سنن أبي داود تح

ق شعيب الأرناؤوط دار الرسالة العالمية ط 1403 هـ / 1907 م

114 أحمد بن علي بن حجر العسقلاني فتح الباري في شرح صحيح البخاري دار

الريان للتراث 1407 هـ 1986

115 أحمد بن علي بن حجر العسقلاني فتح الباري في شرح صحيح البخاري دار

الريان للتراث 1407 هـ 1986

116 البخاري محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي دار بن كثير 1414 هـ / 1993 م

صحيح البخاري

- 117 الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة سنن الترمذي تحقق بشار عواد ،
دار الغرب الإسلامي بيروت 1998 م
- 118 الطبراني سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم المعجم الكبير ، تحقق حمدي
عبد المجيد السلفي مكتبة ابن تيمية القاهرة
- 119 مسلم مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صحيح مسلم دار إحياء الكتب
العربية

المراجع المترجمة

- 120 باتريك شارودو و دومينيك منغو تر معجم تحليل الخطاب ترجمة مجموعة
من المؤلفين بإشراف عبد المهيري حمادي صمود المركز الوطني للترجمة _ تونس دار
سيناترا 2008
- 121 ثيودور نولدكه :اللغات السامية تخطيط عام .ترجمة :الدكتور رمضان عبد التواب .
دار النهضة العربية .القاهرة، 1963 م ،
- 122 جوليا كريستيفا علم النص تر فريد الزاهي مراجعة عبد الجليل ناظم دار
توبقال للنشر الدار البيضاء المغرب ط 2 1997
- 123 جون لاينز اللغة والمعنى والسياق تر عباس صادق الوهاب مراجعة د
يونيل عزيز دار الشؤون العامة العراق بغداد ط 1987

124 جيرار جينات طروس الأدب على الأدب تر محمد خير البقاعي ضمن كتاب

النص والتناصية مركز الإنماء الحضاري حلب سوريا ط 1 1998

125 جيرار جينات طروس الأدب على الأدب تر محمد خير البقاعي الموقف الأدبي ع

333، كانون الثاني 1999 اتحاد الكتاب دمشق

126 جيرار جينات طروس الأدب على الأدب تر محمد خير البقاعي الموقف الأدبي ع

333، كانون الثاني 1999 اتحاد الكتاب دمشق

127 رمان سلدن النظرية الأدبية المعاصرة تر جابر عصفور الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة 1996 ص 148

128 رولان بارت لذة النص ، 26، ترجمة د. محمد خير البقاعي .

129 رولان بارت نقد وحقيقة تر منذر العياشي مركز الإنماء الحضاري حلب سوريا ط 1

130 رولان بارت ، نظرية النص بحث مترجم ضمن كتاب " آفاق

التناصية...المفهوم والمنظور ترجمة د. محمد خير البقاعي، 30، الهيئة المصرية العام

للكتاب .

131 زيغريد هونكة شمس العرب تسطع على الغرب ترجمة -أثر الحضارة العربية في

أروبا ترجمة فروق بيضون وكمال الدسوقي راجعه مارون عيس الخوري دار الجيل

بيروت لبنان ط الثامنة 1413 هـ 1993 م

132 سعيد حسن بحيري علم لغة النص نحو آفاق جديدة ترجمة لمجموعة من

المؤلفين زهراء الشرق القاهرة ط 1،

133 سعيد حسن بحيري علم لغة النص نحو أفاق جديدة ترجمة لمجموعة من

المؤلفين زهراء الشرق القاهرة ط 1،

134 فان دايك النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي تر عبد

القادر قنيني إفريقيا الشرق المغرب 2000

135 فندريس: اللغة، ترجمة الدواخلي والقصاص، 231 مكتبة الأنجلو المصرية سنة

1950م.

136 يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة، ط(1) دار الثقة للنشر والتوزيع،

مكة المكرمة 1410هـ

المعاجم والقواميس

135 محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي مختار الصحاح، : مكتبة لبنان 1986

136 مجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط تح محمد نعيم العرقسوسي ط

8 1426 هـ 2005 م مؤسسة الرسالة بيروت

137 المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية مكتبة الشروق الدولية: 2004 ط: 4

138 محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل لسان العرب دار
صادر - بيروت

139 أحمد بن فارس بن زكريا القزويني معجم مقاييس اللغة تحقق عبد السلام محمد بن هارون
دار الفكر بيروت 1399هـ 1979

140 أبو القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري أساس البلاغة تحقق محمد باسل عيون
السود منشورات دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1419 هـ 1998 م

140 علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني: التعريفات، المحقق: جماعة من العلماء
بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة: الأولى 1403 هـ - 1983 م

142 ابن فارس صاحب في فقه اللغة

الدوريات والمجلات

143 نصر حامد أبو زيد مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني مجلة فصول عدد خاص
بالأسلوبية المجلد 5 العدد 1 - 1984

144 / محمد عبد المطلب النحو بين عبد القاهر وتشو مسكي مجلة فصول عدد خاص بالأسلوبية
المجلد 5 العدد 1 - 1984

145/ أمبرتو إيكو شعرية الأثر المفتوح، تر، عبد الرحمان بوعلي / نوافذ، إصدار دوري يعنى
بترجمة الأدب العالمي عن النادي الثقافي بجدة إشراف عبد الفتاح أبو مدين / ع، 6 شعبان
1419 هـ ديسمبر 1998 المملكة العربية السعودية.

دواوين الشعر

146 امرئ القيس، دوان امرئ القيس تح: مصطفى عبد الشافي منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 5 1425 هـ 2004 م

147/ عنتر بن شداد العبسي ديوان عنتر، دراسة وتحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب
الإسلامي، القاهرة، 1970 ص 182 .

148/ كعب بن زهير ديوان كعب بن زهير، تح علي فاعور، منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1417 هـ / 1997 م

المراجع الأجنبية

149/ R. H. Robins: A Short history of Linguistics

Longman's Linguistics Library، Green and Co LTD. Second

impression 1969

¹⁵⁰/ Jean dubois et autres, dictionnaire de linguistique, larousse, paris

1989, mot contexte.

151/ Swann, Joan, *et.all.*, Dictionary of Sociolinguistics, Edinburgh University Press, UK, 2004.

149/ Christian Baylon et Paul Fabre, la sémantique.

George Mounnene, dictionnaire de la linguistique, presse universitaire, France , paris, 1974

152 Michael Riffaterre Stylistique Structurale Michael Riffaterre traduit de l'anglais par Daniel Essais De Stylistique Structurale Michael Riffaterre

Résumé

Résumé

Cet thèse s'insère dans le champ des études de la linguistique textuelle, mais met ces études en relation avec les études linguistiques arabes anciennes. Nous essayons à partir de la notion de cohésion/cohérence de prouver que les études arabes anciennes, notamment celles qui partent de la jurisprudence islamique, des sciences du Coran, avaient traité cette notion de cohérence textuelle même si les savants arabes n'avaient pas utilisé la même terminologie. Si la terminologie n'est pas toujours identique, la conception est la même ou apparentée. Des concepts désignent dans les études arabes cette cohérence comme symétrie, contexte, niveaux de liaison formelles et sémantiques et intertextualité. Les contributions des anciens savants arabes étaient descriptives, en prenant comme corpus le Coran, afin de manifester sa grandeur et sa singularité, par des approches qui ressemblent par leur précision aux méthodes modernes de la linguistique